كتب للجميع

إنجليزي يتحدث عن مصر

تأليف : ا . و . لين

ترجمة : فاطمة محجوب

العدد ١٢٠

سبتمبر ١٩٥٧

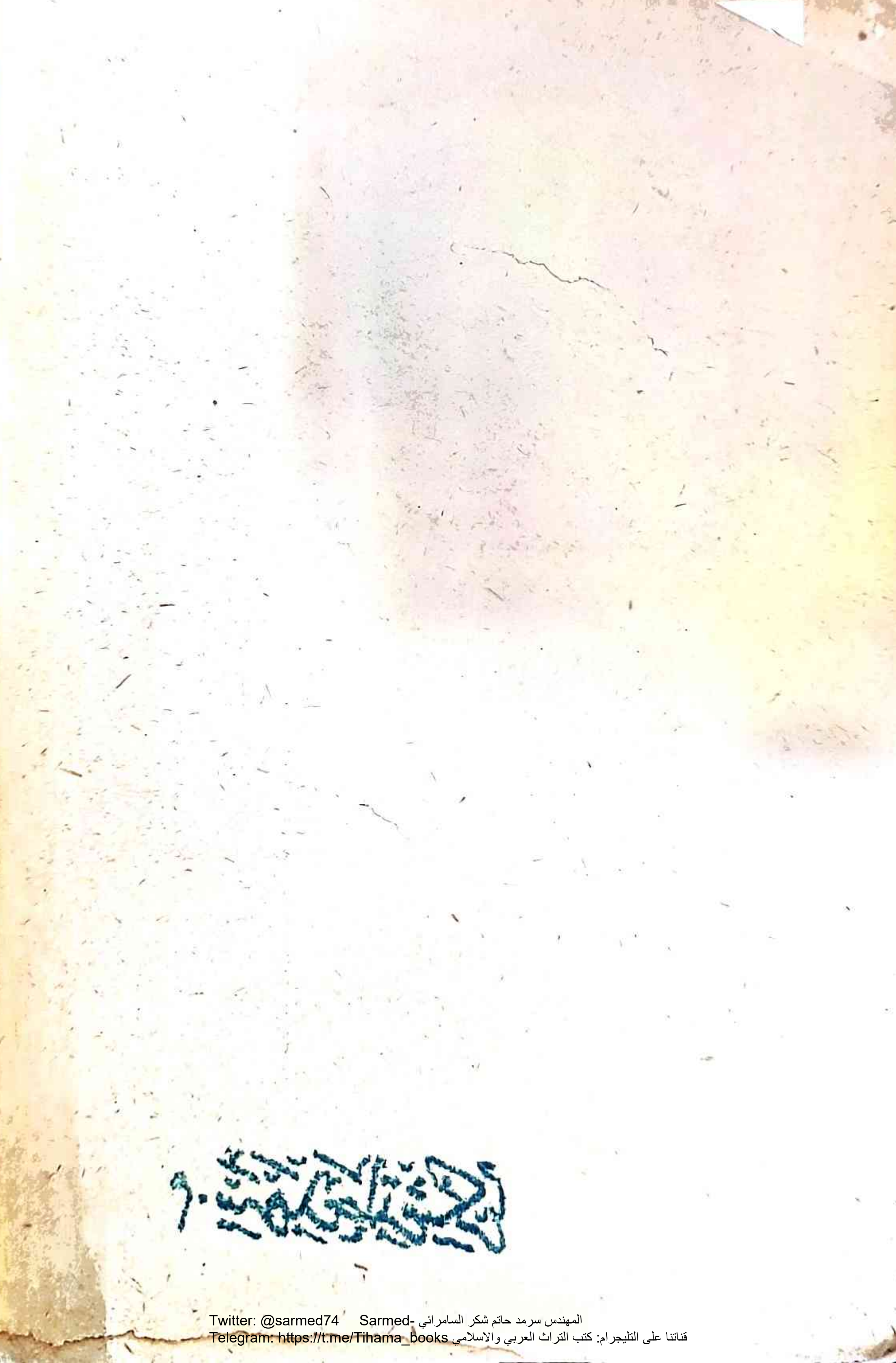
١٠ مليم

كتب للجميع
سبتمبر ١٩٥٧

انجليزى يتحدث عن مصر

تأليف : ا. و. لين
ترجمة: فاطمة محجوب

تصدر عن :
دار التحرير للطبع والنشر



كلمة الكتاب

بقلم : احمد حمروش

الحق في حياة الناس

الحياة تتجدد كل يوم .
البذور الجامدة تتحول فى الحقول الى خضرة يانعة ، البراعم تتفتح عن زهور زاهية وأريج من العطر ، الأشجار تورق وتثمر بعد الجفاف ، الصحراء والأرض الجدباء يصلها الماء فينمو فيها النبات ، المدن تتسع والقرى تنتشر والمبانى ترتفع ، الأطفال تولد والناس تعيش رغم الكوارث والأمراض والحروب ، والحضارة تمضى مع الانسان فى الطريق .

والانسان الذى يبنى الحياة لا تثقل خطواته قسوة الأيام ولا يفقده الظلام صحة الاتجاه ولا تبعث المأساة فى قلبه نبضات اليأس .

والحياة تتجدد كل يوم ..

حياتنا الآن بلورة لتجارب آلاف السنين ، وصقل للثقافة البشرية وتطور للعلوم وفهم عميق لتاريخ البشرية المجيد وعلينا ونحن نقف على قمة هذا التراث العظيم أن نتذكر ما قاله فولتير ((يجب أن نعرف الخطوات التى مشيها الانسان من الهمجية الى المدنية)) .

ان حياة الانسان منذ أن كان يعيش فى الكهف يحتمى من الأعاصير والوحوش والأمطار الى أن أصبح اليوم ينتقل فى الطائرات ويسخر الذرة للتدمير وللسلام ، هذه الحياة يجب أن نعيشها وأن ندرسها وأن نعتصر منها رحيق المستقبل .. يقول الفيلسوف الامريكى جون

ديوى « ان افتراضنا أن هناك قوة فطرية تسبب الحرب افتراض ساذج .. لقد كانت نبضات الأيدى فى العهود المبكرة هى التى تعبر بسرعة عن الغضب والخوف ولكن بين هذه الحركة وبين حرب اليوم تاريخ اقتصـادى وعلمى وسياسى طويل .. فالظـروف الاجتماعية هى التى ولدت الحرب وليست طبيعة الانسـان التى لا تتغير » .

نعم اننا نصنع الحرب والمأساة ومع هذا فان ..

الحيـاة تتجدد كل يوم

وحضارتنا اليوم ترهق أعصابنا وتسلب منا الوقت وصفاء الذهن ، وتحيطنا بمشاكل متنوعة فان العـالم أصبح صغيرا ونحن نعيش يوما مع جاجان فى جواتيمالا ، ويوما مع عفيف البطرة ومؤامرات الاستعمار فى سوريا ، ويوما مع انتخابات المانيا الاتحـادية ، ويوما مع ثوار الجزائر ، ويوما فى طوكيو مع مؤتمر تحريم الانفجارات الذرية ، ويوما فى موسكو مع مهرجان الشباب ، ويوما فى مصر مع بيانات الوزراء فى مجلس الأمة .

هذه الحضارة هى ثمرة حياتنا .

ومصر التى تمتد جذور شعبها الى ومضات التاريخ الأولى تزخر حياة الناس فيها بما يجب استطلاعه ، وما يحسن بنا أن نرفع عنه الغطاء ليلمع بريقه وليعيد الى تاريخنا نبضات الحيـاة .

والحيـاة تتجدد كل يوم ..

وهذا الكتاب لم يكتبه مصرى .. كتبه بريطانى عاش فى مصر ، وجاس خلال المجتمع ، الأسواق والشوارع .. قصور الحكام وأكواخ الفقراء ، عادات الناس وتقاليدهم ،

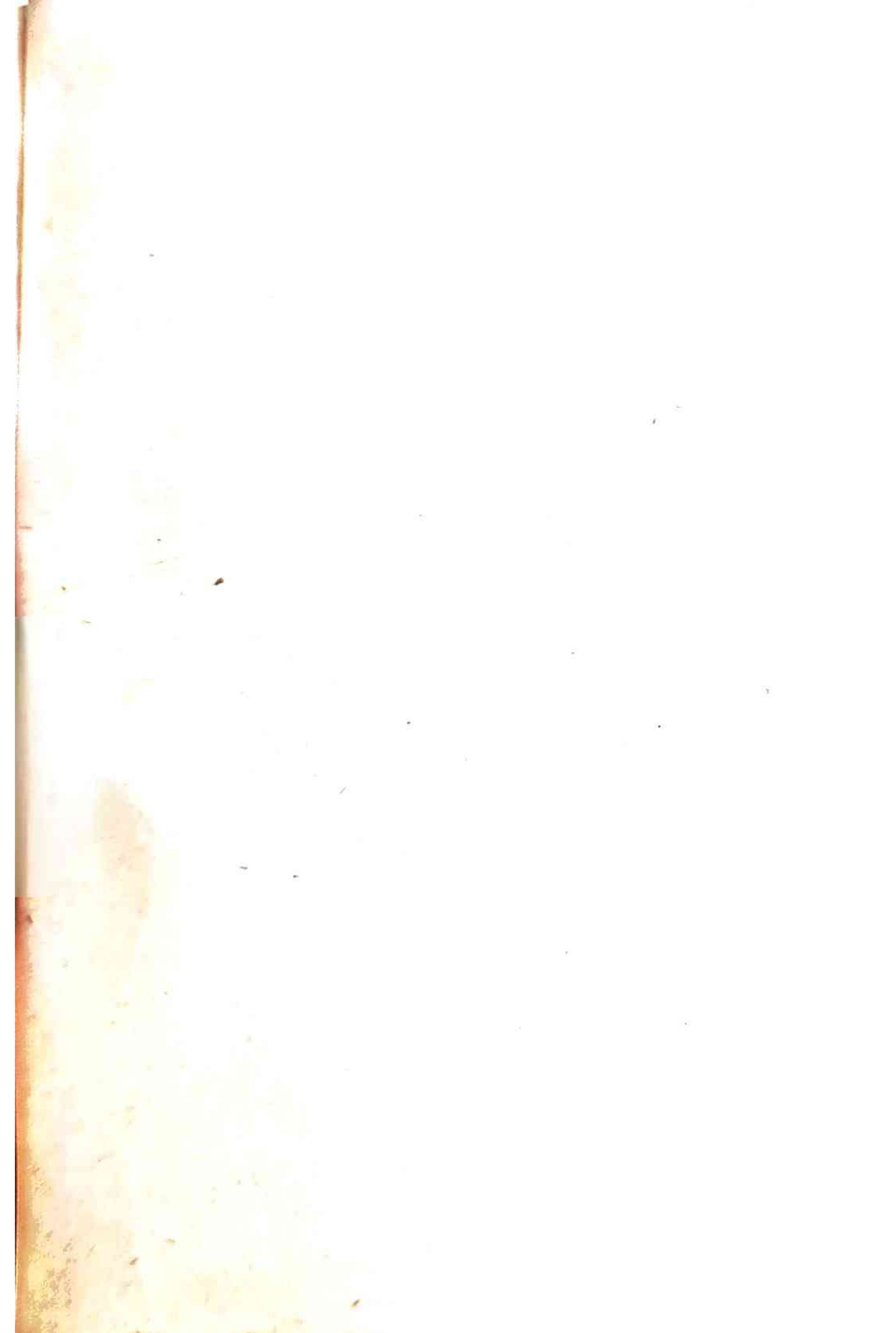
الخرافات والحقائق ، الفنون والآداب ، الظلم والمقاومة ، العـدل والفساد .

والرجل لم يتخذ فيه جانبا ، ولكنه فيما يبدو كان صادقا ومن واجبنا أن نترجم مثل هذه الكتب حتى نرى صورة من صور مجتمعنا .

والسيدة فاطمة محجوب التى ترجمت هذا الكتاب انما تساهم بعملها هذا فى تدعيم المكتبة العربية بكتاب يجب أن يحتفظ به كل المصريين .

ان هذا الكتاب يجلو الصدأ عن حقبة من تاريخ مصر ويظهر الحق فى حياة الناس ويؤكد أن الحياة تتجدد كل يـوم .

أحمد حمروش



مقدمة

فى يوليو عام ١٨٢٥ ، شد الرحال الى مصر ، مستشرق انجليزى هو ((ادوارد ويليام لين)) ، فعاش بين أهلها ، وأخذ يختلط بهم ، يرتدى من الملابس ما يلبسون ، ويطعم مما يطعمون ، ويتكلم العربية كما يتكلمون .. ويسجل حركاتهم وسكناتهم ، وطبائعهم وعاداتهم ، وينفذ الى الحياة داخل بيوتهم ، وينقل صورا من صميم حياتهم : حين يمسون وحين يصبحون ، وحين يتحدثون ويتسامرون .. ويصف أفراحهم وأتراحهم ، ومواكبهم وما تمهم ، وأعيادهم ومواسمهم ، وخرافاتهم وعقائدهم ، ومتاجرهم وأسواقهم ، والموسيقى والغناء فى عهدهم ، وملابس مختلف طوائفهم ، وصلاتهم ومناسكهم ، وظلم الحكام وجورهم ..

وكل تلك الحياة الزاخرة النابضة المتفجرة ، تدب فى مدينة القاهرة .. وليست هى قاهرة اليوم ، قلب العالم العربى ، التى شهدت انتفاضتنا ، وأحداث ثورتنا ، وانما هى القاهرة التى كان يحكمها محمد على ... القاهرة حيث البيوت لها مشربيات ، وفيها قاعة ودرقاعة ، ومندرة يستقبل فيها الضيوف من الرجال ، وحريم تقيم فيه النساء ، ويحرم دخوله على الغرباء ..

القاهرة ، حيث يلبس الرجال القفطان والجبة ، والبنش والفرجية ، وتلبس النساء اليلك والعنترى والجبة ، ويخرجن الى الطريق العام وهن يرتدين ((التزيره)) والبرقع ، وينتعلن ((المز)) ومن فوقه البابوج ..

القاهرة ، بحماماتها العامة ، حيث يقوم على خدمة المستحمين ، اللاونجى والمكيساتى .. القاهرة بدروبها وأزقتها ، التى شهدت المواكب المختلفة ، من زفة الحمام ، وزفة العروسة ، وما اليهما ، ومواكب الدراويش وغيرهم ، فى المواسم والأعياد المختلفة ..

ومؤلف هذا الكتاب ، يتجول بنا فى المجتمع المصرى ، كما شهده فى القرن التاسع عشر ، ونحن فى تجولنا معه ، سنلتقى بنساء ذلك المجتمع ورجاله ، كما سنلتقى أيضا بأطفاله .. وفى كل جولة من جولاتنا معه ، سنقف دائما عند حقيقة واحدة ، هى أننا فى بعض

مظاهر حياتنا ، قد تطورنا ، فى أكثر من قرن من الزمان ، تطورا يكاد يبلغ غايته .. وفى نواح أخرى ، قد وقفت بنا عجلة التطور فى عناد ، فهى تنتظر منا دفعة ، تتبعها دفعات ، حتى يتم التوازن ، ويكتمل البنـــاء ..

فالمرأة المصرية مثلا ، كانت فى ذلك العهد البعيـــد ، تعيش فى الحريم ، لا تجد ما تزجى به فراغها ، أو تسلى به ضيوفها ، سوى الغناء ، والضرب على ((الدربكه)) .. وهى اليوم ، تتبوأ مقعــدها فى الجامعات ، والوظائف العامة ، وأخيرا ، فى مجلس الأمة ..

والتعليم ، كان قاصرا على الكتاتيب فى الصغر ، ثم دراســة فى الأزهر ، لمن يريد أن يتم الدراسة .. أما اليوم ، فقد شمل التعليم جميع مظاهر الحياة ، لكى يفى بحاجات المجتمع ، التى تزداد على مر الأيام ..

وفى ميدان الصناعة ، انتقلت مصر ، من عهد كانت الصناعة فيه ، لا تعدو خراطة النوافذ ، وصناعة الزجاج ، والصباغة ، والرفء ، والصياغة ، وماشابهها ، الى عهد اقيمت فيه مصـــانع الحـــديد والصلب ، ومصانع الأسلحة ، ومصانع الطائرات ..

ويعرض المؤلف لنواح من أخلاقنا ، قد ترضينا وقد تسخطنا ، ولكن الذى لا شك فيه ، أن المثالب التى كانت تشوب أخلاق المصريين فى ذلك العهد ، هى ـ كما اعترف المؤلف ـ نتيجة القسوة البالغة ، التى عاناها الشعب ، على يد حكامه الظالمين .. فالظلم يخلق القسوة، والعناد ، والكذب ، والحرص الذى قد يبلغ حد الشح ..

وحين يعرض المؤلف فنوننا الشعبية ، سنقف قليلا عند الأغانى .. وسنرى أن الأغنية الحديثة ، لم تتخلص مما عابها عليه المؤلف ، منذ مائة عام أو تزيد .. فالأغنية فى سنة ١٨٢٥ ، كانت تحمـــل قسما بالله ، أو بالنبى ، فى غير ما حاجة الى قسم ، وتخاطب الأنثى فيها بضمير المذكر .. والأغنية فى سنة ١٩٥٧ ، ما زالت تحمـــل هذين الوزرين ..

وبعد ، فالكتاب مرجع تاريخى يسجل فترة من حياة شعبنا ، فى دقة وأمانة .. فلنقرأه قراءة واعية مستنيرة ، فيها دراسة وفيها تأمل ، حتى نتخذ العبرة من ماضينا ، ونستكمل أوجه النقص فى مجتمعنا الصاعد البانى ..

فاطمة محجوب



جولة في المجتمع المصري

- النائب والمفتى يتقاسمان الرشوة !..
- القتل باشارة أفقية من يد محمد على .
- الشعب لا يقول .. ((كان من الصالحين)) ..!

مصر اليوم يحكمها الباشا (محمد على) بعد أن أباد « الغز » وهم المماليك الذين كانوا يقتسمون الحكم مع سلفه ، وجعل نفسه حاكما مستقلا ، غير أنه لا يزال يدين بالتبعية للسلطان ، ويرسل الجزية الى القسطنطينية ، ويتبع أحكام القرآن والسنة .. وفيما عدا ذلك فانه يتمتع بسلطة مطلقة .. فمن حقه أن يأمر بقتل من يشاء من رعيته دون محاكمة ودون ابداء سبب ، واذا أشار بيده بحركة أفقية أطاح السيف برأس من يريد ..

وفى القلعة بالعاصمة توجد ساحة للقضاء تسمى « الديوان الخديوى » وكلمة خديوى هى صفة من الكلمة التركية « خديو » التى تعنى « أمير » . ويرأس هذه المحكمة فى غيبة الباشا نائبه حبيب افندى أو الكخيا (الأصح كتخدا) ويصدر رئيس الديوان الخديوى حكمه فى القضايا التى لا تدخل دائرة القاضى أو التى هى من الوضوح بحيث لا يقتضى الأمر احالتها اليه أو الى مجلس آخر . وقد شيدت حاميات كثيرة فى كل أنحاء العاصمة تعسكر فيها قوة من جنود النظام ، ويسمى حرس الحامية « قره قول » . والأشخاص الذين يرتكبون السرقة أو القتل أو غيرهما من الجرائم، فى مدينة القاهرة ، يرسلون فى صحبة أحد جنود الحرس الى الحامية الرئيسية فى الموسكى ، وهو شارع يقع فى حى معظم سكانه من الافرنج . وهناك تتلى قرارات الاتهام وتحرر بها محاضر ، ثم يأخذ الجندى المتهمين الى « الظابط » وهو مدير بوليس العاصمة فيتلى عليه المحضر ثم يبعث بالمتهمين لكى يحاكموا أمام الديوان الخديوى . وتعقد المحاكمات هناك وفى المحاكم الأخرى بطريقة استبدادية ولا تراعى الآداب فى اجراءات المحاكمة ، وكثيرون من الضباط الأتراك من أرفع الرتب يوجهون الى المتهمين وأصحاب القضايا على السواء من فاحش القول ما لا أستطيع أن أذكره هنا .

واذا أنكر شخص التهمة الموجهة اليه ، ولم يكن هناك دليل كاف لادانته ولكن لدى المحكمة بواعث للشبهة فانه يمد ويضرب بالعصا على باطن قدميه حتى يرغم على الاعتراف . فاذا كانت الجريمة التى ارتكبها لا تعرضه لعقوبة قاسية فانه يعترف بعد الضرب أو

قبله فيقول السارق عادة : لقد اضلنى الشيطان فسرقتها ..
والعقوبات التى توقع على المحكوم عليهم هى ارغامهم على العمل فى الأشغال العامة كنقل النفايات وحفر القنوات فى نظير النذر اليسير من القوت .. وأصحاء الأجسام منهم الذين ارتكبوا جرائم هينه يلحقون بالجيش .. وسياسة استخدام المجرمين فى أعمال تتصل باصلاح مرافق البلاد سياسة حكيمة ، الا أن الباشا لا يتبع تلك السياسة اذا وقعت السرقة أو ما اليها من الجرائم فى ممتلكاته اذ يكون شديد القسوة على الجناة وتكون عقوبتهم حينذاك هى الموت ..

وهناك عدا الديوان الخديوى عدة مجالس تدير أعمال المصالح المختلفة . والمجالس الرئيسية هى : ـ

١ ـ مجلس المشورة ويسمى أيضا مجلس المشورة الملكية لتميزه عن غيره من المجالس وأعضاء هذا المجلس والمجالس الأخرى المشابهة يختارهم الباشا لما يمتازون به من ذكاء أو صفات أخرى تؤهلهم لهذا الاختيار ، ولذلك فهم يتوخون مصلحته الشخصية فى كل القرارات التى يتخذونها . وهؤلاء الأعضاء هم أداته فى الحكم ويكونون هيئة تشرف على السياسة العامة للبلاد ، كما تشرف على شئون الباشا التجارية والزراعية . وتعرض على هؤلاء الأعضاء العرائض والالتماسات وما اليها التى ترفع الى الباشا أو ديوانه وتتعلق بمصالحه الخاصة أو بشئون الدولة فينظرون فيها ويصدرون حكمهم بشأنها فاذا وجد أنها من اختصاص المجالس الأخرى التى سيأتى ذكرها تحول اليها .

٢ ـ مجلس الجهادية ويسمى أيضا مجلس المشورة العسكرية واختصاصاته يستدل عليها من اسمه .

٣ ـ مجلس الترسخانة أى مجلس البحرية .

٤ ـ ديوان التجار وأعضاؤه من التجار من مختلف الأجناس والأديان ويرأسه الشاهبندر وهو كبير تجار مدينة القاهرة .

ويتولى القاضى منصبه عاما واحدا حتى اذا انقضى العام يأتى

قاض جديد من القسطنطينية ويعود اليها القاضى الأول . وقد جرت العادة أن يغادر القاضى القاهرة مع قافلة الحجـــاج الى مكة فيقضى شعائر الحج ويبقى مدة عام قاضيا على مكة وعاما آخر على المدينة . ويشترى القاضى منصبه من الحكومة سرا .. ولا تعنى الحـــكومة بمؤهـلاته بل يكفى أن يكون على جانب من المعـــــرفة وأن يكون « عثمانلى » أى تركى وعلى مذهب أبى حنيفة .. وساحة القضاء التى يباشر فيها وظيفته تسمى « محكمة » . وقليل من القضاة هم الذين يلمون الماما تاما باللغة العربية ، ولا يتحتم عليهم الالمام بها . والقاضى فى القاهرة لا يكاد يفعل شيئا .. وكل ما يفعـــله هو أن يصدق على الحكم الذى يصدره نائبه ، أو يؤيد قرار المفتى .. ونائب القاضى هو الذى يفصل فى القضايا العادية ويختاره القاضى من بين علماء استانبول ، أما المفتى فهو حنفى المذهب مثل القاضى ، ويقيم فى القاهرة بصفة دائمة ويصدر أحكامه فى جميع القضايا العويصة .. والنائب ، على أحسن الفـــروض ، لا يعرف من اللهجة المصرية الا قليلا .. ولما كانت أغلبية المتقاضين فى القاهرة من العرب فان القاضى يعتمـــد اعتمادا كليا على « انباشترجمان » اذ أن وظيفته ثابتة وهو لذلك ملم الماما تاما بالعرف السائد فى المحكمة وبخاصة نظام الرشوة فيها .. وهو دائما على استعداد أن يزود كل قاض أو نائب جديد بمعلوماته فى هذا السبيل .. وقد يجهل رجل القانون جهلا فاحشا ومع ذلك يتولى منصب قاضى القاهرة .. وقد حدث ذلك فعـــلا عدة مرات .. أما النائب فيشترط فيه أن يكون محاميـــا ذا علم وخبـــرة ..

واذا قاضى شخص خصما له فانه يذهب الى المحكمة ويلجأ الى « الباشرسل » فى طلب « رسول » للقبض على المتهم . ويأخـــذ الرسول فى نظير ذلك قرشا أو قرشين يقتسمها سرا مع رئيســـه الباشرسل . ثم يؤتى بالمدعى عليه الى القاعة الكبرى بالمحكمة وهى عبارة عن بهو فسيح فى مواجته فناء رحب وصدر البهو مكشوف وبه صف من الأعمدة والعقود .. وفى البهو يجلس عدد من الموظفين يسمون « الشهود » يستمعون الى وقائع الدعوى المعروضة على المحكمة ويكتبونها ، ويرأس هؤلاء الشهود « الباشكاتب » . ويتجه

المدعى الى « شاهد » منهم لا يكون مشغولا بقضية فيبسط أمامه وقائع دعواه ويكتبها الشاهد ويأخذ فى نظير كتابته قرشا أو أكثر ثم يصدر حكمه فى القضية اذا كانت بسيطة واذا اعترف المدعى عليه بعدالة الدعوى .. أما اذا كانت القضية عويصة أو خطيرة فان الشاهد يقود الطرفين المتنازعين الى حجرة « النائب » التى تقع داخل المبنى فيستمع النائب الى الدعوى ثم يطلب من المدعى أن يحصل على فتوى من مفتى المذهب الحنفى الذى يتقاضى فى نظير فتواه أجرا لا يقل عن عشرة قروش وكثيرا ما يزيد على مائة أو مائتى قرش .. وتتبع هذه الاجراءات فى جميع القضايا باستثناء القضايا البسيطة التى يفصل فيها دون عناء ، والقضايا الخطيرة .. وهذا النوع الأخير من القضايا ينظر فى الحجرة الخاصة بالقاضى أمام القاضى نفسه والنائب والمفتى الذى يستدعى للاستماع للقضية واصدار قراره فيها .. وفى بعض الأحيان حين تكون القضية شديدة التعقيد أو بالغة الأهمية يستدعى أيضا كثيرون من علماء القاهرة لاتخاذ قرار فيها .. ويستمع المفتى الى الدعوى ثم يكتب حكمه فيها ، ويصدق القاضى على الحكم ثم يختمه بخاتمه .. وهذا هو كل ما يفعله القاضى عند نظر أية قضية من القضايا .. واذا لم يكن هناك شهود فى القضية يستطيع المتهم تبرئة نفسه بأن يحلف اليمين وذلك بأن يضع يده اليمنى على المصحف الذى تقدمه له المحكمة ثم يحلف بالله العظيم وبكلام الله الذى جاء فى كتابه .. ويشترط فى شهود القضية أن يكونوا من ذوى السمعة الطيبة وليس لهم مصلحة فى القضية . وعدد الشهود المطلوب سماع شهادتهم لا يقل عن رجلين أو رجل وامرأتين ويشهد شاهدان آخران على نزاهتهما .

والى عهد قريب كان يدفع مصاريف الدعوى من يكسب القضية من الطرفين المتنازعين .. أما الآن فيدفعها الطرف الخاسر منهما .. ويأخذ القاضى فى نظير حكمه فى القضايا الخاصة ببيع ممتلكات اثنين فى المائة من قيمة الممتلكات وأربعة فى المائة فى قضايا الميراث الا اذا كان الوارث يتيما لم يبلغ سن الرشد فانه يتقاضى حينذاك اثنين فى المائة فقط .. وفى القضايا الخاصة بالممتلكات من بيوت وعقار تبلغ أتعاب القاضى اثنين فى المائة اذا كان ثمن الممتلكات المتنازع عليها معروفا ..

أما اذا لم يكن كذلك فان القاضى يأخذ ايجار سنة منها .. وهــذا هو الأجر الشرعى للقاضى ولكنه كثيرا ما يطلب أكثر من تلك المبالغ .. و فىالقضايا التى لا تتصل بالممتلكات يحدد النائب أتعاب القاضى .. وتدفع أموال أخرى غير أجر القاضى بعد صدور الحكم فى القضية فمثلا اذا كانأجر القاضى هومائتا قرش أو ثلاثمائة فان الباشترجمان يتقاضى أجرا يبلغ قرشين ويتقاضى الباشرســـــل مثلها .. ويأخذ الرسول أو الرسل الذين استخدمهم المدعى قرشا واحدا .

وكثيرا ما يتأثر حكم القاضى فى القضية بمركز المدعى أو المدعى عليه أو بالرشوة التى يقدمها احدهما له .. والنائب والمفتى يأخذان الرشاوى ويأخذ القاضى نصيبه من نائبه .. وفى بعض الحالات ، وبخاصة فى القضايا التى تستغرق زمنا طويلا ، يدفع الرشوة كلا الطرفين المتنازعين وحينذاك يصدر الحكم فى صالح من يدفع منهما رشوة أكبر .. ويحدث ذلك غالبا فى القضايا القانونية العويصة .. وحتى فىالقضايا التى يكون القانون فيهاواضحا كل الوضوح لايتوخى القاضى العدالة التامة ويلجأ أحد طرفى النزاع الى الرشوة وشهود الــزور .

وتوجد فى القاهرة خمس محاكم صغرى وواحدة فى بولاق .. وهى الميناء الرئيسى للقاهرة ، وأخـــرى فى « مصر العتيقة » وهى ميناؤها الجنوبى . ويرأس كل محكمة من هذه المحاكم « شاهد » من المحكمة الكبرى نائبا عن القاضى « قاضى القضاة » الذى يصدق على أحكام هؤلاء « الشهود » . وتفصل هذه المحاكم الفرعية فى القضايا الخاصة ببيع الأملاك والميراث والزواج والطلاق اذ أن القاضى يزوج اليتيمات من الفتيات اللاتى لم يبلغن سن الرشد وليس لهن أقارب بالغين يوكلونهم عنهن فى الزواج . كما أن الزوجات كثيرا مــا يلجأن الى القانون لكى يحصلن على الطلاق من أزواجهن .. وفى كل مدينة من مدن الاقاليم يوجد قاض يكون عادة مصريا ولا يكون تركيا أبدا وهو يفصل فى جميع القضايا على اختلاف أنواعها متبعا فى ذلك ما يعرفه من نصوص القانون ولكنه فى العادة يخضع لحكم المفتى .. وتدخل فى دائرة كل قاض من هؤلاء قريتان أو ثلاثة أو أكثر ..

ولكل مذهب من مذاهب المسلمين الأربعة وهى الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى شيخ يختار من بين أوسع الرجال علما .. ويقيم الشيخ فى العاصمة .. ويتكون من شيخ الجـــامع الأزهر ، الذى يختار دائما من الشافعية ويكون أحيانا شيخهم ، ومن شـــيوخ المذاهب الأربعة السالفة الذكر ، والقاضى ونقيب الأشراف ورجال عديدين آخرين ، يتكون من كل هؤلاء « مجلس العلماء » الذى كان دائما يرهب الباشوات والأمراء المماليك ويحد من طغيانهم . ولكن هذا المجلس قد فقد الآن كل نفوذه على الحكومة أو كاد . وتعــرض المخاصمات البسيطة ، باتفاق الطرفين المتنازعين ، على أحد الشيوخ الأربعة للفصل فيها اذ أن كلا منهم هو مفتى الطائفة التى يرأسها ، والناس يوقرونهم ويحترمونهم احتراما بالغا .. كذلك يحيل عليهم الباشا المسائل الصعبة الدقيقة التى تتعلق بأحكام القرآن والأحاديث ولكنه لا يتقيد دائما برأيهم .

ويخضع البوليس للسلطة العسكرية أكثر مما يخضـــع للسلطة المدنية . ومنذ بضع سنوات خلت كان يخضع لسلطة « الوالى » و « الظابط » ولكن ألغيت سلطة الوالى بعد زيارتى الأولى لمصر .. وكان يعهد اليه بالقبض على اللصوص وغيرهم من المجـــرمين . وتخضع لسلطته النساء الساقطات ويرغمهن على دفع ضريبة له كما أنه كان من عمله مراقبة سلوك النساء بوجه عام . واذا صادف امرأة يبدو عليها أى مظهر من مظاهر التبذل أضاف اسمها الى قائمة أسماء الساقطات وفرض عليها دفع الضريبة ولا ينجيها من ذلك العار سوى دفعها رشوة كبيرة له أو لجنوده . وهذه الطريقة كان ولا يزال يتبعها كل من يجبون ضريبة الساقطات ، مع غير المتزوجات من النساء ، والمتزوجات بوجه عام الا أن المتزوجات فى بعض الأحيان يلاقين مصرعهن سرا اذا لم يستطعن أن ينقذن أنفسهن بالرشوة أو بوسائل أخرى ..

أما « الظابط » وقد جاء ذكره فى مطلع هذا الفصل ، فهو الآن مدير البوليس ، وجنوده منبثون فى أنحاء العاصمة وكثيرا ما يترددون على المقاهى فيستمعون الى أحاديث الناس ويراقبون سلوكهم . ومعظم هؤلاء الجنود من اللصوص الذين صدر العفو عنهم .. وهم

يصحبون الحرس من جنود الجيش فى طوافهم كل ليلة فى شوارع العاصمة . ولا يسمح لأحد بالخروج الى الشارع بعد الغروب بنحو ساعة ونصف دون أن يحمل فانوسا أو مصباحا ولا يعفى من ذلك الا الضرير .. وقليل من الناس هم الذين يشاهدون فى الشوارع بعد الغروب بساعتين أو ثلاث ساعات .. واذا سرت فى طول شوارع العاصمة وعرضها بعد ست أو سبع ساعات من غروب الشمس ما لقيت فى طريقك سوى اثنى عشر أو عشرين شخصا غير العسس والحرس والبوابين الذين يحرسون بوابات الأحياء والشوارع الفرعية .. وحين يقترب أحد المارة من الخفير أو الحارس يصيح هـذا بالتركية قائلا : من هناك ؟ فيجيب السائر بالعربية قائلا : ابن بلد .. وان كان ضريرا يقول : أعمى .. وكذلك ينادى الخفير الخاص قائلا : وحد الله .. أو يكتفى بقوله « وحد » فان كان القادمون جماعة من الناس يقول : وحدوه ... ويجيبه السائر بقوله : لا اله الا الله .. والمفروض أن عابر السبيل اذا كان من اللصوص أو خرج ينوى شرا أو اثما ، لا يجرؤ على الرد بقوله : لا اله الا الله .. وبعض المارة يجيبون الخفير بصوت مرتفع قائلين : لا اله الا الله محمد رسـول الله .. ويستخدم الخفراء الخصوصيون فى حراسة الأسـواق والأحياء الأخرى فى القاهرة ليلا .. ويحمل الخفير « نبوتا » ولكنه لا يحمل فانوسا ..

وكان « الظابط » أو أغا البوليس كثيرا مايتعسس فى العاصمة ليلا لا يصحبه سوى السياف والشعلجى .. ويحمل الشـعلجى ما يسمى «بالشعلة» التى لاتزال تستعمل حتىالآن .. وهىتشتعلبعد أن تضاء مباشرة ، بدون لهب ، الا اذا لوح بها فى الهواء فانها حينذاك تتوهج فجأة .. وفى بعض الأحيان يغطى طرفها المشتعل بابريق صغير أو آنية أو أى شىء آخر حين يراد اخفاء ضوئها .. ولكن يقال ان اللصوص يشمون رائحتها قبل أن يقتربوا من الشـعلجى فيولون هاربين .. واذا عثر رجال البوليس على شخص يسير بدون فانوس ليلا فانه قلما يحاول المقاومة أو الفرار .. والعقوبة التى توقع عليه من جراء تلك المخالفة هى الضرب .. وقد كان لمدير البوليس سلطة استبدادية جائرة تخول له حق قتل من يرتكب جريمة أو ذنبا دون محاكمة .. وكذلك كان يفعل كثير من مرءوسيه

كما سنرى فى مكان آخر من هذا الفصل .. على أنه قد مر الآن عامان أو ثلاثة لم يلجأ فيها « الظابط » أو أتباعه الى استخدام تلك السلطة الا نادرا .. وأعتقد أنه لا يسمح لهم الآن بمباشرتها .. ويصحب موظفو « الظابط » حرس الجيش فى طوافهم بالمدينة كل ليلة لا لشىء الا لأنهم أكثر منهم معرفة بأوكار اللصوص والمشبوهين ، واساليبهم ..

وكثيرا ما كان مأمورو البوليس فى القاهرة يلجأون الى وسائل عجيبة للبحث عن المجرمين كتلك التى نقرأ عنها فى قصص ألف ليلة وليلة ، وذلك قبل ادخال الوسائل الحديثة .. وسأروى هنا مثلا منها ، وهو كغيره من الأمثلة الأخرى فى هذا الباب صحيح مستقى من مصادر وثيقة .. وسأروى القصة بالطريقة التى حكيت لى بها .

ذهب يوما رجل فقير الى أغا البوليس أو الظابط وقال له : يا سيدى جاءتنى اليوم امرأة وقالت لى : خذ هذا القرص (١) فاحتفظ به عندك بعض الوقت وأعطنى خمسمائة قرش .. فأخذته منها يا سيدى وأعطيتها النقود وانصرفت . وبعد أن ذهبت قلت لنفسى : لأنظرن الى هذا القرص .. ونظرت اليه فماذا رأيت ؟ لقد كان القرص من النحاس الأصفر .. فلطمت وجهى وقلت : لأذهبن الى الأغا ولأقصن عليه قصتى فلعله يحقق فى الأمر ويكشف غوامضه . فما من أحد يستطيع مساعدتى سواك . فقال له الأغا : اصغ يا رجل لما سأقوله لك . خذ كل ما فى دكانك ولا تترك به شيئا .. ثم اغلق الدكان واذهب اليه مبكرا فى صباح الغد فاذا فتحته فاصرخ قائلا : واحسرتاه على مالى ، ثم خذ بيديك حفنة من الطين فاضرب بها صدرك وصح قائلا : واحسرتاه على مال الناس ! فاذا قال لك أحد ماذا بك فقل : ضاع مال الناس .. ضاع منى رهن تركته عندى امرأة .. لو كان ملكى ما حزنت عليه .. وهذه الطريقة ستكشف عن غموض الحادث .. فوعد الرجل أن يفعل ما أمر به الأغا .. ونقل كل ما كان فى دكانه ، ثم ذهب اليه فى

---

(١) كان القرص يثبت فوق قرص الطربوش الذى كانت تلبسه المرأة فى ذلك العهد وهو مرصع بالذهب والماس الحقيقى أو الزائف ويبلغ ثمن القرص المرصع بالماس من مائة وخمسة وعشرين الى مائة وخمسين جنيها استرلينيا

الصباح الباكر ففتحه ثم أخذ يصيح قائلا : واحسرتاه على مال الناس ! وأخذ يضرب نفسه بالطين ويطوف بكل حى من أحياء القاهرة ويكرر صياحه قائلا : واحسرتاه على مال الناس ! لقد ضاع منى رهن تركته عندى امرأة .. لو كان ملكى ما حزنت عليه .. فسمعت صراخه المرأة صاحبة القرص وعرفت فيه الرجل الذى خدعته فقالت فى نفسها : لأذهبن فأقاضيه .. ثم توجهت الى دكان الرجل ممتطية حمارا حتى تبدو وكأنها من الأغنياء وقالت له : اعطنى يا رجل ما تركته فى عهدتك .. فقال الرجل : لقد ضاع .. فصاحت المرأة .. قطع لسانك ، أتضيع مالى .. والله لأذهبن الى الأغا ولأخبرنه بالأمر .. فقال اذهبى .. فذهبت المرأة الى الأغا وأخبرته بأمرها فأرسل الأغا فى طلب الرجل حتى اذا جاء سأل الأغا المرأة : ما الذى تركتيه فى عهدته ؟ فأجابت المرأة : تركت فى عهدته قرصا من ذهب أحمر بندقى فقال الأغا : يا امرأة .. ان عندى هنا قرصا من الذهب وأحب أن أريه لك فقالت المرأة : أرنى اياه يا سيدى وسوف أتعرف عليه اذا كان قرصى .. وحينذاك حل الأغا رباط منديل وأخرج منه القرص الذى كانت المرأة قد تركته عند الرجل رهنا ثم قال لها : انظرى .. فنظرت اليه فعرفته ثم طأطأت رأسها فقال الأغا : ارفعى رأسك وقولى أين هى الخمسمائة قرش التى أعطاها لك الرجل .. فأجابت المرأة : انها فى بيتى يا سيدى .. فبعث بها الأغا الى بيتها يصحبها السياف دون أن يحمل معه سيفه .. ودخلت بيتها فأحضرت كيسا به النقود ثم رجعت مع السياف الى الأغا وردت النقود الى صاحبها . وأمر الأغا السياف أن يأخذ المرأة الى « الرميلة » (١) فيقطع رأسها .. وقد فعل ..

ويفتش على أسواق القاهرة وعلى الكيل والميزان بها موظف يسمى « المحتسب » وهو يطوف بالمدينة من وقت لآخر ، راكبا ، يسبقه موظف آخر يحمل ميزانا كبيرا ويتبعه الجلادون وجمع غفير من الأتباع والخدم .. وهو اذ يمر بالدكاكين أو فى الأسواق يأمر صاحب كل دكان الواحد بعد الآخر .. أو واحدا من هنا وآخر من هناك ،

---

(١) الرميلة هى أرض فضاء مكشوفة تقع غربى القلعة وينفذ فيها حكم الاعدام فى المجرمين بقطع رءوسهم ..

أن يريه الميزان والمقاييس والمكاييل التى يستعملها ويختبرها ليتحقق من صحتها . وكذلك يسأل عن أسعار المأكولات حيث تباع .. وقد يصادفه فى الشارع أحد المارة أو خادم يحمل شيئا مما يؤكل يكون قد اشتراه من أحد الباعة فيستوقفه المحتسب ويسأله عن وزنه والثمن الذى دفعه فى شرائه .. فاذا وجد بائعا لا يوفى الكيل والميزان أو يبيع للناس بثمن يزيد على السعر السائد فى السوق فانه يوقع عليه العقوبة فى الحال .. وهى فى العادة الضرب أو الجلد .. ولكن كان للمحتسب وسائل أخرى من وسائل العقاب .. فقد رأيت مرة المحتسب يعاقب رجلا كان يبيع الخبز ناقصا فى الوزن بأن ثقبت أنفه ثم علق فى الثقب قرص من الخبز عرضه شبر وسمكه سمك الاصبع بخيط من الدوبار ثم جرد الرجل من ملابسه الا ما يستر عورته وأوثقت يداه من خلفه وشد الوثاق الى قضبان نافذة جامع الأشرفية الذى يقع فى الشارع الرئيسى بالعاصمة .. واستقرت قدماه فوق قاعدة النافذة .. وظل الرجل واقفا هكذا ، عاريا ، مشدود الوثاق ما يقرب من ثلاث ساعات يئن تحت وطأة نظرات الجموع الحاشدة التى امتلأ بها الشارع ويتلظى بنيران الشمس المحرقة ..

وبعد زيارتى الأولى لمصر بوقت قصير عين محتسب جديد وكان كرديا يدعى مصطفى كاشف .. وأخذ هذا الرجل يستخدم سلطته بقسوة منقطعة النظير .. فكان يقرض آذان من يرتكبون أقل هفوة ، بل كان يقرض أذان من لا يرتكبون اثما عى الاطلاق .. وقد رأى ذات مرة كهلا يقود أمامه حميرا محملة بالبطيخ فأشار المحتسب الى بطيخة كبيرة وسأله عن ثمنها فأمسك الرجل شحمة أذنه بابهامه وسبابته وقال : اقطعها يا سيدى .. فكرر المحتسب سؤاله المرة بعد المرة والرجل يرد قائلا : اقطعها يا سيدى .. فغضب المحتسب وان كان لم يتمالك نفسه من الضحك وقال : يا رجل .. هل أنت مجنون أم أصم ؟ فأجاب الكهل قائلا : كلا .. لست مجنونا ولا أصما .. وانما أنا أعلم أنى اذا قلت ان ثمن البطيخة عشرة فضة فانك سوف تقول : اقرضوا أذنه .. واذا قلت ان ثمنها خمسة فضة أو حتى قطعة فضة فانك ستقول أيضا اقرضوا أذنه .. فاقرضها اذا فى الحال وخلى سبيلى .. وقد نجا الرجل وأنقذته خفة روحه ..

وكان قرض الأذن هو العقوبة العادية التى ينزلها هذا المحتسب بالناس .. ولكنه كان يعمد فى بعض الأحيان الى تعذيبهم بطرق وحشية أخرى .. مثال ذلك أن جزارا ضبط يبيع مقدارا من اللحم ينقص أوقيتين عن وزنه الأصلى فكان أن عاقبه المحتسب بقطع أوقيتين من لحم ظهره .. كما أن بائع كنافة باع لزبائنه الكنافة بزيادة طفيفة عن سعرها الأصلى فأمر المحتسب أن يجرد الرجل من ملابسه وأن يقعد على الصينية النحاسية المستديرة التى يصنع عليها الكنافة .. وترك الرجل فى موضعه ذاك حتى أصيب بحروق جسيمة .. وكان من عادة هذا المحتسب أن يعاقب الجزار الذى يغش فى البيع بوضع خطاف فى أنفه وتعلق فى الخطاف قطعه من اللحم .. وقد التقى ذات يوم برجل يحمل قفصا مليئا « بالقلل » التى اشتراها من سمنود ولكنه كان يعرضها للبيع على أنها قلل قناوى من قنا .. فأمر المحتسب أتباعه أن يكسروا القلل جميعا واحدة بعد الأخرى على رأس البائع ..

وكان مصطفى كاشف هذا يستخدم قسوته وطغيانه حتى فى الحالات التى لا تدخل فى اختصاصه وتخضع لسلطته . مثال ذلك أنه استهوته ذات يوم فكرة ارسال حصانه الى الحمام . وكلف الرجل الذى يقوم على الحمام المجاور له أن يعد الحمام لاستقبال الحصان ، وأن يغسله وينظفه جيدا حتى يلمع منه الجسم وينعم . فاغتاظ الرجل ، وساءه أن يلقى اليه المحتسب بهذا الأمر العجيب فتجرأ على القول بأنه يخشى على الجواد أن تزل قدمه فيقع ، اذ أن أرضية الحمام من الرخام وأنه يخاف عليه أن يصيبه البرد بعد خروجه من الحمام ، ولذلك فهو يقترح على المحتسب أن يستحم الحصان فى الاسطبل ، على أن ينقل اليه فى الدلاء الماء الساخن من حوض الحمام .. وعند ذاك قال مصطفى كاشف : انى أعرف لماذا تقول قولك هذا .. انك لا تريد جوادى أن يستحم فى حمامك .. ثم أمر خدمه أن يطرحوا الرجل أرضا ويضربوه بالنبابيت حتى يأمرهم بالكف عن الضرب .. وقد فعلوا .. وظلوا يضربون الرجل المسكين حتى مات ..

ومنذ سنوات قليلة خلت ، كان من عادة المحتسب انه حين

يطوف بالأسواق ليتحقق من صحة الموازين والمكاييل ، يصطحب معه رجلا يسير امامه يحمل ميزانا كبيرا ، أكبر من ذلك الذى يستعمل الآن . ويقال ان عاتق الميزان كان عبارة عن أنبوبة مجوفة تحتوى على بعض الزئبق .. وكان حامل الميزان يعرف البائع الذى دفع رشوة للمحتسب فيرجح له بوساطة الزئبق كفة الميزان التى يريد رجحانها ..

وكما أن المحتسب هو ناظر الأسواق العامة فان هناك نظارا آخرين يقومون بالاشراف على كل فرع من فروع تجارة الباشا وصناعاته .. وقد اشتهر بعض هؤلاء النظار بالقسوة البالغة على الشعب .. واحدهؤلاءالطغاة رجل يدعى علىبك الناظرالقماش .. كلهذا الرجل حين يعثر على شخص يمتلك نولا أو يبيع قماشا نسجه بذلك النول ، يلفه فى قطعة من القماش الذى نسجه بيده ، بعد أن يبللها بالزيت والقطران .. ثم يعلقه فى غصن شجرة ويشعل النار فى القماش والرجل بداخله .. وبعد ان أزهق أرواح الكثيرين من الناس بهذه الطريقة البشعة قدر له أن يلاقى المصير نفسه اذ مات محترقا فى حادث انفجار مخزن للبارود شمالى قلعة القاهرة فى عام ١٨٢٤ وهو العام الذى سبق زيارتى الأولى لمصر . وقد روى لى أحد أصدقائى الفظائع التى ارتكبها هذا الوحش ثم أضاف قائلا : وحينما أعد جثمان على بك للدفن صلى عليه الشيخ العروسى .. الذى كان شيخا للجامع الأزهر .. صلاة الجنازة فى مسجد الحسين وكنت أنا المبلغ .. فلما قال الشيخ : ماذا تشهدون عليه ؟ ورددت وراءه النداء لم يرد أحد من الحاضرين . رغم أنهم كانوا كثيرين .. بالرد المعتاد وهو : كان من الصالحين .. كان الجميع صامتين ولم ينطق أحد بحرف .. ولكى أزيد هذه الحقيقة سطوعا ، وأجعل صمت الناس يبدو أشد وضوحا كررت النداء قائلا : ماذا تشهدون عليه ؟ .. فلم يرد أحد .. فقال الشيخ فى ارتباك ، وفى صوت خفيض : رحمه الله .. وتابع صديقى حديثه قائلا : ونستطيع الآن أن نجزم أن هذا الرجل اللعين قد ذهب الى جهنم وبئس المصير .. ومع ذلك فان زوجته ما زالت تقيم له « ختمه » فى بيتها وتوقد له شمعتين كل مساء فى مسجد الحسين ..

حفظ النظام فى منطقته والفصل فى المنازعات التى تقوم بين أهالى الحى وطرد من يخل بالامن منهم . كما أن القاهرة كلها مقسمة الى ثمانية أقسام يرأس كل قسم منها شيخ يقال له « شيخ التمن »

ولكل طائفة من التجار أو الصناع فى مدينة القاهرة وغيرها من المدن الكبرى شيخ يفصل فى المنازعات التى تقوم بين أفراد طائفته ولا يسمح لأحد بالانضمام الى الطائفة الا اذا حصل على تصريح منه بذلك ..

والخدم فى القاهرة لهم أيضا مشايخهم ، فاذا احتاج أحد من الناس الى خادم فانه يذهب الى أحد هؤلاء فيحصل على خادم ويدفع للشيخ قرشين أو ثلاثة قروش فى مقابل أن يضمن الشيخ الخادم الجديد ويكون مسئولا عن سلوكه .. فاذا حدث أن سرق الخادم من سيده شيئا فانه يبلغ الشيخ الذى يضطر الى دفع تعويض للسيد سواء استطاع ان يسترد المسروقات من الخادم أو لم يستطع ..

وحتى اللصوص كان لهم الى عهد قريب شيخهم الذى كان يدعى « شيخ الحرامية » فكان اذا حدثت سرقة يكلف بالبحث عن المسروقات والقبض على الجناة ، ومن العجيب أن هذا النظام نفسه كان متبعا فى عهد قدماء المصريين .

ويحكم مدن الأقاليم والقرى حكام من الأتراك والمصريين . والقطر المصرى كله مقسم الى عدة مديريات كبيرة يحكم كل مديرية رجل « عثمانلى » أى تركى . وهذه المديريات مقسمة بدورها الى مراكز يحكمها مصريون ويسمى الحاكم منهم المأمور والناظر . وكل قرية من القرى وكل مدينة من مدن الأقاليم لها شيخها الذى يدعى شيخ البلد وهو عادة مسلم من أهالى البلدة .. وكل الموظفين السابق ذكرهم كانوا — فيما عدا شيخ البلد — من الأتراك ، كما كان هناك حكام أتراك يحكمون المراكز الصغيرة ، وكان الحاكم منهم يدعى « كاشف » و « قائمقام » ولكن حدث ذلك التغيير قبل زيارتى الحالية لمصر بوقت قصير ، ويشكو الفلاحون من أن حالتهم قد

ازدادت سوءا عن ذى قبل .. والحقيقة ان كل ما يعانونه من مصائب انما ينزلها بهم الحكام الاتراك .

والحادثة التالية تعطى صورة عن حالة الفلاحين فى بعض المديريات التى يحكمها حكام من الأتراك .. اشتهر احد الاتراك ويدعى سليمان اغا السلحدار الذى يحكم فى مدينة طنطا بطغيانه ووحشيته .. وقد ذهب فى احدى الليالى الى شونة الحكومة فوجد اثنين من المزارعين نائمين فيها فسألهما من هما وماذا يفعلان فى ذلك المكان فقال أحدهما انه قد أتى الى الشونة بمائة وثلاثين أردبا من القمح من احدى القرى التابعة للمركز وأجاب الثانى أنه قد أتى بستين أردبا من الأراضى التابعة لمدينة طنطا .. فقال له الحاكم : يانصاب .. هذا الرجل يأتى بمائة وثلاثين أردبا من أراضى قرية صغيرة وأنت تأتى بستين أردبا فقط من أراضى مدينة كبيرة ! فأجاب الفلاح الذى حمل القمح من طنطا : ولكن هذا الرجل يأتى بالقمح مرة واحدة فى الأسبوع أما أنا فآتى به كل يوم .. فقال الحاكم : اخرس .. ثم أشار الى شجرة قريبة وأمر أحد الخدم الذين يحرسون الشونة أن يعلق الفلاح فى أحد غصونها ففعل الخادم كما أمر ورجع الحاكم الى بيته .. حتى اذا كان صباح اليوم التالى توجه الحاكم الى الشونة فرأى رجلا يحمل اليها مقدارا كبيرا من القمح فسأله من يكون وما مقدار القمح الذى أتى به فأجاب الخادم الذى أمر بشنق الفلاح بالأمس : هذا يا سيدى هو الرجل الذى علقته فى الشجرة فى الليلة الماضية كما أمرتنى ، وقد أحضر اليوم مائة وستين أردبا فصاح الحاكم متعجبا : هل بعث الرجل من بين الموتى ؟ فأجاب الخادم : كلا يا سيدى .. ولكنى علقته فى الشجرة بحيث كانت أصابع قدميه تلمس الأرض فلما عدت الى بيتك فككت الحبل من حول عنقه .. لقد أمرتنى يا سيدى أن أعلقه فى الشجرة .. ولكنك لم تأمرنى بشنقه .. فزمجر الحاكم التركى قائلا : آها .. التعليق فى الشجرة شىء والشنق شىء آخر .. اللغة العربية تعبيراتها كثيرة .. فى المرة القادمة سأقول اشنقه ..

وهاك حادثة أخرى تريك كيف كانت تحكم مصر .. وتعطيك صورة عن نوع الحكومة التى كان يخضع لها الشعب المصرى .. عين أحد

الفلاحين ناظرا فى مركز المنوفية قبل زيارتى هذه لمصر بوقت قصير .. وحدث حين كان يجبى الضرائب من احدى القرى أن أمر أحد المزارعين الفقراء أن يدفع ضريبة قدرها ستون ريالا فقال المزارع المسكين انه لا يملك من دنياه سوى بقرة لا تكاد تقيم أوده وأود أسرته .. وكانت عقوبة الفلاح الذى يعجز عن دفع الضريبة هى أن يمد ويضرب على باطن قدميه ضربا موجعا ، ولكن هذا الناظر أراد أن يعاقب الفلاح بطريقة أخرى .. فبعث بشيخ البلد ليأتى ببقرة الرجل .. حتى اذا جاء بها أمر بعض الفلاحين أن يشتروها ولكنهم قالوا انهم لا يملكون نقودا يشترونها بها فأرسل الناظر فى طلب أحد الجزارين وأمره أن يذبح البقرة فذبحها ، ثم أمره أن يقطعها ستين جزءا ففعل .. وطلب الجزار أجره على ذبحها فأعطاه الناظر رأس البقرة .. ثم استدعى الناظر ستين فلاحا وأرغم كلا منهم على شراء قطعة من أجزائها الستين فى مقابل ريال يدفعه كل منهم .. فذهب صاحب البقرة باكيا يشكو الناظر الى رئيسه وكان حينذاك المرحوم محمد بك الدفتردار ، وقال له : يا مولاى ، انى مظلوم بائس .. لم يكن لى من حطام الدنيا سوى بقـــرة حلوب نعيش على لبنها أنا وأسرتى ، تحرث لى الأرض وتدرس القمح ، فهى مصدر حياتى كلها .. ولكن الناظر أخذها منى وذبحها وقطعها ستين جـــزءا وباع للفلاحين من جيرانى كل فلاح جزءا دفع ثمنه ريالا وبذلك حصـــل على ستين ريالا فحسب ، بيد أن بقرتى تساوى مائة وعشرين ريالا .. أو تزيد .. أنا مظلوم بائس غريب عن هذا البلد اذ جئت من قرية أخرى ولكن الناظر لم يرث لحالى .. وقد أصبحت خالى الوفاض أنا وأسرتى ولم يعد لنا ما نقتات به .. ارحمنى ، واحكم لى بالعدل .. أستحلفك بحريمك .. فأمر الدفتردار باســـتدعاء الناظر اليه حتى اذا جاءه سأله قائلا : أين بقرة هذا الفلاح ؟ فأجاب الناظر : لقد بعتها .. قال الدفتردار : بكم ؟ قال الناظر : بستين ريالا .. فسأله الدفتردار : لماذا ذبحتها وبعتها ؟ فأجاب قائلا : كان الفلاح مدينا بضريبة قدرها ستون ريالا فأخذت بقـــرته وذبحتها وبعتها بقيمة الضريبة المستحقة .. فسأل الدفتردار : أين الجزار الذى ذبحها ؟ فقال : فى منوف ..

وأرسل الدفتردار فى طلب الجزار حتى اذا جاءه سأله قائلا :

لماذا ذبحت بقرة هذا الرجل ؟ فقال : لقد أمرنى بذلك الناظر ولم استطع ان أعصى له أمرا .. اذ لو فعلت لضربنى وخرب بيتى .. فذبحتها وأعطانى الناظر رأسها أجرا لى على ذبحها .. فقال الدفتردار : أتعرف يا رجل الأشخاص الذين اشتروا لحمها ؟ فأجاب الجزار بالايجاب فأمر الدفتردار كاتبه أن يكتب أسماء الستين فلاحا الذين اشتروا لحمها ويكتب الى شيخ بلدتهم أن يحضرهم الى منوف حيث كان يجرى التحقيق فى هذه الشكوى .. ثم وضع الناظر والجزار فى الحبس حتى صباح اليوم التالى ، وجاء شيخ البلد بالستين فلاحا وجى بالمسجونين أمام الدفتردار ووجه الدفتردار سؤاله الى شيخ البلد والفلاحين قائلا : هل كانت بقرة هذا الرجل تساوى ستين ريالا ؟ فأجابوا قائلين : يا مولاى .. لقد كانت تساوى أكثر من ذلك بكثير .. فأرسل الدفتردار الى قاضى منوف فلما جاء قال له : أيها القاضى .. ان هذا الرجل ظلمه الناظر بأن أخذ بقرته فذبحها وباع لحمها بستين ريالا .. فبماذا تحكم عليه ؟ فقال القاضى: انه طاغية ظالم ، يظلم كل من يقع تحت سلطته .. أليس ثمن أية بقرة مائة وعشرون ريالا أو تزيد ؟ وهو قد باع البقرة بستين ريالا فظلم بذلك صاحبها ..

وحينذاك قال الدفتردار لبعض جنده : خذوا الجزار فجردوه من ملابسه وشدوا وثاقه .. فلما فرغوا من ذلك قال للجزار : يا جزار .. ألا تخشى الله ؟ لقد ذبحت البقرة ظلما .. فقال الجزار فى توسل انه كان مجبرا على طاعة الناظر .. فقال الدفتردار : اذا فهل تفعل ما آمرك به ؟ قال أفعل .. فقال الدفتردار فاذبح الناظر .. وفى لمح البصر هجم على الناظر بضعة من الجنود الذين كانوا حاضرين فطرحوه أرضا وذبحه الجزار تماما كما تذبح الشاه .. ثم قال الدفتردار للجزار : والآن قطعه ستين جزءا .. وأخذ الجزار يقطع اللحم وقد وقف الجميع من حوله يتفرجون .. ولم يجرؤ واحد منهم أن ينبس ببنت شفة . ثم نودى على الستين فلاحا الذين اشتروا لحم البقرة واحدا بعد الآخر وأمروا أن يأخذ كل منهم قطعة من لحم الناظر ويدفع ريالين ثمنا لها ، وبذلك بلغ مقدار ما دفعوه مائة وعشرين ريالا .. ثم أمروا بالانصراف .. وبقى الجزار .. وسأل الدفتردار القاضى عن الأجر الذى يتقاضاه الجزار فأجاب

القاضى بأن يأخذ نفس الأجر الذى أخذه من الناظر . فأمر الدفتردار أن تعطى للجزار رأس الناظر .. وانصرف الجزار بحمله البغيض، وهو لا يصدق أنه نجا بجلده حتى وصل الى قريته . ثم أعطيت للفلاح صاحب البقرة النقود التى دفعت ثمنا للحم الناظر ..

ولو أردت أن أعدد المظالم التى يعانيها الفلاح من حكامه فى مصر لاستنفذت جل صفحات هذا الكتاب .. ولو عانى من الظلم أكثر مما يعانى لما كان من المحتمل أن يعيش ..



سنوات الطفولة

- عندما يلبس الأولاد ثيـاب البنـات
- صبى الحلاق والزمار فى موكب المطـاهر
- متى يحتج ((الفقى)) بضـعف البصر !

يتبع المسلمون فى تربية أطفالهم وتنشئتهم تعاليم النبى وأئمة الدين . وأول واجب نحو الطفل حين يولد أن يصيح أحد الذكور فى أذنه اليمنى بالأذان أو بالاقامة ــ وهى كالأذان تقريبا ــ فى أذنه اليسرى .. والفرض من ذلك دفع شر الجن وأذاهم عنه .

وقد كان من العادات الشائعة فى مصر وغيرها من البلاد الاسلامية استشارة أحد المنجمين قبل أن يطلق اسم على المولود الجديد ، ثم يسمى الطفل بالاسم الذى يختاره المنجم ، ولكن قليلين هم الذين ما زالوا يتبعون هذه العادة القديمة اليوم . فالوالد الآن هو الذى يختار اسم الطفل ان كان ذكرا ، وتختار الأم الاسم ان كان المولود أنثى .. ويسمى الذكور غالبا بأسماء النبى مثل محمد وأحمد ومصطفى ، أو باسم أحد أفراد أهل بيته مثل على وحسن وحسين ، أو باسم صحابته المبرزين مثل عمر وعثمان ، او باسم الأنبياء السابقين مثل ابراهيم واسحق واسماعيل ويعقوب وموسى وداود وسليمان .. وقد يحمل الاسم معنى العبودية لله مثل عبد الله وعبد الرحمن وعبد القادر .. أما البنات فيسمون بأسماء زوجات النبى أو باسم ابنته التى كان يصطفيها أو باسم غيرهن من آل بيته. ومثال ذلك خديجة وعائشة وآمنة وفاطمة وزينب .. وقد يدل الاسم على ما تتصف به صاحبته مثل محبوبة ومبروكة ونفيسة . وقد تسمى البنت باسم زهرة أو شىء آخر جميل .. والناس فى القاهرة يحرفون الأسماء الخمسة الأولى الى خدوجة وعيوشة وأمونة وفطومة وزنوبة ، كما يغيرون بعض الأسماء الأخرى بالطريقة نفسها مثل نفوسة بدلا من نفيسة .. وتحريفها على هذا النحو يعطيها معنى العزة ورفعة المقام..

وليس من الضرورى أن يكون لقب الطفل هو اسم أبيه ، ولذلك يلقب الناس بألقاب مختلفة منها ما يدل على صلة القرابة مثل أبو على أو ابن احمد أو على الشرف والتعظيم او قد يكون كنية مثل نور الدين والطويل .. وقد يرجع اللقب فى أصله الى البلدة التى ينتمى اليها الشخص أو الى مسقط رأسه ، أو الى اصله او إسرته او مذهبه الدينى أو حرفته او صناعته فيقال الرشيدى والصباغ

والتاجر . وهذه الألقاب الأخيرة كثيرا ما يتوارثها الأبناء وتصبح اسم الأسرة الذى تعرف به ..

وملابس الأطفال من الطبقتين العالية والمتوسطة تشبه فى شكلها ملابس والديهم الا أنها عادة قذرة . أما أطفال الطبقة الفقيرة فيلبسون قميصا وطاقية أو طربوشا ، والطفل فى القرى يترك عاريا تماما حتى سن السادسة أو السابعة أو ما فوقها ، الا اذا استطاع أهله الحصول على خرقة بالية يغطى بعض جسمه بها . أما الاناث من الأطفال فليس لديهن سوى خرقة مهلهلة لا تكفى غطاء لأجسامهن ورؤوسهن جميعا وتراهن يفضلن أن يجعلنها غطاء لرؤوسهن ، وقد يدفعهن الدلال الى تغطية وجوههن ببعضها على حين تبقى أجسامهن عارية تماما .. والفتيات من الطبقة الموسرة ، حين يبلغن الرابعة أو الخامسة يغطين وجوههن ببرقع أبيض كما تفعل أمهاتهن .. وحين يبلغ الولد الثانية أو الثالثة من عمره أو قبل أن يبلغها يحلق شعر رأسه وتترك خصلة من الشعر فى قمة الرأس تسمى « شوشة » وخصلة أخرى فوق الجبهة .. وقلما يحلق شعر البنات .. ومن عادة الفلاحين فى أنحاء كثيرة من القطر أنهم حين يحلقون شعر الصبى لأول مرة يذبحون ضحية ، تكون فى الغالب عنزة ، على قبر أحد الأولياء فى قريتهم أو قريبا منها ، ويقيمون وليمة يدعى اليها الأصحاب وكل من يشاء من الناس فيأكلون من لحومها . وهى عادة كثيرة الشيوع فى الوجه القبلى وبين القبائل التى استقرت حديثا على ضفتى النيل ..

وتحمل الأمهات والمربيات الأطفال من الجنسين فوق أكتافهن بحيث يجلس الطفل وكأنه يركب حصانا ، وقد يحملنه بهذه الطريقة فوق وسطهن .

وتسرف الطبقة الموسرة فى تدليل الأطفال اسرافا ملحوظا ، على حين أن الطبقة الفقيرة لا تعنى بهم الا قليلا ، ولا يجد أطفالهم الا ما يسد الرمق ويقيم الأود .. والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، ولا يفطم الطفل قبل تلك المدة الا بموافقة والده .. وقد قيل لى ان الوالد يوافق على الفطام بعد مضى ستة أو ثمانية عشر

شهرا .. وفى بيوت الأغنياء يظل الطفل ، سواء كان ذكرا أم أنثى ، حبيسا فى الحريم ، أو على الأقل ، حبيس الدار نفسها ، لا يبرحها .. وقد يظل الصبى على تلك الحال حتى يتعلم القراءة والكتابة على يدى معلم يعطيه درسا كل يوم .. ومن الأهمية بمكان أن نشير هنا الى أن هذه الفترة التى يقضيها الصبى فى الحريم تغرس فى نفسه الحب الممزوج بالاحترام لوالديه ولمن هم أكبر منه سنا ، وهذا الاحترام ، كما سوف نرى ، يعده لمواجهة العالم الخارجى الذى يخرج اليه فجأة ، ليعيش فيه ..

ولا يقل تدليل نساء الطبقة المتوسطة لأطفالهن عن تدليل الثريات من النساء .. ذلك لأن مكانة المرأة عند زوجها ، وحتى عند معارفها، تتوقف الى حد كبير على قدرتها على انجاب الأطفال ومحافظتها عليهم .. فالرجال والنساء والأغنياء والفقراء ، فى بلاد الشرق ، يعتبرون العقم لعنة تحيق بالمرأة ، وعيبا يشينها ، ويرون أنه من العار أن يطلق رجل زوجته دون سبب قوى ما دامت قد أنجبت له طفلا ، وبخاصة اذا كان الطفل على قيد الحياة .. ولذلك فان المرأة التى تحرص على حب زوجها واحترام أهلها ومعارفها اذا أنجبت طفلا كان هذا الطفل مبعث فرح بالغ لها ولزوجها .. وتدفعها مصلحتها الشخصية فى الابقاء على زوجها الى اغداق حنان الأمومة على طفلها .. وفى مصر لا تتكلف تربية الذرية على كثرتها الا قليلا ..

ولكن رغم ما يلاقيه الأطفال من اعزاز وتدليل فانهم يحملون لوالديهم احتراما عميقا جديرا بالاعجاب والتقدير ، ويظهرون لهم هذا الاحترام .. ذلك لأن عقوق الوالدين يعد عند المسلمين فاحشة واثما مبينا ، ويستوى فى بشاعته مع كبائر ستة هى الشرك بالله والقتل ورمى المحصنات من النساء ، وأكل أموال اليتامى ظلما وأخذ الربا والفرار من غزوة يقاتلون فيها الكفار .. ولذلك فاننا قلما نجد بين المصريين والعرب بوجه عام ابنا عاقا لوالديه .. والطفل من الطبقة المتوسطة والطبقة العالية يحيى والده فى الصباح بتقبيل يده ثم يقف أمامه خاشعا واضعا يده اليمنى فوق يده اليسرى فى انتظار أوامره أو حتى يأذن له بالانصراف .. ولكن الذى يحدث عادة انه

بعد أن ينتهى من تقبيل يده يأخذه أبوه فيجلسه على حجره .. ويبدى الأبناء مثل هذا التوقير لأمهاتهم أيضا ولبقية أفراد الأسرة كل حسب سنه ومركزه ودرجة قرابته من الأسرة .. وهذا التوقير هو الذى يجعل الطفل ، حين يخرج من الحريم الى الحياة العامة ، هادئا لطيفا مؤدبا يشق طريقه الى كل مجتمع كما يجعله يتصف بذلك الولاء الذى كثيرا ما يفسر خطأ على أنه نتيجة الاستبداد والتعسف عند الشرقيين اذ يقول اركهات فى كتابه « روح الشرق » ان نظام الحكومة فى البلاد الشرقية ما هو الا صورة مصغرة لنظام الأسرة حيث يسود الاستبداد ..

ولا يجلس الأبناء فى حضرة أبيهم أو يأكلون أو يدخنون الا اذا أذن لهم بذلك ، بل انهم يقومون على خدمته وخدمة ضيوفه أثناء تناول الطعام أو فى أية مناسبة أخرى .. وهم يفعلون ذلك حتى بعد أن يكبروا ويصبحوا رجالا .. وقد تناولت طعام الافطار ذات مرة مع أحد التجار أمام باب داره فى شهر رمضان .. ومع أن صاحب الدار كان يدعو كل من يمر بنا من الناس مهما كان فقيرا أن يشاركه الطعام الا أنه لم يدع ولديه اللذين كانا يقومان على خدمتنا .. وكان أكبرهما فى الأربعين من عمره .. ولما كانا صائمين يومهما ، ولم يفطرا الا على جرعة ماء فقد سألت مضيفى أن يأذن لهما بالجوس والأكل معنا ففعل .. ولكنهما رفضا .. وظلا يقومان على خدمتنا حتى انتهينا .. على أن الأمهات هن فى العادة اللاتى يحظين بالقسط الأكبر من حب أبنائهن ، ولو أن هؤلاء لا يبدون لهن من مظاهر الاحترام ما يبدون لآبائهم .. وقد عرفت كثيرا من الخدم كانوا يدخرون أجورهم لكى يعطوها لأمهاتهم ، وقلما كانوا يعطونها لآبائهم .

وليس من المناظر الغريبة أن ترى فى العاصمة سيدة تمشى متثاقلة فى « الثوب » الفضفاض ، والحبرة من حرير ثمين براق ، يفوح من أعطافها عطر المسك فيملأ الشارع أريجه .. وكل ما يبدو منها للعين نظيف أنيق .. عيونها مخططة بالكحل فى دقة وعناية ، وما يظهر من أطراف أصابعها يدل على أن يديها قد خضبتا حديثا بالحناء .. والى جوارها يسير طفل ، هو ابنها أو ابنتها .. وجهه ملطخ بالقاذورات ، وعليه ثياب تبدو وكأنها لم تخلع عنه منذ شهور

ولم تغسل أبدا .. ولم يدهشنى شىء فى أثناء زيارتى الأولى لمصر كما أدهشنى هذا المنظر ، وكان من الطبيعى أن أسأل عن السبب فى تلك الظاهرة العجيبة ، وهذا التناقض بين مظهر الأم وطفلها فقيل لى أن الأم الشديدة الحنو على طفلها تهمل العناية بمظهره وتتركه يبدو قذرا عن عمد وتلبسه من الثياب أرثها وبخاصة حين يخرج معها الى الطريق العام لأنها تخاف عليه من شر العين .. تلك العين التى يخشاها الجميع ويخشون منها على الأطفال بصفة خاصة، اذ يعتبر الأطفال فى مصر النعمة الكبرى ، وهم لذلك أكثر تعرضا للحسد من سواهم . والخوف من العين هو أحد الأسباب التى تدفع كثيرا من الآباء والأمهات الى حبس أبنائهم فى الحريم سنوات طويلة ، بل ان بعض الأمهات يلبسن أولادهن ثياب البنات خوفا من العين لأن البنات عادة أقل تعرضا للحسد من البنين ..

وحين يبلغ الصبى الخامسة أو السادسة من عمره ، وفى بعض الأحيان بعد هذه السن ، تجرى له عملية الختان .. وفى العاصمة وغيرها من المدن اذا لم يكن والدا الطفل معسرين يخرج الطفل قبل الختان فى زفة تطوف به فى الشوارع القريبة من منزله . وقد ينتهز الوالدان فرصة وجود حفلة زفاف فيسير المطاهر فى زفة العروس ، وبذلك يقللان من نفقات عمل زفة خاصة ..

وحينذاك يسير المطاهر والمحتفلون به فى مقدمة زفة العروس . ويلبس المطاهر عمامة حمراء من الكشمير .. أما بقية ثيابه فهى ثياب الفتيات من « يلك » و « سلطه » وحليهن من « قرص » و « صفا » وغيرها ، وذلك حتى تجتذب الثياب والحلى أنظار الناس اليها وتصرفهم عن التحديق فى الغلام وبذلك يتقى شر الحسد . وتلك الثياب التى يرتديها غالية ثمينة ويستعيرها أهله من احدى السيدات الثريات وتكون بطبيعة الحال أكبر من حجم الغلام .. ويستعير أهل المطاهر كذلك جوادا مطهما يركب عليه ، ويمسك فى يده اليمنى منديلا مطرزا مطويا يضعه على فمه طول الطريق حتى يغطى جزءا من وجهه ، وبذلك يدفع عنه شر العين .. ويسير أمام المطاهر صبى الحلاق الذى يجرى عملية الختان وثلاثة أو أكثر من الموسيقيين بالمزمار والطبول .. وصبى الحلاق هو الذى يسير فى

طليعة الموكب يحمل « الحمل » وهو عبارة عن صندوق من الخشب له شكل نصف أسطوانى واربعة أرجل قصيرة ، والجزء الأمامى منه – وهو السطح المستوى – مغطى بقطع من المرايا ونقوش بارزة من النحاس . والجزء الخلفى مغطى بستار .. وهذا الحمل هو اشارة الحلاق ، ويسير وراءه الموسيقيون ، وقد يسبقه بعضهم ، ومن ورائهم المطاهر يقود السايس جواده .. ويسير من خلفه عدد من النسوة من قريباته وصديقاته .. وكثيرا ما يشترك فى الزفة الواحدة « مطاهران » وقد يركبان حصانا واحدا ..

وقلما يعنى الوالدان بتعليم أبنائهما اذ أنهما يكتفيان بتلقينهم بعض مبادىء الدين ، ثم يعهدان بهم الى معلم يعلمهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا .. ويتعلم الطفل منذ الصغر أن يقول : أشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .. ومعظم أطفال الطبقة العالية والمتوسطة وبعض أطفال طبقة العـــامة يتعلمون على يدى « الفقى » قراءة القرآن وتلاوته وترتيله وحفظه كله أو بعضه ، ثم يتعلمون بعد ذلك القواعد العامة فى علم الحساب ..

والكتاتيب فى مصر كثيرة متعددة ، لا فى العاصمة وحدها ، بل فى كل مدينة كبيرة ، ويوجد كتاب واحد على الأقل فى كل قرية من أمهات القرى .. وما من مسجد فى العاصمة أو سبيل أو حوض مما تشرب منه البهائم الا وألحق به كتاب يتعلم فيه الأطفال نظير نفقات ضئيلة ، اذ يأخذ الشيخ أو الفقى من والد كل تلميذ نصف قرش أو أكثر من ذلك أو أقل ، يوم الخميس من كل أسبوع اذ يصبح بعده الجمعة وهو يوم عطلة .. « والفقى » الذى يدرس فى كتاب ملحق بمسجد أو مبنى عام فى مدينة القاهرة يعطى فوق ذلك فى كل عام طربوشا وقطعة من الشاش يلف بها العمامة وقطعة من القماش التيل وزوجا من الأحذية ، كما يعطى كل تلميـــذ فى نفس الوقت من السنة طاقية من القماش وأربعة أو خمســـة أذرع من القماش القطنى وقد يعطى أيضا عشرة أو اثنى عشر ذراعا من القماش التيل وحذاء ، وفى بعض الحالات يعطى قرشا أو نصف قرش .
وهذه المنح كلها تعطى لهم من الأموال التى توقف على الكتاب وتوزع

عليهم فى شهر رمضان .. وتكتب الدروس عادة على ألواح من الخشب مدهونة بطلاء أبيض ، فاذا حفظ التلميذ الدرس يغسل اللوح ويكتب عليه درس جديد .. ويتعلم التلاميذ أيضا الكتابة على هذه الألواح .. ويجلس الفقى وتلاميذه على الأرض وبين يدى كل تلميذ لوح أو مصحف أو أحد أجزاء المصحف الثلاثين موضوع على مكتب صغير مصنوع من الجريد .. وكل من يتعلمون قراءة القرآن منهم يتلونه أو يرتلونه بصوت مرتفع ، ويحركون رؤوسهم أو أجسامهم الى الأمام والخلف دون انقطاع .. وهى عادة كل من يقرأون القرآن اذ يقال انها تعين على الحفظ .. ولك أن تتصور الضوضاء التى يحدثونها .. ومن يعاقب من التلاميذ يمد ويضرب على باطن قدميه بعصا من الجريد ..

ويتعلم التلاميذ أول ما يتعلمون الحروف الهجائية ، ثم علامات الحركة ، وغيرها من علامات التهجى ، ثم القيمة العددية لكل حرف من الحروف الهجائية .. ولكن قبل أن يصلوا الى تلك المرحلة الأخيرة ، جرت العادة أن يزخرف الفقى لوح التلميذ بالحبر الأسود والأحمر والطلاء الأخضر ، ويكتب عليه الحروف الهجائية مرتبة حسب قيمتها العددية ، ثم يبعث به الى والد التلميذ الذى يضع فوقه قرشا أو قرشين ثم يرده الى الفقى .. ويفعل الفقى ذلك كلما تخطى التلميذ مرحلة من مراحل تعليمه ، أو حين يبدأ فى حفظ القرآن ، فيرسل اللوح ست أو سبع مرات كلما تقدم الغلام فى الحفظ .. وفى كل مرة يكتب على اللوح الدرس الجديد ..

واذا ألم التلميذ بالقيمة العددية للحروف ، يكتب له الفقى على اللوح بعض الكلمات البسيطة كأسماء الرجال ، ثم أسماء الله التسع والتسعين ، ثم فاتحة الكتاب ، ويظل التلميذ يعيد قراءتها حتى يحفظها عن ظهر قلب ثم يبدأ فى حفظ بقية سور القرآن مبتدئا بالسورة الأخيرة ثم السورة التى قبلها ثم السورة التى قبل هاتين .. وهكذا بترتيب عكسى حتى ينتهى الى السورة الثانية من القرآن .. ذلك لأن سور القرآن بوجه عام تأخذ فى القصر من السورة الثانية حتى السورة الأخيرة .. وقلما يعلم الفقى التلاميذ الكتابة ، والذين يتعلمونها منهم ـ وهم قليلون ـ هم الذين سيلتحقون فيما بعد بوظيفة تحتم عليهم معرفة الكتابة .. وفى هذه الحالة يتعلمون

الكتابة وكذلك الحساب على يد « قبانى » وهو رجل وظيفته وزن البضائع فى السوق بميزان القبان .. أما الذين يريدون أن يكرسوا حياتهم للدين أو للعلم فانهم يتابعون دراسة منتظمة فى الجامع الأزهر العظيم .

والفقهاء فى مصر على جانب ضئيل من المعرفة ، وقليلون منهم من يتجاوز علمهم حفظ القرآن وبعض الأدعية يتلونها فى المناسبات التى يدعون اليها ويأخذون على تلاوتها أجرا .. وقد سمعت منذ عهد قريب عن رجل لا يعرف القراءة والكتابة التحق بوظيفة « فقى » فى كتاب يقع فى الحى الذى أقيم فيه .. ولما كان يحفظ القرآن كله فقد كان يستمع الى الصبية وهم يتلونه عليه ، ولكنه لجهله لم يكن يستطيع أن يكتبه لهم على الألواح فكان يكلف « العريف » — وهو ألفة الكتاب — بأن يفعل ذلك بدلا منه ، محتجا بضعف بصره .. وبعد بضعة أيام من التحاقه بوظيفته جاءته امرأة فقيرة تسأله أن يقرأ لها رسالة بعث بها اليها ولدها الذى ذهب لأداء فريضة الحج . فتظاهر الفقى بأنه يقرأها ، ولم يقل شيئا .. فاستنتجت المرأة من سكوته أن الرسالة تحمل اليها خبرا سيئا فقالت له : هل أصرخ ؟ قال نعم .. قالت : فهل أشق ثيابى ؟ قال نعم .. فرجعت المسكينة الى بيتها ، وتجمعت حولها صديقاتها ، وأقمن مناحة ومأتما .. ولم تمض على ذلك بضعة أيام حتى عاد ولدها سالما ، فسألته عما دفعه الى كتابة رسالة يقول فيها انه قد مات . فلما أخبرها بما حوته الرسالة ذهبت المرأة الى الفقى وسألته لم جعلها تصرخ وتشق ثيابها ما دامت الرسالة كانت تنبئها أن ابنها بخير .. وها هو ابنها قد وصل سالما .. ودون حياء أو خجل قال الرجل : ان الله هو علام الغيوب .. انى لى أن أعرف أن ولدك سيصل سالما ؟ لقد كان من الخير لك أن تحسبيه ميتا بدلا من أن تنتظرى عودته ثم يخيب أملك حين لا يعود .. فاستحسن الحاضرون قوله وأثنوا على رجاحة عقله قائلين : ما أعظم حكمة فقيهنا الجديد ! وهكذا علت منزلة الفقى وذاعت شهرته .. (١)

(١) وجدت بعد هذا فى كتاب « ألف ليلة وليلة » طبعة القاهرة قصة تكاد تكون هى نفس هذه القصة ولذلك أرى أحد أمرين : اما أن القصة كما رواها لى صاحبها ليست صحيحة واما أن هذا الفقى كان يقلد الفقى فى قصة « ألف ليلة وليلة » وهو أمر ليس بعيد الاحتمال اذ رويت لى قصص كثير مشابهة كان يقلد فيها أصحابها أبطال الف ليلة وليلة ..

وبعض الآباء يأتون بشيخ أو فقى الى البيت ليعلم أبناءهم .. والوالد عادة يعلم ابنه الوضوء والغسل والتطهر ، كما يعلمه الصلاة والواجبات الدينية والأخلاقية الأخرى على قدر علمه بها . وقد امـر النبى المسلمين أن يأمروا أولادهم بالصلاة حين يبلغون السابعة ، وان يضربوهم اذا لم يقيموا الصلاة اذا بلغوا العاشرة .. ومع ذلك فان قليلا من الناس فى مصر هم الذين يقيمون الصلاة قبل أن يبلغوا مبلغ الرجـــال ..

أما الاناث من الأطفال فقلما يتعلمن القراءة أو الكتابة ، وقليل منهن ، حتى بين أفراد الطبقة العالية ، من يتعلمن كيفية أداء الصلاة. وبعض الأغنياء يستخدمون « شيخه » تأتى الى الحريم كل يوم لكى تعلم بناتهم وجواريهم الصلاة وتلاوة بعض سور من القرآن ، وفى بعض الأحيان لتعلمهن القراءة والكتابة ولكن ذلك شىء نادر فى مصر حتى بين فتيات أرقى طبقة فيها .. وهناك مدارس كثيرة لتعليم الفتيات أشغال الابرة والتطريز وما اليهما . وتستخدم الأسر الموسرة فى كثير من الأحيان « معلمه » لتعلم بناتهن هذه الفنون فى بيوتهن .. وفى بعض الأحيان تتلقى الفتيات الصغيرات من الطبقة المتوســطة تعليمهن مع الصبيان فى مدرسة عامة واحدة ولكنهن يكن فى العـادة محجبات ولا يختلطن بالصبيان ..



حياة الرحالة

- الشاعر الذى يعانى من الربو ، ويدخن « النارجيله »
- علامة بغل العالم سـجادة صغيرة ..!
- يمينك شمالك ، ظهرك وشك ... ونداءات أخرى .

قبل أن أتناول بالوصف عادات رب البيت أحب أن أتكلم أولا عن الطبقات المختلفة من الأشخاص الذين تتكون منهم الأسرة ·· ولنبدأ بالحريم ·· وهن نساء البيت ، وهؤلاء يقمن فى حجرات خاصة بهن يطلق عليها أيضا اسم الحريم ·· ولا يسمح لأحد من الرجال بدخول الحريم سوى رب البيت والأقرباء من المحرمين ، والأطفال ··

ويتكون الحريم أولا من الزوجة أو الزوجات اللاتى قد يبلغ عددهن أربعة ، ثم الجوارى من بيض وحبشيات ، وهؤلاء فى العادة محظيات ، والجوارى السود وهؤلاء يقمن بأعمال الخدمة فى البيت كطهى الطعام وخدمة سيدات الدار ·· ويأتى فى المرتبة الثالثة بعد هؤلاء ، الخادمات اللاتى لسن أرقاء ولسن محظيات ·· أما الخدم من الرجال فهم من العبيد السود والخدم من غير الأرقاء ويغلب أن يكونوا من ذلك النوع الثانى ·· وقليل من المصريين هم الذين يستفيدون من اباحة الدين لهم الزواج من أربعة ، كما أن عدد من يتخذون زوجتين أو أكثر ومحظيات ، قليل للغاية ·· ومعظم هؤلاء الذين يكتفون بزوجة واحدة يقنعون بالبقاء بدون محظية رغبة فى العيش فى هدوء وسلام ان لم يكن لسبب آخر · وبعض الرجال يفضلون اقتناء جارية حبشية ، فهى لا تحتاج لنفقات باهظة كتلك التى تحتاجها الزوجة ، ويستأجرون جارية سوداء أو خادمة مصرية لكى تقوم على خدمة تلك الجارية الحبشية ، وتنظف حجرات الحريم وترتبها وتطهى الطعام · وقلما تقيم زوجتان أو أكثر فى بيت واحد ·· واذا أقمن فى بيت واحد فانهن يقمن فى حجرات منفصلة .. أما الخدم فيقوم واحدمنهم أو أكثر علىخدمة ربالدار وضيوفه، وآخر يدعى « السقا » يختص بخدمة الحريم ويرافق السيدات حين يخرجن الى الطريق اذا لم يكن فى الدار خصى ·· والسقا هو رئيس الخدم ·· وهناك أيضا البواب الذى يجلس دائما عندالباب لايبرحه ، والسايس الذى يعنى بالحصان أو البغل أو الحمار ·· وقليل من المصريين من يمتلكون « المماليك » ، وهم العبيد البيض ، اذ أن معظم هؤلاء فى حوزة « العثمانليين » (أو الأتراك) ·· ولا يكاد يمتلك « الخصى » سوى

الأتراك من ذوى الرتب الرفيعة .. على أن الثرى من التجار يزهو بأن نه عبدا أسود يركب أو يسير خلفه ويحمل له غليونه ..

ومن عادة المصرى أنه يصحو مبكرا ، اذ أنه ينام فى ساعة مبكرة ويتحتم عليه أن يستيقظ ويرتدى ملابسه قبل الفجر لكى يقيم الصلاة .. وبينما هو آخذ فى الوضوء ثم الصلاة تعد له زوجته أو جاريته فنجانا من القهوة وتملأ له غليونه وتقدمهما له حالما يفرغ من الصلاة ..

وكثير من المصريين لا يتناولون بعد ذلك طعاما حتى الظهيرة .. وبعضهم يفطر طعاما خفيفا فى الصباح الباكر .. ويتكون طعام « الفطور » عادة من الخبز والبيض والزبد والجبن والقشدة واللبن الزبادى وغير ذلك .. أو يتكون من فطيرة مشبعة بالزبد ، رقيقة للغاية ومطوية طية فوق طية كأنها المنشفة (الفوطة) .. وتؤكل الفطيرة وحدها أو يرش قليل من عسل النحل أو السكر فوقها .. وأكثر الأطعمة شيوعا فى الفطور هو الفول المدمس .. وطريقة « تدميس » الفول هو أن يغلى غليا بطيئا طوال الليل فى قدر من الفخار يدفن كله ما عدا العنق فى رماد فرن ساخن أو حمام ، وتغلق فوهة القدر غلقا محكما .. ويوضع على الفول المدمس الزيت الحار أو الزبد وتعصر عليه قطعة من الليمون .. ثم يؤكل .. ويباع الفول المدمس فى أسواق العاصمة والمدن الأخرى .. أما فطور الفقراء فيتكون من الخبز و « الدقة » وهى خليط من الملح والفلفل والزعتر والنعناع أو الكمون وتضاف اليها الكزبرة أو القرفة أو السمسم أو الحمص ، وقد تضاف كل هذه جميعا .. وتغمس كل لقمة من الخبز فى ذلك الخليط ، والخبز عبارة عن قرص مستدير الشكل عرضه نحو شبر وسمكه قدر سمك الاصبع .. ويستمتع معظم الناس بشرب القهوة وتدخين الغليون فى الصباح الباكر وأثناء النهار ، ماداموا قادرين على الانفاق على ذلك الترف .. وكثير من الرجال لا يكادون يرون بدون غليون .. فهم اما يحملونه فى أيديهم ، أو يحمله لهم الخادم الذى يسير وراءهم .. ويضع الرجل التبغ الذى يستعمله فى يومه فى كيس مصنوع من قماش الشيلان

أو من الحرير أو من المخمل ، وكثيرا ما يضع مع التبغ جرابا صغيرا يحتوى على حجر الصوان وحديدة الزناد وبعض الصوفان ثم يحشره فى صدره ..

وللغليون أسماء كثيرة منها « الشبك » و « العود » .. ويتراوح طوله فى العادة بين أربعة وخمسة اقدام .. وبعضه أقصر والبعض الآخر أطول من ذلك بكثير .. وأكثر أنواعه شيوعا فى مصر هو المصنوع من نوع من الخشب يسمى « جرمشق » والجزء منه الذى يبدأ من المبسم وينتهى عند ثلاثة أرباع طوله مغطى بقماش من الحرير يحبسه عند الطرفين خيط من الحرير يكون فى الغالب مجدولا بحرير ملون ، أو تحبسه أنبوبة من فضة مذهبة .. وينتهى الطرف الأسفل من هذا الغطاء بشرابة من الحرير .. وكان الغرض الأصلى من هذا الغطاء الحريرى هو تبريد الغليون بواسطة ترطيب الحرير بالماء ، فيبرد الدخان تبعا لذلك بالبخر .. ولكن لا يفعل الناس ذلك الا اذا كان الغليون قديما أو غير جميل .. والغليون المصنوع من خشب الكرز ليس له غطاء على الاطلاق ويستعمله كثير من الناس وبخاصة فى فصل الشتاء .. اذ أنه لا يبرد الدخان فى فصل الصيف كما يبرده النوع المغطى بالحرير .. وجفنة الغليون مصنوعة من الطين المحروق حمراء اللون أو بنية .. (١) ويتكون المبسم من قطعتين أو أكثر من كهرمان زاهى اللون غير شفاف مطعم بالذهب المطلى بالمنيا ، والعقيق واليشب أو غير ذلك من الأحجار الكريمة . وهذا الجزء هوأثمن أجزاء الغليون وأغلاها ثمنا .. ويبلغ ثمن الواحد من النوع الذى يستعمله أفراد الطبقة المتوسطة من جنيه الى ثلاثة جنيهات استرلينية .. وتدخل فى هذا الجزء من الغليون أنبوبة من الخشب تغير باستمرار اذ أن زيت التبغ يؤثر فيها بسرعة فيجعلها تتلوث وتتسخ .. ويحتاج الغليون أيضا الى التنظيف كثيرا بوساطة سلك طويل ، ولذلك يكسب كثيرون من الفقراء فى القاهرة عيشهم عن طريق تنظيف الشبك والعود وما اليهما ، متجولين من مكان الى مكان ..

(١) كثيرا ما توضع تحت الجفنة صينية صغيرة من النحاس الاصفر حتى لا يحترق الحصير أو السجاد ، ويلقى رماد التبغ فى صينية صغيرة من الخشب .

والتبغ الذى يدخنه أفراد الطبقة العالية وبعض أفراد الطبقات الأخرى خفيف لذيذ النكهة ويستورد معظمه من حول « اللاذقية » بسوريا وأحسن أنواعه هو « دخان الجبل » الذى يزرع فوق التلال المحيطة بتلك المدينة . وهناك نوع أقوى منه يتخذ اسمه من اسم مدينة « صور » يخلط أحيانا مع النوع الأول ويستعمله معظم أفراد الطبقة المتوسطة . وحين يدخن المصريون وغيرهم من الشرقيين يأخذ الواحد منهم نفسا طويلا بحيث ينز كثير من الدخان الى الرئتين ، ولذلك فهم يعبرون عن « تدخين التبغ » بقولهم « شرب الدخان » أو « شرب التبغ » اذ يطلق على التبغ أيضا كلمة « دخان » .. وقليل منهم من يبصق أثناء التدخين ، وقلما رأيت أحدا منهم يفعل ذلك ..

ويستعمل بعض المصريين الغليون الفارسى ، وفيه يمر الدخان من خلال ماء ، والنوع الذى يستعمله أفراد الطبقة الراقية يسمى « نار جيلة » اذ أن الوعاء الذى به الماء هو عبارة عن جوزة هند وهى تسمى بالعربية « نار جيلة » .. وهناك نوع آخر يسمى « الشيشة » ومعناها بالفارسية « زجاج » ولكل من النارجيلة والشيشة أنبوبة طويلة مرنة . ويستعمل فيهما نوع من التبغ يسمى « تمباك » يؤتى به من بلاد فارس . وهو يغسل فى أول الأمر عدة مرات ثم يوضع فى الجفنة وهو لا يزال مبتلا وتوضع فى أعلا النارجيلة أو الشيشة قطعتان أو ثلاث قطع من الفحم المتقد . ونكهة التمباك معتدلة مقبولة .. ولكن طريقة التدخين هذه تحتاج الى استنشاق الدخان بقوة تؤذى معها الشخص اذا كانت رئتاه ضعيفتين .. ومع ذلك فهى توصف لمن يقاسون من السعال .. وأحد أصدقائى ، وهو أشهر شعراء القاهرة يعانى من مرض الربو ولذلك فهو يعكف على تدخين النارجيلة ، ولا يكاد ينقطع عن التدخين من الصباح حتى المساء .. واستعمال الغليون الفارسى هذا يجعل الشخص يستنشق الدخان كما يستنشق الهواء . وتعزى كثرة انتشار أمراض الكبد فى بلاد العرب الى استعمال النارجيلة .. وكثير من المصريين يعانون من هذه الأمراض نفسها . وهناك نوع من الغليون يسمى « الجوزة » وهى تشبه النارجيلة غير أن لها بدلا من الأنبوبة المرنة الملتوية ، انبوبة قصيرة من القصب ، وليس لها قاعدة

ترتكز عليها .. ويستعملها أفراد الطبقة الدنيا فى تدخين التمباك وكذلك فى تدخين الحشيش .

ويشرب المصريون القهوة ثقيلة وبدون سكر أو لبن . وفنجان القهوة لا يكاد يسع من القهوة مقدار أوقية ونصف ، وهو مصنوع من الصينى وليس له يد ولذلك يوضع داخل فنجان آخر يسمى « ظرف » من الفضة أو النحاس الأصفر تبعا لمقدرة صاحبه المالية . ومن العادات الشائعة أن يبخر الفنجان بالمصطكى « المستكه » ويضع الأغنياء على القهوة العنبر الشذى الرائحة . ويؤتى « بالبكرج » فى بعض الأحيان فى وعاء من الفضة أو النحاس الأصفر يسمى « عزقى » يحتوى على فحم متقد ويعلق من ثلاث سلاسل .

وفى الشتاء يستعمل المصريون للتدفئة صحن الاحماء ويسمى « المنقل » وبالعامية « المنقد » وهو من النحاس الأحمر المقصدر ، فيملأونه بالفحم المتقد ويضعونه على الأرض وفى بعض الأحيان يحرقون فيه البخور .. والمصريون يحبون العطور حبا جما ويعطر الرجال لحاهم وشواربهم بالزباد .. وتعطر حجرات الدار بالبخور وبخاصة ذلك النوع المسمى « بخور البر » وكذلك البخور الجاوى والعود ..

وما دام المصرى قادرا على شراء حصان أو بغل أو حمار ، أو فى استطاعته استئجار حمار فانه قلما يرى ماشيا خارج عتبة داره .. والرجال من الطبقة العالية سواء كان ماشيا أم راكبا يتبعه دائما خادمه يحمل له الغليون .. وسرج الحصان محشو ومغطى بقماش قطنى أو قطيفة مطرزة أو مزركشة ، ورأس اللجام وجلد الصدر تزينهما شرابات من الحرير وقطع من النقود وما اليهما .. والأثرياء من التجار وكذلك كبار العلماء يركبون البغال .. وسرج البغل يكاد يشبه سرج الحمار ، واذا كان راكب البغل أحد العلماء يغطى السرج بسجادة صغيرة ، كذلك يغطى السرج الذى تركب عليه السيدات بسجادة وان كان يختلف عن سرج العلماء اختلافا كبيرا كما سيبين فيما بعد . وأكثر ما تستخدم الحمير للركوب فى الشوارع الضيقة المزدحمة ، ويوجد الكثير منها للايجار .. وخطوة الحمار هى عبارة عن رهونة هادئة .. وقد اشتهرت مصر منذ زمن بعيد

بحميرها الممتازة وهى أكبر من الحمير فى بلادنا وأرقى منها من جميع الوجوه . ويبلغ ثمن الحمار من النوع الجيد المدرب نحو ثلاثة أو أربعة جنيهات استرلينية .. ويطهم الحمار بسرج محشو مقدمته مغطاة بالجلد الأحمر ومكان الجلوس فيه مغطى بمخرمات من الصوف الناعم من اللون الأحمر أو الأصفر أو من ألوان أخرى .. والقشاط (معلاق الركاب) دائما شديد القصر .. ويسير أمام راكب الحصان خادم أو خادمان يوسعان له الطريق ويحمل كل منهما عصا طويلة تسمى « نبوت » .. كذلك يجرى الى جانب راكب الحمار أو من خلفه أو من أمامه خادم يصبح فى الناس أن يتجهوا الى اليمين أو الشمال .. وأن يحذروا ظهورهم ووجوههم وجنوبهم وأقدامهم وكعوبهم .. فهو يقول : يمينك شمالك ، ضهرك وشك ، جنبك رجلك كعبك .. وكثيرا ما يضيف الى تلك العبارات قوله «يافندى» اذا كان السائر تركيا أو « يا شيخ » اذا كان مسلما كهلا أو متوسط العمر أو يقول « يا صبى » للشاب و « يا ولد » أو « يابنى » للغلام و « يا شريف » لذى العمامة الخضراء و « يا معلم » للمسيحى أو اليهودى و « يا خواجه » للأجنبى من الافرنج و « ياست » للسيدة من الطبقة العالية أو المتوسطة أو يقول « يا بنت » للمرأة من الطبقة الفقيرة .. وهذه لا تتزحزح عن مكانها من الطريق قيد أنمله اذا لم يدعها الخادم بقوله « يا بنت » . وكثيرا ما ينادى على الفتاة الصغيرة أو الشابة التى تسير فى الشارع بكلمة « عروسة » كما ينادى على غيرها من النساء بكلمة « حاجة » .

على أن راكب الحمار يجب أن يراقب الطريق هو الآخر فلا يدع الأمر كله لخادمه والا وجد نفسه وقد أوقعه من على ظهر الحمار حمل مستعرض من أحمال الجمال اذ كثيرا ما يحدث ذلك فى الشوارع الضيقة المزدحمة .. ويحمل الخادم الفليون فاذا ترجل سيده عند بيت أو دكان فانه يملأه له ويشعله .

واذا لم يكن للرجل عمل منتظم يشغله فانه يقضى جل يومه متنقلا على ظهر الحمار يزور الأصدقاء ويشترى ما يريد من الأسواق .. أو يقضى اليوم فى بيته يدخن ويشرب القهوة ويتسامر مع أحد الأصدقاء .. وقد يذهب الى أحد الحمامات العامة فى الصباح

فيقضى ساعة أو أكثر من ساعة يستمتع بما يهيئة له الحمـــام من ترف .. حتى اذا جاء الظهر اقام الصــلاة ، اذا كان ممن يؤدون فرائض دينهم .. ولكن قليلا من الناس ، كما سبق أن ذكرت فى مكان آخر من هذا الكتاب ، هم الذين لا يهملون أداء الفرائض وكثير منهم لا يكادون يقيمون الصلاة على الاطلاق .. وبعد الظهر مباشرة ، اذا لم يكن قد تناول طعام الفطور متأخرا ، يتغذى ثم يدخن ويشرب فنجانا من القهوة ، واذا كان الطقس حارا يأخذ سنة من النوم .. وهو عادة يأوى الى الحريم فيضطجع هناك .. وتشرف زوجتـــه أو جاريته على راحته أو تدلك له كعبيه بيديها . واذا جاء رب الدار ضيف وهو فى ضجعته تلك ، أو كان يخلو فى الحريم الى أهله فان الخادم يخبره أن سيده فى الحريم فلا ينتظر الضيف منه أن يبرحه الا اذا كان لضرورة ملحة عاجلة .. ومن بعد صلاة العصر حتى المغرب يقضى رب الدار وقته فى التدخين وشرب القهوة مع صديق أو جمع من أصدقائه فى البيت أو خارج البيت .. وبعـد الغروب بوقت قصير يتناول طعام العشاء ..

والعشاء هو الوجبـة الرئيســـية .. ومن عادة المصريين انهم يطهون الطعام بعد الظهر ، وذلك الذى يتبقى منه بعد العشاء يؤكل فى وجبة الغداء فى اليوم التالى اذا لم يكن بالبيت ضيوف . ويتنـاول رب الدار فى العادة طعام الغداء والعشاء مع زوجته وأطفاله .. ولكن كثيرا من الرجال وبخاصة من الطبقة العاليـــة لا يأكلون مع أفراد أسرتهم اما لأنهم يستنكفون أن يفعلوا ذلك ، واما لأن مشاغل الحياة الاجتماعية فى مجتمعهم لا تسمح لهم بمشاركة الأسرة الطعام الا فى بعض المناسبات .. على أننا نجد من بين أفراد الطبقة الدنيا أيضـا رجالا قلما يتناولون الطعام مع زوجاتهم وأبنائهم .. واذا كان رجل يزور صديقا له وحل موعد الغداء أو العشاء فمن الواجب على رب الدار أن يأمر باحضار الطعام للضيف .. وهو يفعل ذلك حتى ولو كان الزائر رجلا غريبا ..

وقبل أن يجلس الشخص الى المائدة أو بمعنى أصح الى الصينية يغسل يديه وأحيانا فمه بالماء والصابون أو على الأقل يصب ماء على يده اليمنى ويأتى الخادم « بالطشت والابريق » وهما من النحـاس

الأحمر المقصدر أو النحاس الأصفر ، وفى بيوت ذوى اليسار من الناس يكونان من الفضة أو النحاس الأحمر المذهب .. ثم يعطى الخادم الضيف فوطة .. ويؤتى بصينية من النحاس الأحمر المقصدر أو من النحاس الأصفر فى بعض الأحيان يبلغ قطرها فى العادة بين قدمين وثلاثة أقدام .. وهذه تقوم مقام المائدة اذ أنها توضع فوق كرسى يبلغ ارتفاعه نحو خمس عشرة بوصة مصنوع من الخشب ومطعم بالصدف أو العظم أو ما اليهما .. ومن الصينية والكرسى تتكون « السفرة » ثم توضع حول الصينية أقراص من الخبز سبق وصفها ، يقطع أحيانا كل قرص نصفين .. وعدد من الليمون كل ليمونة مقطوعة أيضا نصفين لكى يعصر على أصناف الطعام المختلفة .. وملاعق من الخشب أو صدف السلحفاة لكل فرد من الآكلين ملعقة .. ويؤتى بعد ذلك بعدد من الأطباق مليئة بأصناف مختلفة من الأطعمة والخضروات فتوضع على الصينية ويؤكل منها جميعا وفقا لعادة أهل البلاد أو يؤتى بطبق بعد طبق فيؤكل من كل على حدة وفقا للعادة التركية .

ويجلس الآكلون على الأرض حول الصينية ، وعلى ركبتى كل واحد منهم فوطة .. واذا كانت الصينية فى موضع قريب من حافة ديوان منخفض ، كما يحدث فى كثير من الأحيان ، فان بعض الطاعمين يجلسون على الديوان ويجلس بعضهم الآخر على الأرض . أما اذا كان عدد الطاعمين كبيرا فتوضع الصينية فى وسط الحجرة ويجلس الواحد منهم وركبته اليسرى على الأرض واليمنى مرفوعة وبهذه الطريقة يستطيع نحو اثنى عشر شخصا أن يجلسوا حول صينية عرضها ثلاثة أقدام .. ثم يشمر كل منهم عن ساعده الأيمن وقبل أن يأكل يقول : بسم الله .. أو بسم الله الرحمن الرحيم .. وهى عبارة تقال فى صوت خافت ولكنه مسموع ويبدأ بها رب الدار .. وهى بمثابة شكر لله ودعوة للحاضرين لكى يشاركوه فى الطعام .. واذا قيل لشخص « بسم الله » أو « تفضل » وكان لا يبغى المشاركة فى الطعام فلابد أن يقول « هنيئا » أو عبارة أخرى مشابهة والا تصيب « العين » الطعام وهم يقولون : « ان الطعام المحسود ليس فيه بركة » . على أن الحاح رب الدار فى دعوة القريب الى الطعام بقوله « بسم الله » ذلك الالحاح المتصل يجعلنا نعتقد أنه يقولها

بدافع كرم الضيافة لا خوفا من العين .. وأول من يأكل رب الدار ثم يحذو حذوه الجالسون من أهل بيته أو من ضيوفه . وهم لا يستعملون الشوك أو السكاكين وانما يأكلون بالاصبع الابهام والسبابة والوسطى من اليد اليمنى .. وما لا يؤكل بالأيدى مثل الحساء والأرز وغيرهما يأكلونه بالملاعق .. وتستدعى بعض أنواع الطعام استعمال اليدين معا .. واذا كانت أصناف الطعام متعددة يأكل كل طاعم من الصنف الذى يحبه ،أو يأكل من كل طبق على التوالى . أما اذا وضع الطعام على الصينية طبقا بعد طبق فيأكل كل منهم بضع لقم ثم يرفع الطبق سريعا لكى يوضع مكانه طبق جديد .. ومن آداب الضيافة أن ينتقى المضيف اللقمة أو القطعة الطيبة من الطعام فيقدمها بيده الى ضيفه ..

وتشمل ألوان الطعام التى يأكلها المصريون اليخنى وهو من اللحم « المسبك » والبصل المقطع ومعه بعض « الباميه » أو غيرها من الخضراوات .. ثم القاورمة وورق المحشى ، والخيار والباذنجان الأسود والأبيض والأحمر ، وهذا الأخير هو الطماطم .. ومن طعامهم أيضا نوع من القرع يسمى « قرع كوسه » وهو يحشى أيضا على طريقة « ورق المحشى » ، والكباب ، وكثير من الأطعمة تتكون كلها أو معظمها من الخضر .. ومن أمثلتها الكرنب والرجلة والاسفناخ واللوبيا والترمس والبازلاء والقرع والقلقاس والعدس .. ويأكل المصريون أيضا السمك واللحوم والطيور المحشوة بالزبيب وجوز الفستق وفتات الخبز والبقدونس . وقد تقدم للطعام شاة كاملة محشوة بالزبيب وجوز الفستق وما اليهما ..

أما الحلوى فهى كثيرا ما تخلط باللحم وغيره .. ومنها العناب ، والخوخ والمشمش وكذلك يخلط السكر باليخنى . ومن أصناف الحلوى التى يحبونها الكنافة بالسكر أو عسل النحل .. ويؤكل البطيخ فى موسمه كنوع من الحلوى فى كل أكلة .. وهم يقطعونه قبل الأكل بنحو ربع ساعة ثم يتركونه ليبرد فى مكان مكشوف أو مكانه يتخلله تيار من الهواء ويراقبونه طوال تلك المدة حتى لا يقترب مثه ثعبان يشمه أو يأكل منه اذ يقال ان الثعابين شديدة الولع بالبطيخ وتشم رائحته على مسافة بعيدة .. ويختتم الطعام بطبق

من « الأرز المفلفل » يعقبه عند الأغنياء قدح من الخشاف وهو شراب حلو يتكون من ماء يغلى فيه الزبيب ثم السكر وبعد أن يبرد يضاف اليه قليل من ماء الورد .. وهو يشرب بمغارف من صدف السلاحف أو من جوز الهند .. وكثيرا ما يقوم البطيخ مقام الخشاف

والمصريون يأكلون بسرعة ولكنهم لا يسرفون فى الطعام .. واذا فرغ الرجل من طعامه يقول : الحمد لله ثم يقوم دون أن ينتظر حتى يفرغ الآخرون من طعامهم .. ويأتى له الخادم بالطشت والابريق ويصب له الماء فيغسل يديه وفمه بالماء والصابون .. ولا يشرب المصريون خلال الطعام سوى ماء النيل وان كان الأغنياء فى بعض الأحيان يشربون الشربات . والعرب لا يشربون أثناء الطعام من الماء الا قليلا أو لا يشربون على الاطلاق ، وانما هم يشربون جرعة كبيرة بعد الأكل مباشرة .. ويشرب الماء عادة من قارورة من الفخار أو من قدح من النحاس الأصفر .. وقد كان قدماء المصريين أيضا يشربون الماء من أقداح من النحاس .. والقوارير من الفخار نوعان : نوع يسمى « دورق » والآخر يسمى « قلة » .. وللدورق فوهة ضيقة ، أما فوهة القلة فهى واسعة . وتغطى الدوارق والقلل بغطاء من الفضة أو النحاس الأصفر أو الصفيح أو الخشب أو الجريد وتوضع فى صينية من النحاس الأحمر المقصدر يتجمع فيها الماء الذى يرشح منها . وفى الشتاء يستعمل كثير من المصريين الخزف الصينى بدلا من القلل التى تشتد حينذاك برودة الماء فيها .. وبعض أقداح الماء منقوشة من الداخل بأيات من القرآن أو أسماء أهل الكهف .. ويقول الشخص حين يشرع فى الشرب وحين ينتهى منه ما يقوله عند بدء الطعام والفراغ منه .. ويقول له كل الحاضرين .. هنيئا ... فيجيب بقوله « الله يهنيك » .

وبعد تناول طعام العشاء يدخن الرجل غليونه ثم يحتسى فنجانا من القهوة الى أن يحين موعد صلاة العشاء .. وقد يقطع أذان العشاء متعة التدخين ولكنه يواصلها بعد أن يفرغ من الصلاة .. ثم يلعب مع جلسائه لعبة الداما أو الشطرنج أو يتبادلون جميعا الحديث مما يجعل الوقت يمضى سارا بهيجا .. ويستمتع أفراد الأسرة من ذوى اليسار بوقتهم استمتاعا كبيرا .. ولكنه استمتاع

هادىء لا صخب فيه .. وكثيرا ما يخرج الرجال لزيارة أصدقائهم حين يحل المساء أو بعد العشاء .. والرجل اذا خرج فى ذلك الموعد للزيارة أو لغرض أخر يحمل فى يده فانوسا ..

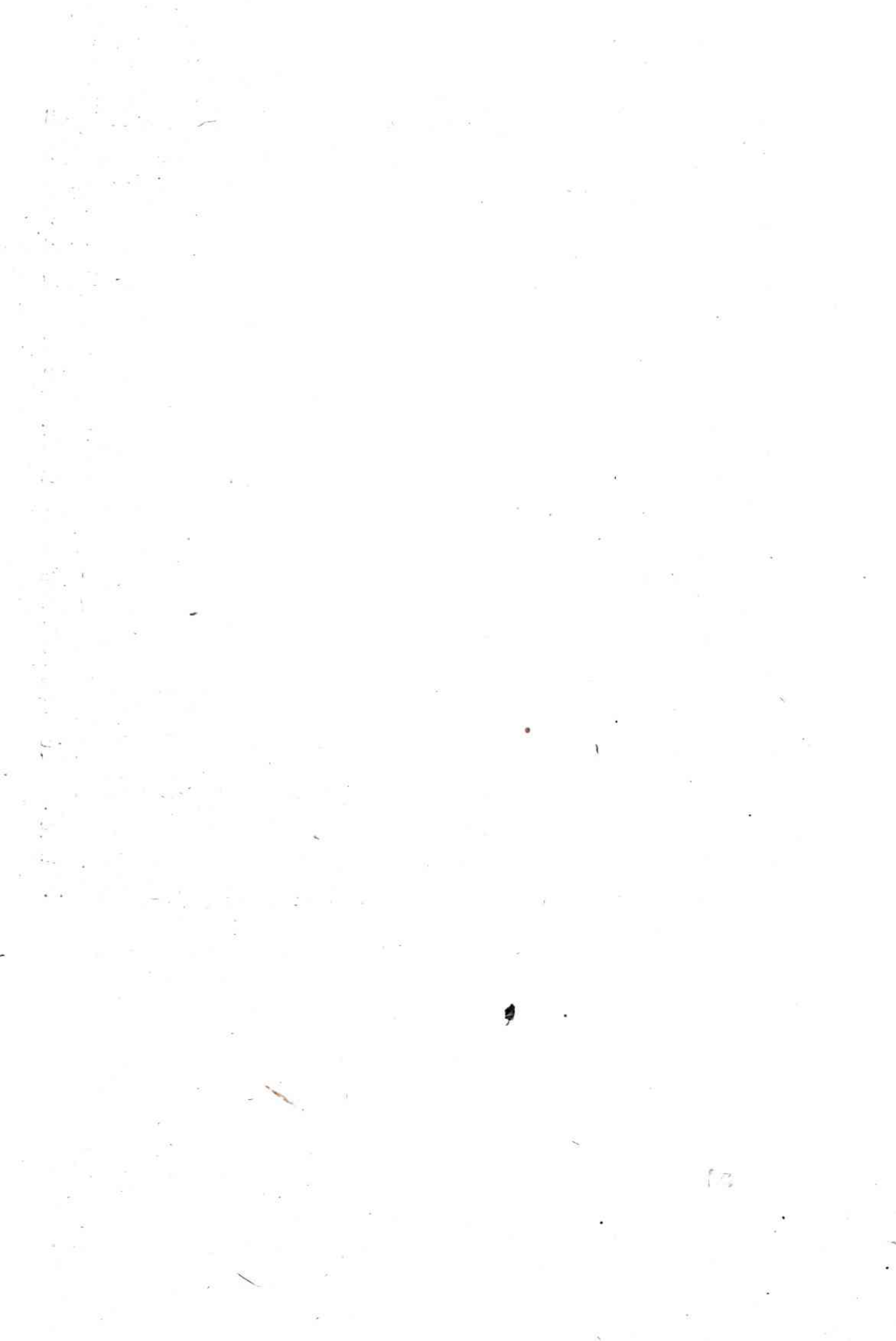
وعند مدخل البيوت يعلق فى غالب الأحيان مصباح يعرف « بالقنديل » يوقد ليلا .. وتبدو حجرات البيوت فى الليل أكثر كآبة وعتمة مما هى أثناء النهار فيكتفى بايقاد شمعة أو شمعتين لاضاءة حجرة استقبال واسعة رحيبة .. وقليل من المصريين ممن يسهرون فى الصيف الى ما بعد الساعة الثالثة أو الرابعة أى بعد غروب الشمس بثلاث أو أربع ساعات اذ أن المصريين يحسبون الوقت من بدء الغروب فى جميع فصول السنة .. وفى الشتاء يسهرون خمس أو ست ساعات .

وهكذا يمر النهار عند المتوسطين من ذوى اليسار الذين ليس لهم عمل منتظم يشغل وقتهم أو يتطلب منهم أن يباشروه بأنفسهم .. أما التاجر فيتوجه بعد الفطور مباشرة الى دكانه أو مخزن بضائعه ويظل به لا يبرحه حتى قرب غروب الشمس وهو يستمتع بالتدخين طوال النهار كما يشاء ، وكثيرا ما يشاركه زبائنه فيقدم غليونه لمن لا غليون معه .. كما يقدم لهم القهوة التى يؤتى بها من المقهى القريب من الدكان .. ولعله يقضى وجه النهار كله أو جله يثرثر مع زبائنه أو مع التجار فى الدكاكين المجاورة أو المقابلة لدكانه .. واذا أذن للصلاة يقيمها فى دكانه لا يبرحه .. وبعد صلاة الظهر أو قبلها يأكل طعاما خفيفا كطبق من الكباب وقرص من الخبز يحضره له من البيت كل يوم خادم أو خادمة ، أو يشتريه من السوق .. واذا حضر الطعام أحد الزبائن دعاه اليه صاحب الدكان وألح فى دعوته لكى يشاركه اياه .. وفى الدكان قلة كلما فرغت يملأها صاحبها من « السقا » الذى يمر بالدكاكين .. وحين يحل المساء يرجع التاجر الى بيته ويتناول عشاءه .. وبعد وقت قصير يأوى الى فراشه ..

والخدم من الرجال يحيون حياة سهلة مطمئنة .. الا السايس .. فكلما خرج سيده راكبا أخذ يجرى الى جانبه أو من أمامه فى

الحر اللافح ، والقيظ على أشده .. ويظل يجرى ساعات متواصلة دون أن تبدو عليه آثار الاعياء .'. ولـــكل ثرى من الأثرياء بواب يجلس عند باب الدار لا يبرحه ، وخدم شتى .. وجل هؤلاء من المصريين أبناء البلاد .. على أن كثيرا من النوبيين يعملون خدما فى العاصمة وغيرها من المدن المصرية وجلهم بوابون .. ويعدهم الناس أكثر أمانة من الخدم المصريين .. ولكنى أميل الى الاعتقاد من خبرتى الشخصية ومما سمعته من آراء أصدقائى أنهم يحظون بتلك السمعة لأنهم أكثر من المصريين دهاء وأوسع منهم حيلة .. ويتقـــاضى الخدم أجورا ضئيلة تتراوح بين ريال وريالين فى الشهر .. ولكنهم يتلقون منحا كثيرة .. وفى العيد ، بعد رمضان ، يعطى سيد الدار لكل خادم من خدمه ثوبا جديدا أو مجموع ما يكون ثياب الرجل من « عرى » ، وهو قميص أزرق يلبس فوق الملابس ، وطربوش ، وعمامة . أما ما يحتاجونه من ملابس خلال العام فيدفعون هم ثمنه .. وان كانوا لا يتكفلون بثمن الحذاء فى بعض الأحيان .. وهم علاوة على أجورهم يأخذون منحا من المال من الضيوف والتجار الذين يتعامل سيدهم معهم وبخاصة حين يعقد معهم صـــفقة عظيمة .. وفى بعض الحالات يرفعون الكلفة بينهم وبين سيدهم بل يضحكون ويمزحون معه .. وان كانوا فى حالات أخرى يخضعون له الخضوع كله ، ويظهرون له أبلغ آيات الاحترام والتوقير ، ويحتملون ما يوقعه بهم من عقوبات بدنية فى صبر وجلد كأنهم أطفال صغار ..

وتقودنا معرفتنا بالمصريين المحدثين الى مقارنة عاداتهم المنزليـة بعادات الأوربيين فى القرون الوسطى .. ومن هذه المقارنة سيتضح لنا أن أوجه الشبه فيما يتعلق بالرجال أكبر بكثير من أوجه الخلاف .. أما فيما يتعلق بالنساء فالأمر على النقيض من ذلك كله ..





حياة المرأة

- العزوبية ... عيب خطير ..!
- كرسى خاص لعمامة العريس .. ومظلة بغطاء حرير ..!
- العروس تزف الى الحمام .. ووالدها يساوم على المهر ..

لقد قضينا فى الفصل السابق وقتا طويلا مع الرجال فى الطابق الأرضى .. والآن سأصعد بك الى الحريم .. وتطلق كلمة « حريم » على نساء الأسرة كما تطلق على الحجرات التى يقمن فيها ، ومعناها محرم أو حرام ..

ولكن دعنى أحدثك أولا عن الزواج وحفلات الزفاف .. يعتبر من الأمور الشائنة فى مصر أن يعرض الرجل عن الزواج اذا بلغ سنا مناسبة ولم يكن هناك مانع يمنعه منه .. بل قد يسىء اعراضه ذاك الى سمعته .. ولما كنت أنا نفسى واقعا فى ذلك الاثم فقد قاسيت كثيرا من المضايقات والمتاعب أثناء زيارتى الأولى والثانية لهذه البلاد وتعرضت للوم والتأنيب .. ففى خلال زيارتى الأولى استدعت الظروف أن أنتقل من منزل قضيت فيه بضعة أشهر كان يقع فى شارع كبير عام واستأجرت منزلا آخر فى حى مجاور وكتبنا عقد الايجار ودفعت بعض الأجر مقدما .. ولكن بعد مضى يوم أو يومين جاءنى وكيل صاحب البيت وأخبرنى أن سكان الحى الذين كان معظمهم من الأشراف يعترضون على اقامتى بينهم لأنى لست متزوجا .. ثم أضاف قوله انهم يوافقون بكل سرور اذا أنا تزوجت أو اشتريت جارية تعفينى من ذلك الخزى الذى يوقعنى فيه عدم زواجى .. فقلت له ان اقامتى فى مصر اقامة مؤقتة ولذلك لا أحب أن أتخذ لنفسى زوجة أو جارية سأهجرها عما قريب .. ولكنه رد الى النقود وفسخ عقد الايجار .. وقد سبق أن ذكرت أن الرجل الذى لا زوجة له ولا جارية يضطر الى السكنى فى وكالة الا اذا كان له أقرباء فيسكن معهم ..

والفتيات المصريات ينضجن قبل مثيلاتهن فى البلاد الباردة ، وكثيرا منهن يتزوجن فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وبعضهن يتزوجن فى سن العاشرة ، ولكن هذه حالات نادرة الحدوث وقلما تبقى الفتاة دون زواج بعد سن السادسة عشرة .. وقد تصبح الفتاة المصرية أما فى سن الثالثة عشرة أو قبل هذه السن ، وهى فى العادة كثيرة الذرية على حين أن المرأة الأجنبية التى تعيش فى مصر كثيرا ما تكون عقيما .. وقلما يعيش أطفال الاجانب الذين يولدون فى مصر حتى ولو كانت الأم مصرية ..

ويتم الزواج فى العاصمة دون احتفال كبير اذا كانت العروس أرملة أو مطلقة .. أما اذا كانت العروس بكرا فيتم الزواج بالطريقة الآتية : تصف أم الشاب الذى يريد الزواج أو احدى قريباته محاسن من تعرفهن من الفتيات وتوعز اليه بمن يختارها منهن .. أو يكلف الشاب خاطبة أو اثنتين أو ثلاثة بالبحث له عن عروس .. وتحمل اليه الخاطبة تقريرها .. فهذه كالغزال حلوة رشيقة صغيرة .. وتلك ليست جميلة ولكنها غنية .. الى غير ذلك من صفات .. واذا كان للشاب أم أو قريبات تصحب أمه اثنتين أو ثلاثة من قريباتها ويذهبن جميعا مع الخاطبة الى حريم البيوت المتعددة التى تدخلها بحكم عملها كواسطة لعقد الزواج علاوة على أنها فى بعض الأحيان تعمل « دلالة » فتبيع الحلى والأقمشة وبذلك تتاح لها فرصة الدخول الى كل حريم تقريبا .. وهن يدخلن معها البيوت بحجة أنهن قدمن لمجرد الزيارة وذلك حتى يستطعن الانسحاب اذا لم تعجبهن الفتيات المعروضات للزواج .. أما اذا أعجبتهن واحدة توفرت فيها الصفات التى يطلبنها فانهن يصرحن بالغرض من الزيارة فاذا وافق أهلها على الزواج يسألنهم عما تملكه الفتاة من مال أو عقار أو مجوهرات .. حتى اذا فرغن من السؤال عن كل ما يعن لهن رجعن بتقاريرهن الى الشاب الذى ينتظر عودتهن .. فاذا كان التقرير مرضيا أعطى الخاطبة هدية ، ثم يبعث بها مرة أخرى الى أهل عروسه المقبلة لكى تنقل رغباته اليهم .. وتعود اليهم الخاطبة فتحدثهم عن ثروة العريس وممتلكاته وتصف لهم حسنه وملاحته فتغالى فى الوصف اذ تلك عادتها .. فمثلا اذا كان العريس رجلا عاديا لا يميزه حسن ولا مال ، ولا تعرف عن طباعه وأخلاقه شيئا ، فانها تصفه للعروس المقبلة فتقول : ان الرجل الذى يبغى الزواج منك يا بنيتى شاب صغير السن رشيق القامة حليق الذقن كثير المال حسن الهندام يحب اللذائذ والطيبات ولا يريد أن يستمتع بها وحده ، وانما يريدك أن تشاركيه اياها .. وكل ما يمكن أن يشترى بالمال سيكون بين يديك .. وهو رجل يحب البقاء فى بيته ، وسيكون دائما الى جانبك يلاطفك ويداعبك ..

والفتاة القاصر يزوجها والداها من الرجل الذى يختارانه دون أخذ

رأيها .. وحينذاك تبذل الخاطبة وقريباتها الجهود لاقناعها بقبول العريس الذى اختاره أبواها .. أما الفتاة البالغة فلها الحق فى إختيار زوجها وتوكل عنها من يقوم بعقد القران واجراءات الزواج .. وكثيرا ما يرفض الوالد تزويج ابنته من رجل ليس من حرفته أو تجارته ، أو يزوج الابنة الصغرى قبل أختها التى تكبرها سنا .. ولا يتاح للعريس أن يرى وجه عروسه الا بعد أن تصبح فى حوزته .. أما اذا كانت العروس من طبقة العامة فمن اليسير عليه أن يرى وجهها .

وللعروس وكيل يقوم بالاتفاق مع العريس وأهله ويبرم معهم عقد الزواج .. فاذا كانت الفتاة قاصرا كان أبوها هو وكيلها فاذا لم يكن أبوها على قيد الحياة يكون وكيلها أقرب أهلها من الذكور أو الوصى عليها أو رجل يعينه القاضى .. أما الفتاة البالغة فهى التى تختار وكيلها أو تقوم بابرام العقد بنفسها ، وان كان ذلك نادر الحدوث ..

وبعد أن يقع اختيار الفتى على العروس التى انتقتها له الخاطبة أو أهله ويتم الاتفاق بين النساء فى الحريم يذهب هو واثنان أو ثلاثة من أصدقائه الى وكيل العروس فيحصل على موافقته على الزواج ان كانت الفتاة قاصرا .. ثم يسأل عن المهر .. والمهر شىء لابد منه، وهم يحسبونه بالريال .. والريال تسعون فضة وليس له وجود كعملة .. ويبلغ المهر نحو ألف ريال اذا كانت الاسرتان متوسطتى الدخل ، أو نصف هذا المبلغ .. أما الأغنياء فيحسبون المهر بالأكياس والكيس خمسمائة قرش فيجعلونه عشرة أكياس أو تزيد .. وهو مهر العروس البكر .. أما مهر العروس اذا كانت أرملة أو مطلقة فيقل عن ذلك كثيرا .. وعند الاتفاق على المهر ، تحدث ــ كما هو الحال عند عقد صفقات مالية .. مساومة بين الطرفين .. فاذا طلب وكيل العروس ألف ريال يعرض أهل العريس ستمائة ثم ينقص أهل العروس المبلغ تدريجيا ويزيد عليه أهل العريس حتى تصل فى النهاية الى ثمانمائة ريال .. ويشترط فى العادة أن يدفع العريس ثلثى الصداق قبل كتابة العقد مباشرة . أما الثلث الباقى فهو مؤخر الصداق الذى يدفع للزوجة فى حالة طلاقها دون رغبتها أو فى حالة وفاة زوجها ..

فاذا انتهى الطرفان الى الاتفاق على المهر يقرأ الحاضرون الفاتحة

تأكيدا للاتفاق ويحدد يوم قريب قد يكون غد اليوم التالى لدفع المهر وكتب الكتاب ، أو بتعبير أصح « عقد النكاح » .. ويعتقد المصريون أن الزواج الذى يعقد فى شهر محرم سرعان ما يفشل وتنفصم عراه .. ولذلك لا يتزوج فى هذا الشهر الا القليلون .. أما أنسب الشهور للزواج فهو شهر شوال ..

وفى اليوم المحدد لكتب الكتاب يتوجه العريس قبيل الظهيرة فى صحبة اثنين أو ثلاثة من أصدقائه الى بيت العروس يحمل معه مقدم الصداق الذى تم الاتفاق عليه فيستقبلهم وكيل العروس ومعه اثنان أو أكثر من أصدقائه اذ لابد أن يشهد كتابة العقد شاهدان من المسلمين الا اذا تعذر احضارهما فى ظروف معينة .. ويقرأ الحاضرون جميعا الفاتحة ثم يدفع العريس المهر وبعد ذلك يتم « عقد النكاح » بطريقة بسيطة .. فيجلس العريس ووكيل العروس على الأرض وجها لوجه ، ويمسك كل منهما اليد اليمنى للآخر . بحيث يكون الابهامان مرفوعين متلاصقين .. ثم يضع « الفقى » فوق يديهما المتشابكتين منديلا يغطيهما ويبدأ العقد بخطبة تتخللها أحاديث وآيات قرآنية عن فضائل الزواج وفوائده .. ثم يأخذ الفقى تلقين كل من العريس ووكيل العروس عبارات يرددها كل منهما وراءه . فيقول لوكيل العريس : زوجتك ابنتى (أو موكلتى) فلانة البكر (١) على صداق قدره كذا .. ويردد وكيل العريس القول وراءه .. ثم يقول للعريس : وأنا قبلت زواجها لنفسى وضمها الى كنفى وأتعهد بأن أبسط عليها حمايتى وليشهد الحاضرون على ما أقول .. ثم يردد العريس ذلك القول .. ويكرر كل من وكيل العروس والعريس قولهما ثلاث مرات ثم يقولان فى النهاية : وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . آمين .. ثم يقرأ الحاضرون الفاتحة مرة أخرى .. ويوزع الشربات على المدعوين ويعطى أهل العروس كلا منهم منديلا مطرزا .. أما « الفقى » فيأخذ منديله من العريس وقد ربطت فيه قطعة نقود ذهبية صغيرة .. ويبقى المدعوون لتناول طعام الغداء وقبل أن ينفض جمعهم يتفقون على

(١) ان لم تكن بكرا يقول الثيب .

موعد « ليلة الدخلة » وهى الليلة التى تذهب فيها العروس الى بيت زوجها .. وهناك يراها لأول مرة ..

ويتم الزواج عادة بعد ثمانية أو عشرة أيام من كتب الكتاب .. وفى خلال هذه المدة يبعث العريس الى عروسه بالفاكهة والحلوى وما اليها مرتين أو ثلاث مرات أو أكثر من ذلك .. وقد يبعث اليها بشال أو بهدية أخرى ثمينة .. أما أهل العروس فهم مشغولون فى هذه الفترة بشراء الجهاز من ديوان وحصير وسجاد وأدوات المطبخ والثياب والمجوهرات .. وينفقون فى كل ذلك ما دفعـــــه العريس ويزيدون عليه ضعفه من مالهم .. والجهاز كله ملك للعروس وليس صحيحا ما يقال من أن المرأة هنا تشترى كما تشترى السلعة مادام كل ما دفعه العريس قد أصبح ماكا لها .. ويحمل الجهاز الى بيت العريس طابور من الجمال .. وكثيرا ما يكون من بين الجهاز كرسى خاص للعمامة .. وهو كرسى كبير مصنوع من الخيزران وله مظلة فى بعض الأحيان .. وتوضع عليه العمامة مغطاة بغطاء من الحرير السميك محلى بخيوط من الذهب .. وقد تبعث العروس بكرسيين أحدهما لعمامة الزوج والآخر لعمامتها ..

وتحدد ليلة الدخلة بحيث تكون ليلة الجمعة أو ليلة الاثنين .. وتعد ليلة الجمعة أكبر بركة .. فلنفرض أن ليلة الدخلة ستكون ليلة الجمعة .. هذا هو الشارع أو الحى الذى يسكن فيه العريس يضاء طوال الليالى الثلاثة التى تســـــبقها بالنجف والفوانيس أو بالفوانيس والقناديل الصغيرة ، ويزدان بالأعلام الحـــــريرية ذات اللونين الأحمر والأخضر .. وتقام الولائم فى تلك الليالى وفى الليلة التى تسبق « الفرح » — على وجه خاص — ويرسل المدعوون من معارف وأصدقاء الهدايا الى بيت العريس قبل ليلة الدخلة بيـــوم أو يومين فيرسلون السكر والبن والأرز والشموع موضوعة كلها فوق صينية من النحاس الأحمر والخشب ومغطاة بمنديل من حرير أو منديل مطرز .. وفى تلك الولائم تعزف الموسيقى ويغنى المغنـــون والمغنيات ، وترقص الراقصات ، وقد يقام ذكر أو ختمة يتلى فيها القرآن كله ..

وبعد كتب الكتاب بيوم أو يومين يعطى أصحاب الفرح اذا كانوا

من الأغنياء ، لكل من الخاطبة والداية والبلانة والدادة قطعة من القماش المذهب أو شالا من الكشمير أو قطعة من الحرير المخطط كذلك الذى يصنع منه البلك والشنتيان فتضـــعها كل منهن فوق الكتف الأيسر وتشبك طرفيها فوق الجنب الأيمن .. ثم يركبن الحمير ويسير أمامهن رجلان أو أكثر يدقون الطبـــول .. ويطفن ببيوت صديقات العروس فيدعونهن الى مرافقة العروس الى الحمام والاشتراك فى الزفة التى تقام لهذا الغرض .. وفى كل بيت من هذه البيوت تقام لهن وليمة اذ أنهن يخطرن أهلها بزيارتهن فى اليـــوم السابق .. وهؤلاء النسوة يسمون « مدنات » أو على الأصح « مدهنات » .. وقد رأيتهن فى بعض الأحيان يسرن على أقدامهن لا يصحبهن الطبالون ، وقد استعضن عن الطبول بالزغاريد يطلقنها عالية فى الفضاء ..

وفى يوم الأربعاء الذى يسبق ليلة الدخلة ، أو يوم السبت اذا كان الفرح يقام ليلة الاثنين ، تذهب العروس وقت الظهيرة أو بعـــدها بقليل فى موكب الى الحمام .. ويسمى الموكب « زفة الحمام » .. ويسير فى طليعة الزفة جماعة من الموسيقيين بالمزمار والطبـــول المختلفة .. وكما ذكرنا من قبل يعمد بعض الناس الى الاستفادة من زفة الحمام فيشركون فيها ابنهم « المطاهر » قبل عملية الختـــان توفيرا للنفقات .. وفى هذه الحالة يسير المطاهر والمحيطون به خلف جماعة الموسيقيين كما سبق أن وصفنا .. وفى بعض الأحيان يسير فى مقدمة موكب العروس رجلان يحمل كل منهما صينية مســـتديرة عليها الملابس والأدوات التى تستعملها العروس فى الحمام .. وكل صينية مغطاة بغطاء من حرير مطرز أو غير مطـــرز ، كما يسير « السقا » الذى يسقى كل من سأله من المارة ماء .. ثم يسير رجلان آخران يحمل أحدهما قمقما من الفضة أو الفضة المذهبة أو الخزف يحوى ماء الورد أو ماء الزهر ، الذى ينثره على المـــارة بين الحين والحين .. ويحمل الآخر مبخرة من الفضة ينبعث منها أريج مادة عطرة .. ولكن يندر أن يسير الموكب بهذا النظام .. والشـــائع أن تسير فى الطليعة قريبات العروس وصديقـــاتها المتزوجات اثنتين اثنتين ، وهن يرتدين الحبرة من الحرير الاسود .. ومن ورائهن العذارى منهن يلبسن الحبرة البيضاء او الشـــال .. وخلف كل

هؤلاء تسير العروس تظلها مظلة من الحرير زاهية اللون كأن تكون قرنفلية .. أو وردية اللون .. أو صفراء ، أو مخططة بخطوط عريضة من لونين هما فى الغالب اللون الوردى والأصفر .. ويحمل المظلة أربعة رجال ، يمسك كل منهم بعمود من أعمدتها الأربعة .. وليس للمظلة الا فتحة واحدة من الامام .. وينتهى كل عمود من هذه الأعمدة بمنديل مطرز معقود حول قمته .. وتلبس العروس فوق رأسها قلنسوة أو تاج من الورق المقوى .. والرداء الذى ترتديه أثناء سيرها فى هذا الموكب يحجبها تماما .. ويغطيها من قمة الرأس الى أخمص القدم شال من الكشمير أحمر اللون يخفى عن أعين الناس ملابسها الثمينة ووجهها وحليها فلا يبدو من هذه سوى القصة (١) من الماس والزمرد التى تلبسها فوق الشال فى الموضع الذى يغطى الجبهة .. ويسير الى جوارها تحت المظلة اثنتان أو ثلاثة من قريباتها .. فاذا كان اليوم قائظا تسير احدى النسوة أمام العروس وظهرها الى الطريق تروح لها بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود مزينة بمرآة فى الجزء الأسفل من سطحها الأمامى .. وقد يحدث أن تسير تحت المظلة عروستان فى زفة واحدة جنبا الى جنب .. ويسير الموكب فى بطء شديد فى طريق كثير المنعطفات ، حتى يراه اكبر عدد من الناس .. وحين تخرج الزفة من البيت تنعطف ناحية اليمين .. وفى نهاية الموكب تسير جماعة أخرى من الموسيقيين مثل الجماعة التى تسير فى طليعتها .. أو قد يسير اثنان أو ثلاثة من الطبالين ..

وزفة العروس عند الطبقة الفقيرة مثل تلك التى وصفناها بيد أن النسوة فيها يظللن يطلقن الزغاريد بين الحين والحين .. وتشترك فى اطلاقها أيضا المتفرجات من طبقة العامة اللاتى يمر بهن الموكب ..

وقد يؤجر الحمام كله للعروس وأهلها .. وهناك يمكثن ساعات طويلة يلهون ويغتسلن ويأكلن ، ويستمعن الى غناء العوالم اللاتى

(١) القصة بضم القاف حلية من الذهب المرصع بالماس أو الزمرد والياقوت واللؤلؤ تتدلى منها فروع من الماس والزمرد وغيره . وتلبسها المرأة فوق الربطة من الامام وتشبك بمشابك صغيرة عند مؤخرة الرأس . وتلبسها العروس فوق الشال كما تلبس ايضا القرص .

كثيرا ما يؤتى بهن للترفيه عنهن وتسليتهن أثناء الاستحمام .. وفى النهاية يعود الموكب كما بدأ .. ويدفع أهل العروس نفقات الزفة ، أما الوليمة التى تعقبها فيدفع العريس نفقاتها ..

وبعد الحمام ، تعود العروس الى بيتها فتتناول العشـــاء مع رفيقاتها وتستأنف العوالم اللاتى صحبنها الى الحمام غناءهن ، وتدور أغانيهن دائما حول الحب والمناسبة السعيدة التى يحتفل بها .. حتى اذا انتهى الغناء يعجن مقدار كبير من « الحنة » ويؤتى بها فتأخذ منها العروس حفنة فى راحة يدها وتبدأ المدعوات فى دفع « النقوط » فتلصق كل واحدة منهن قطعة نقود ذهبية فى الحنة حتى اذا امتلأت بالنقود تكشطها العروس على حافة « الطشت » ثم تضع مقدارا آخر من الحناء فى يدها وتتلقى فيها نقوطا جديدا .. وهكذا .. حتى تنتهى المدعوات جميعا من دفع النقوط .. ثم تخضب يدا العروس وقدماها بالحناء وتربط بقطع من القماش حتى صباح اليوم التالى فتصبح مخضبة بلون أحمر برتقـــالى داكن .. وتحذو المدعوات حذو العروس فيخضبن أيديهن وأقدامهن بما تبقى من الحناء .. وتلك هى الليلة المعروفة بليلة الحنة ..

وفى اليوم التـــالى تذهب العروس الى بيت العريس فى موكب يعرف « بزفة العروسة » وتكتفى بعض الأسر بزفة العروســـة اقتصادا فى النفقات وتستغنى بها عن زفة الحمام فتذهب العروس اليه بدون موكب .. وزفة العروس تشبه زفة الحمام تماما .. وفى بعض الأحيان يسير أمام زفة العروس رجلان لا يلبسان من الثياب سوى السراويل وهما يتباريان بالسيوف .. أو يسير اثنان من الفلاحين يتباريان بالنبابيت .. واذا كانت العروس من أسرة ذات ثراء يشترك فى الزفة كل من يمتازون بالبراعة فى الألعاب التى تحتاج الى مهارة أو حيلة ، لأنهم يعلمون أن الأسرة سوف تجزل لهم العطاء .. ومن أبرع تلك الألعاب ما يقوم به الســـقا الذى يلقب « بالقيم » اذ أنه من أجل هذا اللقب الأجوف ، والعطاء الذى يناله من صاحب الفرح يحمل قربة ثقيلة الوزن مليئة بالرمل والماء ساعات طويلة لا يقوى عليها سائر السقايين ، دون أن يجلس ليستريح ، وانما يسمح له أن يستريح وهو قاعد القرفصاء .. وقد شاهدت

منذ عهد قريب زفة عروسة يسير فيها القيم .. وكان قد بدأ فى حمل قربة من الرمل والماء تزن حوالى مائتى رطل عند غروب شمس اليوم السابق للفرح ، وظل يحملها طوال الليل ، وطوال يوم الفرح وقبل الزفة .. ثم سار فى الزفة وهو لا يزال يحملها حتى غربت الشمس .. وحين احتفل السيد عمر نقيب الأشراف ، الذى كان له فضل تنصيب محمد على باشا على مصر ، بتزويج احدى بناته منذ نحو خمس وأربعين عاما ، سار أمام زفة العروس شاب قد أحدث شقا فى بطنه وأخرج منه جل أمعائه وحملها أمامه على صينية من الفضة ، حتى اذا انتهت الزفة أعاد أمعاءه الى مكانها من بطنه .. وقد ظل طريح الفراش عدة أيام حتى شفى من آثار هذا العمل الأحمق الذى يبعث على التقزز والاشمئزاز .. وفى هذه الزفة نفسها أغمد رجل السيف فى ذراعه أمام جموع المتفرجين ثم ربط الجرح ، دون أن ينزع منه السيف ، بعدد من المناديل كانت كلها مضرجة بالدم .. وهذه الوقائع كلها رواها لى شاهد عيان .. وقد يشترك فى الزفة أحد الحواة فيعرض حيله على المتفرجين .. ولكن أكثر ما تراه فى زفة العروس وأحيانا فى زفة المطاهر هم اللاعبون بالسيف أو النبابيت .. والزفة الفاخرة يسير فيها احيانا عدد من العربات تحمل كل منها جماعة ينتمون الى حرفة أو تجارة واحدة ، وكل جماعة يؤدون صنعتهم أو حرفتهم وهم سائرون فى الموكب .. وكل الحرف فى العاصمة ممثلة فى تلك الزفة فتجد فى احدى العربات جماعة يصنعون القهوة ويقدمون منها للمتفرجين .. وفى أخرى ترى الموسيقيين ، وفى ثالثة العوالم .. وفى مثل تلك الزفة تركب العروس عربة أوربية مغلقة أو تركب هى وبقية النساء الحمير ووراءهن ومن خلفهن الموسيقيون والمغنيات ..

وحين تصل العروس وأهلها الى بيت العريس تقام لهن وليمة تنصرف على أثرها صاحباتها ولا يبقى معها سوى أمها وأختها أو الأقربين من أهلها .. وكذلك البلانة .. وتسمى هذه الليلة « ليلة الدخلة » .

ويجلس العريس فى الدور الأرضى مع المدعوين من الرجال .. وقبل أن يحين وقت الغروب يذهب الى الحمام وهناك يبدل ملابسه

وقد يبدلها فى البيت ، وبعد عودته يتناول طعام العشاء مع جمع من أصدقائه ، ويظل معهم فى البيت الى ما قبل العشاء بقليل أو حتى الساعة الثالثة أو الرابعة مساء ثم يذهب كما هى العادة الى أحد المساجد المشهورة مثل مسجد الحسين حيث يصلى هناك .. واذا كان العريس شابا يافعا فانه يذهب الى المسجد فى زفة يسير فى طليعتها الموسيقيون بالطبول والمزمار ويصحبه جماعة من أصدقائه وعدة رجال يحملون المشاعل ، وتسير الزفة الى المسجد بخطى حثيثة وبغير نظام .. ويسير فى مؤخرتها موسيقيون آخرون بالطبل والمزمار أو بالطبول وحدها . ويرتدى العريس فى العادة قفطانا مخططا بخطوط حمراء وجبة حمراء ، ويلف عمامته بشال أحمر اللون .. ويسير الى جانبيه اثنان من أصدقائه يرتديان ملابسا كملابسه .. ثم تقام الصلاة ويعود بعدها الموكب ولكنه فى عودته يسير فى نظام وبخطى وئيدة اذ ليس من اللائق أن يتعجل العريس الذهاب الى عروسه .. ويسير فى المقدمة الموسيقيون واثنان من حاملى المشاعل ويتبع هؤلاء رجلان يحملان فيما بينهما عمودا موضوعا وضعا أفقيا على كتفيهما يتدلى منه ستون قنديلا أو تزيد ، فى أربع حلقات كل حلقة فوق الأخرى .. وهذه القناديل والمشاعل المتعددة ترسل ضوءا باهرا فى أنحاء الشوارع التى يمر بها الموكب وتعطيه مظهرا يبهر العيون ويأخذ بالألباب .. ثم يسير العريس وأصدقاؤه وأتباعه على شكل حلقة مستطيلة متجهين بوجوههم نحو الجزء الداخلى من الحلقة ، ويمسك كل منهم بيده شمعة أو أكثر وقد يمسكون « التمر حنه » أو غيرها من الأزهار .. أما العريس ورفيقاه على جانبيه فلا يحملون شيئا ، ويكون ثلاثتهم الجزء الأخير من الحلقة التى يسير فيها عشرون شخصا أو يزيدون .. وبين الحين والحين يقف الموكب بضع لحظات ثم يغنى أحد الواقفين فى الحلقة أغنية من أغانى الزفاف .. ويتوقف أثناء الغناء دق الطبول .. ثم تواصل الزفة سيرها وفى مؤخرتها جماعة أخرى من الموسيقيين .. وهذه هى زفة العريس الشائعة . . ولكن هناك زفة أخرى أكثر وقارا هى المعروفة بالزفة الساداتى أى زفة السادة من الناس فيخرج العريس فى جمع من أصحابه كما ذكرنا فى وصف الزفة السابقة ومن حوله وأمامه

يسير رجال يحملون المشاعل ۰۰ ولا يسير فيها موسيقيون وانما يأخذ مكانهم ستة أو ثمانية رجال يغنون عادة فى هذه المناسبات ويسمون « ولاد الليالى » ۰۰ ويذهب العريس وسط هذه الجموع الى المسجد ثم تعود الزفة الى البيت والعريس يتهاوى فى خطى وئيدة على حين يغنى « ولاد الليالى » موشحات فى مدح النبى ۰۰ حتى اذا وصل الموكب الى البيت يتلو هؤلاء الرجال بعضا من القرآن الواحد بعد الآخر ۰۰ ثم يقرأون جميعا الفاتحة ويغنى بعدها واحد منهم قصيدة فى مدح النبى ۰۰ ثم يعود الجميع الى غناء الموشحات ، حتى اذا انتهوا من ذلك كله يأخذون النقوط من العريس وصحبه ۰۰

وعلى أثر عودة العريس من المسجد يترك رفقاءه يدخنون ويستمتعون بشرب القهوة والشربات ويصعد الى العروس ۰۰ وهناك فى الطابق العلوى يجد أم العروس وأختها أو من تخلف معها من قريباتها ۰۰ ويجد العروس ومعها البلانة فى حجرة وحدهما ۰۰ واذا كان العريس شابا حديث السن فالواجب يقضى عليه هو وعروسه أن يظهرا قليلا من الحياء والخفر ، ولذلك يحمل العريس أحد أصدقائه ويصعد به بضع درجات الى الحريم ۰۰ ثم يدخل العريس الحجرة التى بها عروسه ويعطى البلانة هدية فتأخذها وتغادر الحجرة ۰۰ وتبقى العروس وحدها وقد غطت رأسها بشال ۰۰ وقبل أن يزيح العريس الشال لكى يرى وجهها يعطيها منحة من المال تسمى « حق كشف الوش » ۰۰ وتتمنع العروس وهو يحاول كشف الغطاء ، وقد تقاومه مقاومة عنيفة حتى تظهر له أنها ذات خفر وحياء ۰۰ ثم يزيح الغطاء عن وجهها وهو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ۰۰ ثم يحييها قائلا : ليلة مباركة أو « مبروك » فتجيبه اذا لم يخنق الخوف صوتها قائلة : الله يبارك فيك ۰۰ وحينذاك يرى العريس وجه عروسه للمرة الأولى فيراه فى الغالب كما توقعه أن يكون ۰۰ وتنطلق الزغاريد تملأ أرجاء البيت ۰۰ وينزل العريس الى أصحابه فيمكث معهم نحو ساعة وبعض ساعة ثم يعود الى عروسه ۰

هذه هى صورة لحفلات الزفاف فى مدينة القاهرة حين تكون العروس بكرا ۰۰ وتنتهى حفلة الزفاف ۰۰ وفى صبيحة ليلة الدخلة

يأتى الراقصون والغوازى فيرقصون أمام البيت أو فى فناء الدار ٠٠ ويعرف ذلك الاحتفال بـ « صبحية العروسة » ٠٠ ويأتى صديق العريس الذى حمله بالأمس الى الحريم فيأخذه فى جمع من أصدقائه الى نزهة فى الريف حيث يقضون النهار كله ويعرف ذلك «بالهروبه» ٠٠ وفى بعض الأحيان ينظم العريس بنفسه هذه الرحلة ويدفع بعضا من نفقاتها زادت عن مقدار النقوط الذى دفعه أصدقاؤه ، اذ أنهم فى العادة يدفعون نقوطا فى هذه المناسبة ، ويؤتى فى كثير من الأحيان بالموسيقيين والغوازى لاحياء هذا الحفل ٠٠ واذا كان العريس من طبقة العامة فانه يعود من الرحلة فى زفة يسير أمامها ثلاثة أو أربعة من الموسيقيين بالطبل والمزمار ويحف به أصدقاؤه وأتباعه يحمل كل منهم فى يده باقة من الزهر .. واذا كانت عودتهم بعد الغروب يشترك معهم فى الزفة رجال يحملون المشاعل والقناديل وغيرها ، كما يحمل أصدقاء العريس ـ علاوة على باقات الزهر ـ شموعا مضاءة ٠٠

وفى « يوم السبوع » أى بعد سبعة أيام من ليلة الدخلة تستقبل العروس قريباتها وصديقاتها فى الصباح وبعد الظهيرة ، وفى بعض الأحيان يستقبل العريس أيضا أصحابه فى المساء فيحتفى بهم ويقيم ختمه أو ذكرا ٠٠ وفى « يوم الاربعين » تذهب العروس فى صحبة جمع من صديقاتها الى الحمام ثم يعدن معها عند العصر فتقام لهن وليمة ينصرفن بعدها الى بيوتهن ٠٠ وقد يستقبل الزوج أيضا ضيوفه فى مساء ذلك اليوم ويقيم لهم « ختمة » أو ذكرا ٠٠

والزوج من ذوى اليسار يفضل عادة أن تقيم أمه معه هو وعروسه لكى تحافظ على زوجته وتحمى شرفها اذ هى بذلك تحمى شرفه أيضا ٠٠٠ ويقال ان هذا هو السبب فى تسمية أم الزوج « بالحماه » فهو اسم مشتق من الفعل « حمى » ٠٠٠ ويقال ان المرأة المصرية تميل الى خيانة زوجها والدس له والتآمر عليه ٠٠ وأخشى أن أقول انه اتهام ليس بظالم ٠٠ فالزوجة حين تقيم فى بيت أمها يدفع الزوج لها كل يوم نفقات اقامته هو وزوجته ٠٠ والمفروض فى هذه الحالة أن تقتصد الأم فى النفقات وأن تكون حريصة على حسن

سلوك ابنتها ابقاء على حياتها الزوجية ‥ ولكن يقال ان الأم تلقن ابنتها كثيرا من الخدع التى تعلمها كيف تستأثر بالسلطة من دونه ، وكيف تفرغ جيوبه وتستنزف ماله ‥ ولا يؤمن شر الحماة او يتقى خطرها حتى ولو كانت تقيم بعيدا عن ابنتها ولا تزورها الا لماما ... ولذلك يعد من الفطنة ودواعى الحذر أن يتزوج الرجل فتاة ليس لها أم أو قريبات من النســاء ‥ وبعض الأزواج يمنعون زوجاتهم من استقبال أحد من النساء فى بيوتهم الا اذا كان هؤلاء من قريبـات الزوج نفسه ‥ على أن هذه القيود الصارمة لا تطبق الا على عـــدد قليل من الزوجات ‥

وعلى الرغم من أن النساء يقمن فى جناح خاص بهن فانه لا يصـح القول انهن سجينات اذ أن لهن مطلق الحرية فى أن يخرجن ويقمن بالزيارات كما يستقبلن ضيوفهن من النساء كما يحلو لهن ‥ وأحد الأسباب التى تدفع الزوج الى تخصيص جناح فى البيت للنســاء هو حرصه على ألا يراهن الخدم أو غيرهم من الرجال دون أن يـكن محجبات ...

وقد ذكرت فى مكان آخر من هذا الكتاب أن أهم ما تعنى المـرأة المصرية باخفائه عن الأنظار هو رأسها ، ويليه فى الأهمية وجهها ، ثم جسمها ‥ فمثلا ترى المرأة التى تتشبث بالنقاب فلا تخلعه فى حضرة الرجل لاتجد غضاضة أو حرجا فى أن تكشف عن صدرها أو ساقها أمامه ‥ حقيقة أن معظم نساء الطبقة الفقيرة يخرجن الى الطريق سافرات ولـكنهن يفعلن ذلك اضطرارا لأنهن لا يملكن شراء برقع ولا يمـكن للواحدة منهن أن تغطى وجهها بطرف الطرحة اذا كانت تمسك بكلتا يديها شيئا تحمله على رأسها ‥

واذا حدث أن رأى رجل بطريق الصـــدفة امرأة وهى ســافرة الوجه أو حاسرة الرأس ولم يكن الرجل محرما عليهـــا فانها تسرع بوضع الطرحة على رأسها وهى تقول :
يا دهوتى ! أو : يا ندامتى ! ومع ذلك فان الدلال وحب الاغــراء كثيرا ما يدفعان المرأة الى الكشف عن وجهها للرجل وكأنها تفعل ذلك

عن غير قصد منها أو كأنها لا تراه ·· وقد تسعد الفرصة الرجل فيرى وجه امرأة تقف امام نافذة مفتوحة أو فوق سطح المنزل وهى لا تدرى حقا أن احدا يراها ·· وكثير من البيوت الصغيرة فى القاهرة لا يوجد بها مندرة لاستقبال الضيوف من الرجال ·· وحينذاك يصعد الضيف الى الطابق العلوى ويظل يقول وهو يصعد درجات السلم : دستور ·· أو يا ساتر ·· أو غيرها من العبارت ·· ويردد قوله هذا منذرا كل امرأة فى طريقه أن تختبىء أو تغطى وجهها بجزء من الطرحة فلا يبدو منه سوى احدى عينيها ·· على أن بعض المصريين لا يتمسكون كثيرا بالحجاب ·· ولى صديق يسمح لى برؤية أمه حين أذهب لزيارته وهى أرملة تبلغ الخمسين من عمرها ، ولكن نظرا لأنها سمينة ولا يبدو عليها الكبر فانها تدعى أنها فى الأربعين ·· وهى تأتى عادة الى باب الحجرة التى أجلس فيها فى الحريم ، اذ لا يوجد بالبيت مندرة للضيوف من الرجال ، وتقعد هناك على الأرض ، ولكنها لا تدخل الحجرة أبدا ··· ثم تكشف عن وجهها من آن لآخر وكأنها تفعل ذلك عن غير قصد ، فأرى عينيها المخططتين بالكحل الغزير ·· وهى لا تحاول أن تخفى زينتها وحليها من الماس والزمرد وغيره ، بل على العكس من ذلك تحاول أن تبديها ·· أما زوجته فلم يكن يسمح لى برؤيتها مطلقا ولكنه سمح لى مرة بالتحدث اليها أمامه فى الممر الذى يقع فى أعلى السلم ··

ولكن القيود التى تخضع لها المرأة المصرية أقل من تلك التى تكبل بها غيرها من النساء فى البلاد التابعة للامبراطورية العثمانية ·· ولذلك فان من المناظر المألوفة أن ترى نساء الطبقة الفقيرة يداعبن الرجال ويمزحن معهم فى الطريق العام علانية جهارا ·· وقد يخيل اليك أن نساء الطبقتين العالية والمتوسطة يشعرن بالظلم ويضقن ذرعا بحياة العزلة التى تفرض عليهن بين جدران الحريم، ولكن الأمر على العكس من ذلك اذ أن الزوجة التى تحب زوجها تنتابها الهواجس وتخالجها الظنون اذا منحها زوجها قدرا من الحرية أكثر مما تعودت منه ، فتحسب أنه قد بدأ يهملها وأن حبه لها قد أخذ يخبو ويفتر ·· وهى لذلك تحسد غيرها من النساء ممن يضيق عليهن أزواجهن ويتشددون فى مراقبتهن ··

وليس من الشائع أن يتزوج الرجل فى مصر أكثر من واحدة أو يكون له أكثر من محظية ٠٠ وهو وان كان يكتفى بزوجة واحدة الا أنه يستطيع أن يستبدلها بغيرها أنى شاء وأن يقول لها « أنت طالقة » فتنفذ مشيئته مهما كانت ظالمة ، وتخرج الزوجة الى بيت أهلها ٠٠ وهذا الطلاق دون وجه حق مصدر قلق عند كثير من النساء يعانين منه أكثر مما يعانين من المتاعب الأخرى التى يتعرضن لها ، اذ يقضى عليهن بحياة الحرمان والفاقة ٠٠ على أنه على العكس من ذلك قد يهيىء رغد العيش لامرأة تتوق الى حياة أفضل من تلك التى تحياها مع زوجها ٠٠

ولكى أوضح هذا الموضوع أذكر هنا قضية طلاق كان أحد معارفى شاهدا فيها ٠٠ فقد كان يجلس فى مقهى مع رجلين كان أحدهما ثائرا لأن امرأته قالت أو فعلت شيئا أغضبه فأخذ يقصه عليهما ٠٠ ثم ما لبث الزوج الغاضب أن أرسل فى طلب زوجته حتى اذا جاءت قال لها : أنت طالق بالثلاثة .. ثم خاطب الرجلين قائلا : أنتما يا اخوانى شاهدان على ذلك ٠٠ على أنه بعد وقت قصير ندم الرجل على فعلته وأراد أن يرد زوجته المطلقة ، ولكنها أبت أن تعود اليه ولجأت الى « شرع الله » ٠٠٠

ونظرت القضية أمام « المحكمة » فقررت المدعية أن المدعى عليه كان زوجا لها ثم ألقى عليها يمين الطلاق بالثلاثة ٠٠ وهو يريد الآن أن يردها ويعاشرها معاشرة الازواج مخالفا بذلك حكم الشريعة .. وأنكر المدعى عليه أنه طلقها فقال القاضى للمدعية : هل عندك شهود ؟ قالت : معى هنا شاهدان ٠٠ وكان هذان هما الرجلان اللذان كانا مع الزوج فى المقهى حين ألقى يمين الطلاق .. فسئل الرجلان أن يتقدما بشهادتهما ، فقررا أن المدعى عليه طلق زوجته بالثلاثة أمامهما ٠٠ وحينذاك أخذ المدعى عليه يؤكد أن تلك التى طلقها وهو فى المقهى كانت زوجة أخرى غير المدعية .. فقالت المرأة أنه ليس له زوجا غيرها ، وهنا قال لها القاضى انه من غير المعقول أن يخبرها زوجها بأن له زوجة ثانية ٠٠ ثم سأل القاضى الشاهدين عن اسم المرأة التى طلقها الرجل أمامهما فى المقهى ، فأجابا بأنهما لا يعرفان اسمها ٠٠ فسألهما اذا كانا يستطيعان أن يقسما أن المدعية هى

المرأة نفسها التى طلقها الرجل أمامهما ، فأجابا بأنهما لا يستطيعان أن يقسما على ذلك وهما لم يريا وجه المرأة ، اذ كانت محجبة ٠٠ وحينذاك رأى القاضى أن من الحكمة رفض الدعوى ، واضطرت المرأة أن تعود لزوجها ٠٠ ونقد كان فى استطاعة المرأة أن تطلب من الزوج أن يأتى للمحكمة بالزوجة الأخرى التى زعم أنها هى التى طلقها فى المقهى ، ولكن كان من السهل على الزوج أن يحضر أية امرأة تقوم بدور الزوجة الثانية دون حاجة الى تقديم وثيقة الزواج للمحكمة ، اذ أن الزواج فى مصر يعقد فى أغلب الأحيان دون وثيقة مكتوبة ، وفى بعض الاحيان دون شهود ..

ويمكنك أن تتصور الفساد الذى يحيق بالرجل والمرأة على السواء نتيجة سهولة الطلاق ٠٠ وهنا فى مصر يوجد عدد كبير من الرجال قد تزوجوا فى مدى عشر سنوات نحو عشرين أو ثلاثين زوجة أو أكثر ٠٠ كما أن هناك نساء لسن متقدمات فى السن قد صرن زوجات لاثنى عشر رجلا أو أكثر على التوالى ٠٠ وقد سمعت عن رجال اعتادوا أن يتخذوا زوجة جديدة فى كل شهر .. وللرجل الحق فى أن يفعل ذلك مهما كان دخله أو ما يمتلكه ضئيلا ٠٠ فهو يختار من بين نساء الطبقة الفقيرة أرملة حسناء أو امرأة مطلقة ترضاه زوجا اذا دفع لها صداقا قدره نحو عشرة شلنات ، حتى اذا طلقها ليس عليه الا أن يدفع لها ضعف هذا المبلغ تنفق منه على نفسها خلال فترة العدة .. ومن الانصاف أن نقول ان مثل هذا العمل يعد شائنا مخزيا ، وقليل من الآباء من الطبقة المتوسطة والعالية هم الذين يقبلون أن يزوجوا بناتهم لرجل قد طلق عدة زوجات ٠٠

وتعدد الزوجات له آثار بالغة الضرر على أخلاق الزوج والزوجات على السواء ٠٠ ويقال فى معرض الدفاع عنه انه يحول دون وقوع رذائل أكبر .. على أن تعدد الزوجات أقل حدوثا بين أفراد الطبقتين العالية والمتوسطة منه بين أفراد الطبقة الفقيرة ، كما أنه ليس كثير الحدوث فى هذه الطبقة الأخيرة ٠٠ وترى الرجل الفقير يتزوج اثنتين أو أكثر كلا منهما تنفق على نفسها من حرفة أو عمل تقوم به ٠٠ ولكن معظم أفراد الطبقة المتوسطة والراقية يحجمون عن الزواج

بأكثر من واحدة لأنهم يقدرون النفقات التى تحتاج اليها الزوجات ، والمتاعب التى تنجم عن تعددهن .. وقد يتزوج الرجل أكثر من واحدة اذا شاء سوء طالع زوجته أن تكون عقيما ، وهو يحبها ولا يقوى على طلاقها ، فيتزوج باخرى أملا فى أن تنجب له ذرية ، وقد يدفعه الغرض نفسه الى الزواج من ثالثة ورابعة .. ولكن تقلب العاطفة هو فى الغالب أكثر الدوافع وضوحا وشيوعا ، فهو الدافع الى تعدد الزوجات وكثرة الطلاق على حد سواء ٠٠ على أن الذين يشيعون عواطفهم المتقلبة عن طريق تعدد الزوجات قليلون نسبيا ، وأعتقد أن رجلا واحدا من كل عشرين هو الذى يجمع بين زوجتين ٠٠

واذا كان للرجل زوجتان أو أكثر ، تحتل الزوجة الأولى فى العادة المكانة الرفيعة بين نسائه ويطلق عليها اسم « الست الكبيرة » ٠٠ ولهذا كثيرا ما يحدث اذا أراد رجل متزوج أن يتزوج فتاة أخرى ألا يوافق أبوها أو الفتاة نفسها على الزواج الا اذا طلق الرجل زوجته .. والنساء بطبيعة الحال لا يؤيدن زواج الرجل بأكثر من واحدة ٠٠ ومعظم الرجال من ذوى اليسار ومتوسطى الحال ، بل ومن طبقة العامة ، ممن يتزوجون بأكثر من واحدة يقيمون لكل زوجة مسكنا خاصا ٠٠ وتسمى كل من الزوجات « ضرة » ٠٠ وكثيرا ما يتحدث الناس عن الشجار الذى يحدث بين الضرائر ، اذ من الطبيعى ألا يقوم وفاق بين زوجتين تقتسمان حب رجل واحد ٠٠ ويحتم الشرع على الرجل الذى يجمع بين زوجتين أو أكثر أن يعدل بين نسائه فى كل شىء ، ولكن قلما يستطيع الرجل أن يفعل ذلك ٠٠ واذا حدث أن كانت الزوجة الأولى عقيما ، وأنجبت له زوجته الثانية ذرية ، فان الزوج يقربها اليه ، ويدنيها منه ، وتصبح أثيرة لديه ، وتفقد الزوجة الأولى مكانتها عند زوجها ، وتحتل الأخرى مكانها فتصبح هى الست الكبيرة ، وتعاملها الزوجة الأولى وكل نساء الحريم والضيوف من النساء اللاتى يزرنها بالاحترام الذى كانت تعامل به الزجة الأولى ٠٠

وبعض الزوجات يمتلكن جوارى يشترين لهن أو يقدمن لهن هدية قبل الزواج ٠٠ ولا يستطيع الزوج أو يتخذ من احداهن سرية له الا

بموافقة زوجته ، وهى أحيانا توافق على ذلك كما وافقت سارة على زواج النبى ابراهيم من جاريتها هاجر ٠٠ ولكن ذلك نادر الحدوث ، فالزوجة فى كثير من الأحيان تحرم على جواريها أن يكشفن عن وجوههن أمام زوجها .. والجوارى البيض يمتلكهن الأغنياء من الأتراك ويمتلك المصريون من الطبقتين العالية والمتوسطة جوارى حبشيات ٠٠

والى جانب الجوارى والسرايا يوجد فى الحريم أيضا خادمات مصريات، وهؤلاء يقمن بالأعمال المنزلية الوضيعة ٠٠ وهن عادة يغطين وجوههن فى حضرة سيدهن بطرف الطرحة ، فلا يظهر منهن سوى عين واحدة ينظرن بها ، ويد واحدة يعملن بها ٠٠ واذا أتى الى سيد الدار ضيف فصعد الى احدى حجرات الحريم تنتقل النساء حينئذ الى حجرة أخرى ، وتقوم احدى هؤلاء الخادمات على خدمة الضيف وهى دائما محجبة ٠٠

هؤلاء هن نساء الحريم على اختلاف درجاتهن من زوجات وسرايا وجوارى وخادمات .. وسأحدثك الآن عن عاداتهن والاعمال التى يقمن بها ٠٠

تقوم زوجة سيد الدار والجوارى على خدمته حين يتناول غداءه أو عشاءه ٠٠ أو حين يدخن أو يشرب قهوته فى الحريم ، ولا يسمح لهن بمشاطرته الطعام ، بل يخدمن كأنهن أجيرات فيملأن له غليونه ويشعلنه ، ويصنعن له قهوته ، ويعددن له طعامه ٠٠ واذا كان لى أن أحكم عليهن مما خبرته بنفسى فاننى أقول ان معظمهن طاهيات ماهرات ٠٠ فكل طعام يقدمه لى أحد أصدقائى على أنه من اعداد زوجته أجده طعاما شهيا جيد الصنع ٠٠ وتتعلم الزوجات من الطبقتين العالية والمتوسطة كيف يرضين أزواجهن ويسلبن لبهم بطرق عديدة وأفانين شتى ، ويظهرن الدلال فى كل شىء حتى فى مشيتهن العادية حين يخرجن الى الطريق فتتثنى أجسامهن بطريقة عجيبة ٠٠ على أن وجود الزوج فى البيت يحد من حريتهن ، ولذلك فهن يفرحن حين لا يكثر من مجيئه الى الحريم أثناء النهار أو لا تطول اقامته بينهن ، اذ أنهن ينطلقن فى مرح ولهو كله ضوضاء وضجيج ٠٠

ولا يعد التدخين شيئا يشين المرأة مهما علا قدرها ٠٠ ويسمح

للكثيرات منهن بأن يستمتعن به ، اذ أن النوع الجيد من التبغ الذى يستعمل فى مصر له رائحة طيبة ٠٠ والغليون الذى تستعمله المرأة أرشق من غليون الرجل ، ويركب المبسم فى بعض أجزائه من المرجان بدلا من الكهرمان .. وتستعمل النساء العطور كالمسك وغيره ، ومساحيق التجميل ، كما يتعاطين مستحضرات تلسمنة يأكلنها أو يشربنها حتى يبلغن من امتلاء الجسم الدرجة المرغوب فيها ٠٠ وأحد هذه المستحضرات يبعث على التقزز والاشمئزاز ، اذ هو عبارة عن خنافس مهروسة ٠٠ هذا مع أن المصريين بوجه عام ، على العكس من المغاربة وغيرهم من شعوب افريقيا والشرق ٠٠ لا تعجبهم المرأة المفرطة فى السمنة ، وفى أغانى الحب التى يتغنى بها الرجل المصرى يصف حبيبته بأنها «هيفاء القوام نحيلة الخصر» ومن عادة كثير من النساء أن يمضغن اللبان واللادن ، اذ أنه يجعل أنفاسهن عطرة ٠٠ كما أن عادة الوضوء تكسبهن نظافة فى الجسم ٠٠ والمرأة المصرية لا تستغرق وقتا طويلا فى التزين وقلما تستبدل ملابسها أثناء النهار ، وهى تضفر شعرها فى الحمام وتتركه مضفرا لبضعة أيام ٠٠

وأول واجبات المرأة فى مصر هو العناية بأطفالها ، كما أن عليها واجب الاشراف على الأعمال المنزلية ٠٠ وفى معظم الأسر يتولى الزوج وحده مهمة الانفاق على البيت ٠٠ وتقضى المرأة أوقات الفراغ فى شغل الابرة ، وبخاصة تطريز المناديل والطرح وغيرها ، على المنسج بخيوط من الحرير الملون والمذهب ٠٠ وكثير من النساء — حتى من ينتمين منهن الى الأسر الغنية — يكسبن الكثير من المال بهذه الطريقة ، ويعطين ما يطرزونه من مناديل وغيرها الى الدلالة لتبيعها فى السوق أو فى حريم البيوت الأخرى ٠٠

وحين تزور نساء الحريم حريم بيت آخر تستغرق الزيارة النهار كله فيأكلن ويدخن ويشربن القهوة والشربات ويثرثرن ويستعرضن حليهن وزينتهن ، وفى هذا كله ترفيه وتسلية لهن .. وفى أثناء هذه الزيارات لا يسمح لصاحب البيت أن يدخل الى الحريم مطلقا الا اذا دعاه داع من العمل لا يستطيع له دفعا ٠٠ وحينذاك يخطر من بالدار قبل قدومه ، ويمهل الزائرات من الوقت ما يكفى لكى يحجبن وجوههن

أو يدخلن الى حجرة مجاورة .. واطمئنان النساء الى عدم حضور الزوج دون سابق انذار ، وطبيعتهن المرحة المنطلقة غير المتحفظة تجعلهن ينغمسن فى لهو ومرح هو فى كثير من الأحيان كمرح الصغار . وحين يفرغن ما فى جعبتهن من أحاديث تقص عليهن احداهن قصة غريبة أو حكاية مضحكة .. والنساء فى مصر قلما يتعلمن أصول الموسيقى أو الرقص ، ولكنهن مع ذلك يجدن متعة بالغة فى الاستماع لغناء المغنين ومشاهدة الراقصات .. واذا لم يتيسر احضار هؤلاء الى الحريم فانهن يسلين أنفسهن ويرفهن عن ضيوفهن بالضرب على الدربكة والطار .. ولكن قلما يفعلن ذلك اذا كان موقع البيت يجعل الغناء والطبل مسموعين فى الشارع .. ومن بواعث تسليتهن أيضا « العوالم » اللاتى يؤتى بهن فى حفلات « سبوع » المولود أو الختان أو الزواج أو غيرها من الحفلات ، وان كانت العوالم لا يدخلن حريم الأسر المحترمة الا فى هذه المناسبات .. والغوازى اللاتى يرقصن فى الشوارع سافرات لا يسمح لهن بدخول البيت ، بل يرقصن فى هذه الاحتفالات أمام البيت أو فى فناء الدار ، ولو أن كثيرين من الناس يعتبرون ذلك عملا معيبا .. أما « الألاتية » فهؤلاء يؤتى بهم الى البيت لتسلية الرجال لا النساء ، ولكن تستطيع النساء أن يسمعن غناءهم بوضوح وهن فى الحريم ..

وحين تخرج نساء الطبقة العالية أو المتوسطة للزيارة أو لغرض آخر ، يركبن الحمير ، ويوضع على الحمار سرج مرتفع عريض مغطى بسجادة صغيرة .. ويسير الى جانب كل سيدة أحد الخدم ، وقد يسير خادمان على جانبى الحمار .. وتخرج نساء الحريم عادة كلهن معا ، تركب كل واحدة حمارها ويسير الحمار خلف الحمار ، فيصبح منظرهن فريدا فى نوعه .. وتبدو المرأة وهى جالسة فوق « الحمار العالى » وكأنها توشك أن تقع .. ويسمى الحمار العالى لارتفاع السرج الذى يوضع فوقه كما يسمى أيضا « حمار مغطى » .. ولكن المرأة لا تقع اذ أن الحمار ثابت القدم وسرجه محكم الرباط .. ويسير الحمار العالى متئدا فى مشية الرهوان .. وهذه الحمير تكرى فى العادة ، فاذا تعذر على سيدة أن تكرى « حمارا عاليا » فانها تركب أحد الحمير التى يركبها

الرجال وتفرش لها سجادة فوق السرج .. ولـكن قلما ترى نساء هاتين الطبقتين راكبات خيلا أو بغالا .. ولا تذهب السـيدات الى مكان ما سـيرا على الأقدام أبدا ، الا أن يكون ذلك المكان قريبا من البيت كل القرب .. وهن حين يمشـين يمسـكن بطرفى الطـرحة من الأمام .. ومشيتهن بطيئـة متثاقلة ، اذ يلاقين صعوبة فى تثبيت « انبابوج » فى أقدامهن .. وسـواء خرجت السيدات الى الطريق سائرات على الأقدام أو ممتطيات ظهور الحمير فانهن دائما موضع التبجيل والاحترام .. والرجل المهذب لا يحدق فيهن ، بل يغض طرفه .. ولا ترى السيدات يسرن فى الليـل أبدا الا اذا دعتهن الى الخروج أو الرجوع الى بيوتهن ليلا حاجة ملحة .. وقد جرت العادة أن يعدن من الزيارة قبل الغروب ..

ولا تذهب سيدات الطبقة الراقية الى الدكاكين أبدا ، بل يرسلن فى طلب ما يردنه أو يشترينه من الدلالات اللاتى يدخلن الى الحريم ومعهن أصـناف عديدة من الحلى والملابس وغيرها .. كما أن هؤلاء السيدات لا يذهبن الى الحمامات العامة الا اذا دعين للذهاب اليها مع بعض صـديقاتهن .. ذلك لأن بيوتهن تكون فى الغالب مزودة بالحمامات ..



حياة المعدمين

- النيـــل .. مصير الزوجات الخائنات
- البقرة التى جاد بها الباشا .. من مال غيره
- التدخين .. هو المتعة الوحيدة للفلاح

تتكون الطبقة الدنيا فى مصر ـ فيما عدا جزء ضئيل من سكان المدن الكبيرة ـ من الفلاحين .. ومعظم من يقيمون منهم فى المدن الكبيرة ، وقليل ممن يقيمون فى المدن الصغيرة والقرى هم من صغار التجار والصناع أو يعملون فى الخدمة فى البيوت وغير ذلك من أعمال .. وكسبهم جميعا يبلغ من الضآلة حدا لا يستطيعون معه الحصول على ضروريات الحياة لأنفسهم ولأسرهم ..

ويتكون طعام هؤلاء من الخبز المصنوع من الذرة أو الذرة العويجة، ومن اللبن والجبن والبيض والفسيخ والقثاء والبطيخ والقرع بأنواعه المختلفة ، والبصل والكراث والفول والترمس والعدس والبلح المجفف وغير المجفف والمخلل .. وهم يأكلون معظم الخضروات وهى فجة .. وكثير من الفلاحين يقطعون كيزان الذرة قبل تمام نضجها ثم يشوونها ويأكلونها .. والأرز غال ثمين لا يأكلونه .. واللحم عسير المنال قليلا ما يتذوقونه .. وليس لهم من وسائل الترف سوى متعة واحدة هى متعة تدخين التبغ الرخيص .. وكل أنواع الأطعمة التى ذكرناها رخيصة الرخص كله .. ومع ذلك فان كثيرا من الفقراء ليس لديهم من طعام يتبلغون به مع الخبز سوى « الدقة » التى وصفناها فى فصل سابق .. وانه لمما يثير العجب والدهشة أن يكون طعام الفلاحين على تلك الدرجة من الجدب والهزال وهم مع ذلك فى معظمهم أصحاء الأجسام أقوياء قادرون على أداء أشق الأعمال ..

ونساء الطبقة الفقيرة قلما يعرفن الفراغ بل ان بعضهن يشقين فى العمل أكثر مما يشقى الرجال .. وتقوم المرأة باعداد طعام زوجها وتملأ الجرار بالماء وتحملها الى الدار على رأسها ، وتغزل القطن والكتان والصوف وتصنع الوقود المعروف « بالجلة » وتلصقها على الأرض أو الجدران أو فوق سطح الدار لكى تجففها الشمس ثم تستعملها لاحماء الفرن وفى أغراض أخرى .. وهى أشد خضوعا لزوجها من نساء الطبقات الأخرى وقلما يسمح لها بالأكل مع زوجها .. واذا خرجت معه الى الطريق مشت خلفه ، واذا كان معهما شىء يحمل فهى التى تحمله الا اذا كان غليونا أو عصا فتلك يحملها الزوج .. وبعض النساء فى المدن لهن دكاكين يبعن فيها الخبز

والخضروات وما اليها ، وبذلك يشاركن الزوج فى الانفاق على الأسرة ان لم يقمن بنصيب أكبر فى ذلك السبيل .. واول ما يشغل بال الرجل الفقير اذا أراد الزواج هو المهر .. ويتراوح عادة بين عشرين ريالا وأربعة أمثال هذا المبلغ اذا دفع نقودا .. وهو اقل من ذلك اذا قدم معه بعض الملابس .. وقلما يتردد الرجل فى الزواج اذا استطاع أن يدفع المهر .. اذ أنه بمزيد من الجهد يستطيع أن يعول زوجة وطفلين أو ثلاثة .. وحين يبلغ الأطفال الخامسة أو السادسة يحرسون الغنم والأبقار ويصحبونها فى غدوها ورواحها ، فاذا كبروا عن ذلك ظلوا يعاونون أباهم فى فلاحة الأرض وزراعتها الى أن يتزوجوا .. ويعتمد الفقراء حين يتقدم بهم العمر على أبنائهم الاعتماد كله ، ولكن كثيرا منهم لا يجدون من يعولهم فى شيخوختهم فيلجأون الى التسول أو يموتون جوعا .. وقد حدث منذ وقت قصير أن وصل محمد على الى احدى القرى على ضفة النيل فى طريق عودته من الاسكندرية الى القاهرة فهرع اليه رجل فقير من أهل القرية وتشبث بكمه تشبثا عنيفا عجز معه أتباع الباشا أن ينحوه عنه .. وشكا الرجل من أنه كان فى رغد من العيش فأصبح معدما يعانى الفقر والفاقة فى شيخوخته بعد أن جند الباشا أبناءه جميعا فى الجيش .. فلما سمع الباشا ظلامته فرج كربته .. لا من ماله الخاص .. وانما أصدر أمره بأن على أغنى رجل فى القرية أن يعطيه بقرة يعيش منها !

وفى بعض الأحيان يصبح الأطفال عبئا ثقيلا على الأبوين الفقيرين وحينذاك يرى الأطفال وقد حملتهم أمهاتهم أو نسوة استأجرهم أبوهم ، وهم يعرضونهم للبيع .. بل كثيرا ما يحدث أن يرمى الفلاح الفقير بابنه فيما هو أشد من الرق وأنكى .. فى مقابل قدر من المال .. ذلك أنه حين يطلب للتجنيد عدد معين من شباب احدى القرى يعمد شيخ البلد الى طريقة لا تتطلب منه الا أقل الجهد لكى يجمع من يريد منهم .. وذلك بأن يأخذ أبناء الأغنياء من أهل القرية .. وفى تلك الحالة يلجأ الوالد الغنى الى أحد فقراء الفلاحين من أهل القرية فيقدم له مبلغا من المال يعادل جنيهين استرلينيين فى مقابل أن يقدم ابن الفلاح الفقير الى التجنيد بدلا من ابنه .. ويقبل الفلاح أن يفعل ذلك ، مدفوعا بفقره وشدة حاجته وذلك على

الرغم مما عـــرف عن حب المصريين لأبنائهم وكراهيتهم فراقهم ، وبخاصة اذا كانت الجندية هى مبعث الفراق .. تلك الكراهية التى تتجلى فيما يقدمون عليه من أعمال فى سبيل منع أبنائهم من الالتحاق بالجيش .. ففى خلال زيارتى الثانية لمصر لم تكن لتجد فى أية قرية من القرى شابا أو فتى لم تخلع من أسنانه سن أو اثنان ولم يقطع له أصبع أو تفقأ له عين .. وقد اتخذت العجائز من النساء وغيرهن من ذلك العمل حرفة يرتزقن منها فكن يتنقلن من قرية الى قرية ليخلعن سنا أو يقطعن يدا أو يفقأن عينا .. وكان الوالدان فى بعض الأحيان هما اللذان يقومان بتلك العمليات ..

وتسود شريعة الثأر أهل الريف وينشب القتال بين المتخاصمين وقد يظل مستعرا سنوات عديدة .. وقد تأخذ احدى القبائل تأرها من قبيلة أخرى بعد مرور قرن من الزمان تكون فيه الجريمة الأصلية قد عفا عليها الدهر ولا يكاد يذكرها من أفراد القبيلة اكثر من رجل واحد .. ومن هنا كان وجه الشبه بين الفلاحين فى مصر وبين أهل البـــدو ..

على أن هناك وجها آخر من أوجه الشبه .. فاذا خانت امــرأة من الفلاحين زوجها أخذها فربط حجرا فى عنقها ثم القاها فى النيل .. وقد يفعل بها ذلك أخوها بدلا من زوجها .. أو يقطعها اربا ثم يلقى بها فى النيل .. وكذلك يفعل الوالد أو الأخ بالفتاة التى تحمل سفاحا .. ومن لا ينتقم لعرضه على ذلك النحو ينظر الناس اليــه بعين الازدراء والتحقير ..



نظرة إلى الأخلاق

- فرش لى حبيبى فرش بالقصب!
- الجنازة حارة ٠٠ والميت كلب !
- عندما ينتصر ذكاء الطفيلى على طمع القاضى

من العسير أن نكون فكرة صادقة عن أخلاق المصريين المحدثين لأنها تتأثر بدرجة ملحوظة بتعـــاليم دينهم وقوانين بلادهم ، ونوع حكومهتم ، كما تتأثر بالمناخ وبعوامل أخـــرى كثيرة .. ومع ذلك نستطيع أن نقول ـ فى ثقة ـ أن المصريين قد وهبهم الله أكثر ممـا وهب شعوبا أخرى ، مواهب عقلية ممتـــازة أهمها سرعة الفهم وحضور البديهة وقوة الذاكرة .. وهم يملكون هذه القدرات وغيرها وهم فى سن الصبا حتى اذا شبوا وكبروا أخذت هذه القـــدرات تضعف تدريجيا بتأثير العوامل التى سبق ذكرها ..!

على أن أبرز صفاتهم الخلقية التى تسترعى النظر هى شـــدة اعتزازهم بدينهم .. وينظر الناس الى الرجل المتدين نظرة اكبـار واجلال .. وهذه الحقيقة نفسها تدفع بعض الناس الذين يريدون أن يتمتعوا بالاكبار والاجلال الى النفاق والرياء والتظاهر بالدين .. فترى الرجل اذا لم يكن مشغولا بعمـــــل أو بحديث يردد بعض العبارات الدينية فاذا خطر له خاطر سوء أو تذكر اثما اقترفه تنهد قائلا : أستغفر الله العظيم .. والبائع فى متجره اذا لم يكن مشغولا بالبيع أو لم يكن يدخن غليونه تراه يتلو القرآن بصـــوت مرتفع ، أو يتلو على السبحة الاستغفار والتسبيح الذى يقال عادة بعد الصلاة ، أو يصلى على مرأى من المـارة ..

ويجعل المسلمون الله عرضة لايمانهم دون أن يقصدوا بذلك الاستهتار بدينهم ، كما أنهم يحلفون بالنبى وبرأس أو لحية الشخص الذى يتحدثون اليه .. واذا قص أحد خبرا يثير دهشة السامع قال له هذا : والله ؟ فيجيب صاحب الخبر قائلا والله .. ومن عادتهم أنهم لا يأكلون طعاما ولا يشربون شرابا ولا يتعاطون دواء أو يخطون حرفا أو يأتون عملا تافها كان أم خطيرا الا بدأوه بقولهم : بسم الله الرحمن الرحيم ، حتى اذا فرغوا منه قالوا الحمد لله .. واذا عقد صفقة أو اتفقا على أمر فانهما يقـــرآن الفاتحة معـــا تأكيـــدا لذلك الاتفـــــاق .. واذا تنــــازع اثنـــــان أو اختلفـــا عــــلى رأى فان أحدهما أو شــــخصا ثالثـــا يقـــول كيمـا يفض النزاع بينهما ويذهب عنهما حدة الغضب : صلوا على النبى .. فيتمتم المتنازعان ومن يكون حاضرا غيرهما قائلين : اللهم صلى

عليه .. ثم تستمر المناقشة فيما كانا يتنازعان عليه ولكنها تكون فى العادة أقل حدة ويصبح المتنازعان أوسع صدرا للنقاش ..

وفى المجتمع المصرى حين يجلس قوم يتحدثون حديثا قد يكون فارغا وقد يكون أيضا اباحيا مكشوفا ، يدهشك أن تسمع بين آن وآخر اسم الله يتردد فى ثنايا الحديث العابث بطريقة تجعل من لا يعرف أخلاق المصريين يعتقد أنهم يتخذون دينهم هزوا ولعبا .. وبهذه الطريقة نفسها تجد اسم الله والنبى مقحمين فى أشد أغانيهم عبثا ورقاعة ، رغم أن ذلك الاقحام لا ينبىء عن كفر أو الحاد .. ولكنها العادة .. لقد تعودوا أن يذكروا اسم الله فى جدهم وعبثهم ويسبحونه ويثنون عليه كلما استحوذ على اعجابهم أو أثار دهشتهم شىء عظيم أو حقير .. ولقد سمعت أغنية لم يؤذ سمعى مثلها فى رخاوتها ورقاعتها .. وفيها يصف عاشق مستهتر شعوره حين وقعت عيناه على فتاة جميلة فيقول : سبحان من صورك يا بدر .. فهو يسبح الله .. ثم يمضى فيقذع فى وصف مغامرته الغرامية .. وقس على ذلك بقية أغانيهم .. وفيما يلى أغنية عن الحب والخمر تعد مثالا لخلط الاباحية بالدين فى الشعر العامى والشعر المنثور .. ولما كان من عادة المصريين استعمال ضمير المذكر فى أغانيهم العاطفية فى الوقت الذى يخاطبون فيه الأنثى فقد عمدت فى ترجمتى هذه الأغنية الى الانجليزية الى استعمال ضمير المؤنث بدلا من المذكر .. وهذه هى الأغنية :

جاد بالوصال رشيق القوام ، بعد بعاده ودلاله ، بست اسنانه وخده ورن الكاس فى ايده .. وفاح المسك والعنبر من اللى قوامه فاق غصن البان .. فرش لى حبيبى فرش بالقصب ، وقضيت الوقت فى هنا موصول ..

ودلوقت أطلب من الله مولاى ، يغفر لى ذنوبى وآثامى ، وكل اللى قاله قلبى .. دى أعضائى حتشهد على .. وكل ما يشتد كربى أنت يا ربى رجاى .. انت الكريم الغفور .. احفظنى يارب .. واعف عنى ..

واصلى على المخلوق الكريم ، اللى ضللت عليه الغمامة ، وحيشفع

لنا يوم القيامة .. وقد دخل على أحد أصدقائى وأنا أدون هذه الملاحظات ، فقرأت عليه هذه الفقرات من الأغنية وسألته هل يعتقد أنه من اللائق أن يجمع بين الدين والعربدة على هذه الصورة فأجاب قائلا : لا غضاضة مطلقا .. هذا رجل يحكى كيف اقترف اثما ثم يسأل الله العفو والمغفرة ويصلى على نبيه .. فقلت : ولكن هذه أغنية كتبت لكى يتغنى بها اناس يقترفون المنكر وما حرمه الله .. أنظر معى هنا .. اننى اذا أغلقت صفحات الكتاب هكذا فان الجزء منها الذى كتب فيه كيف ارتكب الرجل خطيئته سوف يلتصق وجها لوجه بذلك الذى كتب فيه اسم الله ، وبذلك يعلو ارتكاب الخطيئة على طلب المغفرة .. فأجاب صديقى قائلا : هذا هراء .. اقلب الكتاب فاجعل أسفله أعلاه من ذلك الجانب ، وحينذاك ينقلب الوضع فيصبح الاستغفار فوق الخطيئة ويعلو عليها .. والله تعالى يقول : قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ..

وهذا الرد الذى اجاب به صديقى يذكرنى بما لاحظته من أن غالبية العرب ـ وهم قوم ذوو طبيعة متناقضة ـ يخالفون فى كل يوم مبادىء شريعتهم ودينهم معتمدين على أن كلمتى « أستغفر الله » ستمحوان كل اساءة ..

ومع شدة اعتزاز المصريين بدينهم فانهم كثيرا ما يستشهدون بالآيات القرآنية فى معرض الفكاهة ، ولا يستثنى من ذلك أشد الناس استمساكا بدينهم .. ومن أمثلة ذلك أن رجلا سألنى أن أعطيه ساعة هدية فقال لى أحد الحاضرين متفكها : قل له « ان الساعة آتية لا ريب فيها » .

ورغم انى ألمس كل يوم دليلا جديدا على شدة تحمس المسلمين واعتزازهم بدينهم الا أننى كثيرا ما تساءلت عن السر فى انهم لا يحاولون مطلقا أن ينشروا دينهم عن طريق التبشير .. وقد ابديت هذه الملاحظة لكثير من الناس وسألتهم لم لا يفعلون كما كان أجدادهم يفعلون فى صدر الاسلام فينشرون دينهم كما نشروه .. فما كان جوابهم الا أن قالوا : وأى فائدة نجنيها من ضم ألف من الكافرين الى

حظيرة الاسلام .. ان هؤلاء لن يزيدوا عن عدد المؤمنين اطلاقا لأن عدد المؤمنين قد كتبه الله عنده وليس فى قدرة أحد من البشر أن يضيف الى ذلك العدد أو ينقص منه ..

ويوقر المسلمون نبيهم توقيرا يبلغ حد التقديس . ومنهم من لا يؤتون عملا لم يؤثر عن الرسول أنه أتاه ولا يأكلون طعاما أثر عنه أنه لم يأكله .. كذلك يقدس المسلمون القرآن تقديسا عجيبا فهم يضعون المصحف فى مكان مرتفع طاهر ، ولا يضعون فوقه كتابا أو شيئا آخر مطلقا وحين يستشهدون بآية من القرآن يقولون : قال الله تعالى فى كتابه العزيز .. ولا يمس المصحف من لم يكن طاهرا ولذلك تجد الآية « لا يمسه الا المطهرون » مطبوعة على غلافة فى كثير من الأحيان ..

والمصريون يؤمنون بالقدر ولذلك اذا نزلت بهم نازلة صبروا عليها صبرا يعد مثلا يحتذى ويبدون استسلاما وشجاعة قد تصل الى حد وصفهم بالبلادة وعدم الاحساس .. وكل ما يفعلونه للتعبير عن شدة كربهم هو أن يتنهد الواحد منهم ثم يقول : الله كريم .. أما النساء فعلى العكس من الرجال يغالين فى التعبير عن حزنهن ولوعتهن ويطلقن الصرخات المدوية حزنا وجزعا .. وعلى النقيض من الرجل الأوروبى الذى ينحى باللائمة على نفسه اذا ألم به سوء كان هو سببا فى حدوثه ، ترى الرجل المصرى يتمتع بالطمأنينة وراحة البال فى أحلك الأوقات مهما ألم به من كوارث .. وحتى وهو على فراش الموت حين يعلم أن النهاية قد قربت يبدو استسلامه واضحا للعيان اذ يقول : انا لله وانا اليه راجعون .. واذا سأله أحد عن حاله يقول الحمد لله ..

على أن ايمانه بالقدر لا يمنعه من أن يسعى وراء غاية يريد تحقيقها كما أنه لا يدفعه الى المخاطرة بحياته والاستهانة بها اذ نهاه القرآن عن فعل ذلك فى الآية « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » الا فى أحوال معينة كأن يكون هناك طاعون أو غيره من الأوبئة فانه فى هذه الحالة يتبع أمر النبى فلا يدخل بلدة موبوءة أو يخرج منها ان كان مقيما بهـــا ..

وهذا الايمان بالقدر يجعل من المتعذر على المصريين أن يرجموا بالغيب أو يتحدثوا بما سوف يفعلونه فى المستقبل أو الغد القريب .. ولا ينبئك أحدهم عن عمل ينوى القيام به أو عن شيء يأمل أن يحدث له الا أضاف قائلا : ان شاء الله .. واذا وقعت حادثة لم يكن متأكدا من صحتها قال فى أول حديثه عنها أو نهايتها : الله أعلم ..

وحب الخير والاحسان الى الفقراء فضيلتان يتميز بهما المصريون قد وعتهما قلوبهم عن طريق تعـــاليم دينهم .. وهم وان كانوا يتصدقون رغبة فى الاحسان فى حد ذاته ورغبة فى مساعدة الفقراء والمعوزين واطاعة لأمر ربهم ، الا أنهم مدفوعون أيضـــا برغبتهم الشديدة فى أن يجزل لهم العطاء فى الآخرة جزاء احسانهم .. وحب المصريين للاحسان يعد الى حد ما مسئولا عن كثرة عدد المتسولين فى القاهرة .. وما السبيل التى يشيدها المحسنون ليشرب الناس منها بلا مقابل فى المدن والقرى الا مظهر من مظاهر حب المصريين للخير والاحسان ..

وقد أثلج صدرى فى أول اتصال لى بالمصريين أن أراهم يعطفون على الحيوان الأعجم ، فكنت أرى الرجل اذا مر به كلب يضم اليه أطراف ثوبه حتى لا يقربه الحيوان الذى يعد نجسا ، ومع ذلك فهو يرمى اليه بكسرة من الخبز الذى يأكل منه . وكان القتل والسرقة وغيرهما من الجرائم نادرة الحدوث فى مصر ، ولكنى حين عدت اليها بعد بضع سنين وجدت المصريين قد ساءت أخلاقهم وقست قلوبهم بعضهم على بعض وقست قلوبهم على الحيوان الأعجم .. ويبدو أن هذا التحول فى أخلاقهم من الرقة الى الغلظة والفظاظة مرجعه سوء معاملة حكامهم واستبدادهم فدفعوا الشعب الى أن يطغى بدوره ويرتكب أبشع الجرائم .. ولكننى أميل الى الاعتقاد بأن أحد أسباب التحول فى أخلاق المصريين هو سوء معاملة الأجانب من الأوربيين للمصريين .. والدليل على قولى هذا أنى لم أشهد مصريا واحدا يضرب حيوانا الا فى المدن التى يعيش فيها أو يكثر من التردد عليها الافرنج ، مثل الاسكندرية والقاهرة وطيبة .. ولكم آلمنى منظـــر الحمير البائسة وقد انتشرت على جوانبها الجروح قانية كالجمر من أثر احتكاك الحبال المصنوعة من ألياف النخيل التى يربط بهـــا

الجزء الخلفى من السرج .. أما الكلاب الضالة فى الشوارع فيضربها الصغار والكبار على السواء لمجرد الرغبة فى التسلية والضحك .. وكثيرا ما رأيت الأطفال يتلهون بمضايقة القطط وتعـــذيبها مع أن القطط كانت الى عهد قريب من الحيوانات التى يحبهـــا المصريون ويدللونها .. وفى خلال الأشهر الثلاثة الأولى من زيارتى الثانية لمصر أصبحت جرائم السرقة والقتل من الأمور العادية التى تكاد تحـدث كل أسبوع .. وكان حكام المراكز من الأتراك يعذبون الفلاحين ، وكان من أثر ذلك التعذيب أنه حين جاء دور الفلاحين وحلوا محل الأتراك فى وظائفهم فاقوا الأتراك فى طغيانهم واستبدادهم ، وساموا الأهالى سوء العذاب حتى لقد قيل فيهم : ظلم الأتراك ولا عدل العرب .. وجرى ذلك القول مجرى الأمثال ..

وكثيرا ما أرى الكلاب الضالة ترجم وتضرب فى شوارع القــاهرة رغم أنها هادئة لا تؤذى أحدا .. ومع ذلك فلا يزال هناك من الناس من يطعمونها وهؤلاء معظمهم من الفقراء .. وفى كل حى من أحياء القاهرة يوجد عدد كبير من الأحواض الصغيرة تملأ كل يوم بالمـــاء حتى يشرب الكلاب منها .. وفى الشوارع التى توجد بها حوانيت يمر السقا فيرش الشارع ويملأ الأحواض للكلاب لتشرب منهـــا ، ويتقاضى فى مقابل ذلك أجرا من أصحاب الحوانيت كل شهر .. ولا يكاد يوجد دكان « شربتلى » ليس تحته حوض من هـــــذه الأحواض ..

ومع أن الـكلب يعد عند المسلمين حيوانا نجســـا ، فهم كثيرا ما يحتفظون به لحراسة بيوتهم أو لمجرد تربيته كحيوان مدلل ، وقد حدث فيما يتعلق بالـكلاب المدللة حادث عجيب وقع منذ مضعة أيام .. فقد اتخذت امرأة من القاهرة كلبا أليفـا يؤنس وحشتها ، حيث كانت وحيـــدة لا أهل لها ولاولد .. ولـكن الموت اختطف الـكلب الذى كان عزاؤها فى الحياة ، فدفعها حزنها على كلبها الى أن تعد له مقبرة فى الامام الشافعى لـكى يدفن فيها وغسلته طبقا للشريعـة وكفنته ووضعته فى نعش ، ثم استأجرت بعض الندابات اللاتى بدأن يملأن البيت ولولولة وصياحا مما أثار تساؤل جيرانها الذين لم يكونوا على اختلاط بها .. ثم استأجرت المرأة بعض المرتلين لـكى يسيروا

فى طليعة الجنازة ، وبعض التلاميذ ليحملوا القرآن وينشدوا مع المرتلين .. وسار الموكب فى نظام ووقار .. والمرأة تمشى خلف النعش تحف بها الندابات وهن يملان الجو صراخا وعويلا .. ولكن لم يكد الموكب يتقدم بضع خطوات حتى تجرأت احدى جاراتها فسألتها عمن يكون قد مات ، فأجابت المرأة بأن الميت هو طفلها المسكين فاتهمتها جارتها بالكذب .. وحينذاك إعترفت المرأة المنكوبة بأنه كلبها وتوسلت الى جارتها الا تفشى سرها .. ولـكن أنى للمرأة المصرية أن تحفظ السر .. وياله من سر .. وسرعان ما أعلنت الجارة على الملا أن « الجنازة حارة والميت كلب » .. فتجمع الناس يضحكون ويتفكهون ،وأوقفوا الجنازة فلم تأخذ طريقها الى المقبرة ، وثار المرتلون والتلاميذ والندابات على المرأة ـ بعد أن قبضوا أجورهم ـ لانها خدعتهم وسخرت منهم فهجموا عليها يريدون الثأر لعويلهم وانشادهم الذى ذهب ادراج الرياح ، ولولا تدخل رجال الشركة لفتكوا بالمرأة ..

ويروى « دربلو » حادثا مماثلا فيقول : ان أحد الأتراك دفن كلبه فى حديقة داره بمظاهر التقديس والاجلال ، فسيق الى القاضى بتهمة اقامة جنازة لكلبه .. ولكن التركى نجا من العقوبة بقوله للقاضى ان كلبه قد ترك وصية قبل أن يموت يوصى فيها بمبلغ من المال للقاضى ..

وانه لما يثير العجب أن القطط الضاله فى مدينة القاهرة تطعم من مال القاضى .. وفى عصر كل يوم يؤتى بكمية كبيرة من فضلات الأطعمة والذبائح الى الفناء الكبير أمام المحكمة حيث تتجمع القطط لتأكل . وقد علمت من باشكاتب القاضى أن السلطان الظاهر بيبرس قد أوقف قطعة أرض مزروعة تسمى « غيط القطة » الى جوار جامعه فى شمال القاهرة لـكى تطعم منها القطط ، ولـكن هذه الأرض باعها النظار بحجة أنها تحتـاج الى اصلاحات كبيرة ونفقات باهظة لـكى تصبح ذات فائدة .. وهى الآن حكر تدر خمسة عشر قرشا تصرف على اطعام القطط الجائعة وايوائها .. وهكذا وقع عبء اطعام القطط على القاضى ، اذ أنه بحكم وظيفته هو المسئول عن تنفيذ الوصـايا والأوقاف الخيرية .. وقد قل اهتمام الناس بالقطط ، وكثير منهم يتخلصون منها بارسالها الى بيت القاضى حيث يطلقونها فى الفناء ..

ومن الصفات البارزة في أخلاق المصريين حبهم للمرح وسرعة استجابتهم له تثير الدهشة .. وأتفه الأشياء تبعث السرور فى نفوسهم . وحيثما يتجمع الناس أو توجد جلبة أو ضجيج تراهم فرحين مستبشرين .. والرجل المثقف لا تستهويه أعيادهم ولا يجد فيها مايبعث على البهجة أو التسلية ، ومع ذلك ترى المصريين يستمتعون بها كل الاستمتاع .. كما نستمتع نحن الأوروبيون بأجمل احتفالاتنا وأعيادنا .. وأفراد والطبقة الكادحة منهم يجدون فى المقهى مكانا يبعث فيهم السرور والمتعة ، فيجلسون يرشفون القهوة أو يدخنون بعد يوم طويل شاق ..

وكرم الضيافة من صفات المصريين بوجه عام ، وهى صفة جديرة بالاعجاب ، والمصريون لا تنقصهم هذه الفضيلة .. ويطلق المصريون كلمة « مسافر » على كل زائر أو ضيف ، واذا كان بالبيت زائر وحل موعد تناول الطعام ، فان رب البيت يدعوه ليأكل معه . ويعد من سوء الادب أن يؤجل رب البيت موعد تناول الطعام لوجود الضيف عنده .. ومن عادة المصريين من الطبقة الدنيا أنهم يتناولون طعام العشاء أمام باب المنزل ، وكلما مر بهم شخص دعوه ليشاركهم الطعام .. على أن المصريين المقيمين فى المدن الكبيرة ، لا يستضيفون الناس بالكثرة التى تحدث فى القرى .. ذلك لأن فى كل مدينة من تلك المدن توجد وكالة أو خان ، حيث يجد الغريب فيها مأوى ، وحيث الحصول على الطعام سهل ميسور . أما فى القرى فان المسافر ينزل ضيفا على شيخ البلد أو على أحد الاهالى .

ونتيجة لهذا الكرم ، برزت الى الوجود فى مدينة القاهرة طبقة من الناس تسمى « طفيلية » كانت تعيش على التطفل .. فحيثما أقيم عرس أو مأدبة أو وليمة ، هرعوا اليها ، ولا يبارحون أماكنهم حتى يعطوا مبلغا من المال ، وكانوا يسافرون من بلد الى بلد وهم خالو الوفاض ، يتطفلون على البيوت على طول الطريق ، كلما جاعوا ، أو يعمدون الى الحيلة للحصول على طعامهم كما يتضح من القصة التالية ـ فقد سمعت منذ بضعة أيام خلت ، عن اثنين من الطفيليين أرادا أن يحضرا مولد السيد البدوى بطنطا ، وهى رحلة سهلة

تستغرق من القاهرة يومين ونصف يوم ، وبدأ الاثنان رحلتهما سيرا على الاقدام ، حتى وصلا الى مدينة قليوب بعد مسيرة يوم ، وهناك عضهما الجوع بنابه ، فحارا ماذا يفعلان لكى يحصلا على طعام العشاء .. فذهب أحدهما الى القاضى فألقى السلام ثم قال : ياسيدى القاضى : انى قادم من الشرقية ، ومسافر الى مصر ، ولى صديق يدين لى بخمسين كيسا (الكيس خمسمائة قرش) وكان يعادل قبل ذلك سبعة جنيهات ، ولكنه الآن يعادل خمسة جنيهات استرلينية) وهو يحملها معه الآن ، ويرفض أن يعطينى اياها ، وانى لفى حاجة شديدة اليها فسأله القاضى : أين هو صاحبك ؟ فأجاب الرجل هنا فى هذه المدينة . فبعث القاضى برسول يأتى بصديق الرجل ، وفى أثناء ذلك أمر القاضى باعداد عشاء فاخر للرجلين ، اذ أنه قدر أنه سيحصل على قدر كبير من المال فى هذه القضية ، بالنسبة لضخامة المبلغ الذى يدين به المتهم ، وكان من عادة القضاة فى المدن والقرى أن يستضيفوا المتقاضين فى مثل هذه الظروف . وحين جىء بالرجل الثانى ، دعاهما القاضى الى العشاء والمبيت قبل أن يفصل فى القضية . وفى الصباح نظرت القضية ، واستجوب الطرفان ، وقال الرجل المتهم أنه حقا يدين لصاحبه بخمسين كيسا وأنه كان ينوى أن يردها اليه ، لانها عبء ثقيل عليه ، اذ هى خمسون كيسا من الورق من تلك التى يباع فيها البن . ثم أضاف قائلا : نحن طفيليون — فغضب القاضى وطردهما .

والمصريون بوجه عام ، يشاركهم فى ذلك العرب فى البلاد الاخرى ، تعيب أخلاقهم نقيصة نعدها نحن الغربيين طبقا لمبادئنا الاخلاقية احدى الكبائر . هذه النقيصة هى نكران الجميل . ولكنى أميل الى الاعتقاد بأن ذلك يرجع الى أنهم قوم كرماء بطبيعتهم ، وهم حين يكرمهم أحد أو يؤدى لهم معروفا ، يعتبرون ذلك واجبا لا شكر عليه ، كما لا ينتظرون هم شكرا على ما يقدمونه لغيرهم من مروءة .. ولقد حدث أن آويت فى بيتى رجلا كانت حياته مهددة بالخطر ، فلما رحل عنى لم يوجه الى كلمة شكر واحدة ، وهو يعتقد أنه لو فعل ذلك فان معناه أننى رجل لا يتوقع منه أن يفعل الخير أو ترجى مروءته ، وبذلك يجب عليه شكرى ، ولكنه اذا لم يشكرنى ، فمعنى

ذلك عنده أنى أهل للمروءة وفعل الخير ، وان مثلى يتوقع منه الكرم وحسن الضيافة . ولذلك فان الرجل الشرقى ، يعبر عن شكره لمن يسدى اليه يدا ، بالدعاء له بطول العمر أو غيرها من الدعوات ..

والمصريون يحافظون على الخبز محافظة شديدة ، اذ هو عماد الحياة ، وهو لذلك يسمى « عيش » ، ولا يفرطون فى كسرة منه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وكثيرا ما أشاهد رجلا ينحنى على الارض ، ليلتقط لقمة ملقاة فى الطريق ، فيقبلها ويضعها فوق جبهته ثلاث مرات ، ثم يضعها الى جوار حائط أو جدار ، حتى يأكلها كلب ضال ، ولا تطؤها الاقدام . وقد قص على الحادثة التالية كثير من الناس ، كمثل على مغالاة المصريين فى تقديسهم للخبز ، ولكنى أشك فى صحة هذه القصة : فقد كان اثنان من الخدم يجلسان امام دار سيدهما ، يتناولان طعام الغداء ، حين شاهدا أحد البكوات المماليك ممتطيا صهوة جواده ، وحوله عدد من ضباطه ، يسير متجها نحوهما ، فوقف أحد الخادمين احتراما للمملوك ، ولكن هذا صاح فيه غاضبا : أيهما أجدر بالاحترام ، الخبز الذى أمامك أم أنا ! ودون أن ينتظر المملوك جوابا قيل انه أشار بيده اشارة لها معناها ، فأطيح برأس الخادم فى الحال .

وأفراد الطبقة العالية والمتوسطة من المصريين ، شديدو الحرص على النظافة ، كما أن الطبقة الدنيا منهم أكثر عناية بالنظافة من مثيلاتها فى البلاد الاخرى ، ويرجع ذلك الى أن دينهم يحثهم على النظافة ، ولولا ذلك لاهملوها . ولكن لا يجب أن نحكم على نظافة المصريين مما نراه من قذارة أطفالهم ، فان مرجع ذلك الى خوفهم من الحسد والعين ، كما سبق تفصيله فى فصل آخر .. وما من شك فى أن حكمة الوضوء الذى يفرضه عليهم دينهم حكمة بالغة ، اذ أنه يبعث على نظافة الجسم ، التى لابد منها لمن يعيشون فى بلد حار كمصر . والمصريون بوجه عام حريصون على اتباع تعاليم دينهم فيما حرمه عليهم ، لانه رجس أو نجس ، فهم لا يقربون الخمر لانها ليست نظيفة . وقلما تستطيع أن تغرى أحدا منهم أن يأكل قطعة صغيرة من لحم الخنزير الا اذا رشوته ، ويستثنى من ذلك

الفلاحون فى مديرية البحيرة ، اذ أن كثيرا منهم يأكلون لحم الخنزير البرى والفيران البرية .. ولكن رغم حب المصريين للنظافة ، ومداومتهم على الذهاب الى الحمام ، الا أنهم لا يستبدلون ملابسهم بعد الاستحمام بأخرى نظيفة ، وهم يقضون الساعات الطويلة فى تنظيف اجسامهم ، ثم يلبسون الملابس التى كانت عليهم قبل أن يستحموا .

ومن مميزات هذا الشعب أن الابناء يوقرون والديهم ، وكذلك يجلون شيوخهم ، وبخاصة المشهود لهم بالتقوى والورع أو غزارة العلم .

والمصريون شديدو التعلق ببلادهم وبيوتهم ، ويحبونها حبا يجعلهم يتخوفون من الرحيل عنها الى أى مكان آخر . وقد سمعت عن كثيرين منهم كانوا يعتزمون السفر خارج مصر أملا فى منفعة أو ربح ، ولكنهم حين كان يحين وقت الرحيل ، تنهار عزيمتهم فيعدلون عن السفر . ولكن ظلم الحكام وطغيانهم بدأ يشجع المصريين على الرحيل عنها . وشدة تعلق المصريين ببلادهم تدفع الآباء الى رفض تزويج بناتهم لرجل لا يقيم فى البلدة أو القرية التى يقيمون هم فيها ، ولكنى أعتقد أن الرفض فى هذه الحالة مرجعه الى أن الفتاة المصرية دائما فى حاجة الى حماية والديها ، وهى لذلك تفضل أن تعيش بالقرب منهما .

والمصريون جميعا يميلون الى الكسل ، الا أولئك الذين يكسبون عيشهم بالاعمال اليدوية الشاقة . ويرجع ذلك الى طبيعة مناخ بلادهم ، وخصوبة أرضهم .. وترى العامل يستغرق يومين فى عمل قد يحتاج انجازه الى يوم واحد ، وقد ينصرف عن عمل مريح يتقاضى منه أجرا كبيرا ، لكى يخلو الى الجوزة أو النارجيلة فيستمتع بها . ومع ذلك فهناك منهم من يشقى فى عمله شقاء بالغا ، وهؤلاء هم الحمالون ، والسايس الذى يجرى لاهثا امام حصان سيده ليوسع له الطريق ، والمراكبى الذى يجر المراكب بالحبال على طول النهر ، تحت ضربات الشمس المحرقة .

ويتميز المصريون بشدة عنادهم ، وقد عرف عنهم من قديم الزمان

منذ كانوا يخضعون لسيطرة الرومان ، أنهم كانوا يرفضون أن يدفعوا الضرائب الا بعد أن يضربوا ضربا مبرحا ، وأنهم كانوا يتباهون بكثرة عدد الجلدات التى تلقتها أجسامهم ، قبل أن يضطروا لدفع نقودهم .. وقد روى لى أحدهم ، أن فلاحا كان عليه أن يدفع للحاكم مبلغا يعادل نحو أربعة شلنات ، فادعى الرجل أنه لا يملك نقودا يدفعها ، وأوتى به فمد وظل يضرب على قدميه ضربا مبرحا موجعا ، وهو يتحمل قسوة الضرب ، على أن يدفع هذا المبلغ الضئيل ، حتى أمر الحاكم بالكف عن ضربه .. وانصرف الرجل وهو يعرج من أثر الضرب ، ولكن الحاكم صفعه على وجهه فسقطت من فمه قطعة نقود ذهبية ، تعادل قيمتها المبلغ المطلوب منه .. وهكذا لم يحفزه الضرب على بشاعته على أن يدفع المال المطلوب ، رغم أنه كان يحمله معه . وقد يبدو هذا التصرف غريبا ، ولكن ليس من العسير تعليله .. ذلك لان المصريين يعلمون أنهم كلما سارعوا بدفع المال ، ازداد جشع الحكام فطالبوهم بالمزيد . وهم من نواح أخرى شديدو العناد ، يصعب التحكم فيهم ، وقلما تجد عاملا أو صانعا مصريا يصنع لك الشيء كما تريده ، بل يصنعه وفق هواه ، ضاربا برأيك عرض الحائط ، وقلما ينجز العمل الذى يعهد اليه به فى الوقت الذى وعد أن ينجزه فيه .

ومن العجيب أن المصريين يجمعون بين صفتين متناقضتين هما الكرم والبخل .. وهم يحتالون ويكذبون فى معاملاتهم التجارية لكى يضاعفوا ارباحهم . وكل شعب يئن ويرزح تحت نير حكومة مستبدة جشعة طاغية ، كالحكومة المصرية فى طول عهودها ، لا يستغرب منه أن يتصف بالشح والحرص على المال ، فالانسان عادة يشتد حرصه على الاحتفاظ بالشيء الذى يخشى أن يؤخذ منه بين لحظة وأخرى .. ولهذا السبب ، فان المصرى المستعبد ، حين يجمع مقدارا من المال يزيد عن حاجته ، ولا يستطيع استغلاله فى تجارة أو غيرها ، يشترى به حليا ذهبية لزوجته ، بحيث يستطيع أن يحول هذه الحلى الى نقود حين يشاء .. وكما هو الحال فى كل بلد يخضع لمثل الاحوال السياسية التى يخضع لها المصريون ، نجد الرجل يخفى ماله أو جواهره تحت بلاط الحجرة ، أو فى مخبأ آخر .. وكثيرا ما يفاجىء الموت رب البيت ، قبل أن يتمكن من

اطلاع أهل بيته على المكان الذى خبأ فيه أمواله ، وبعد سنين عدة ، حين يتداعى البناء وينهار المنزل ، يسمع الناس بالعثور على كنز بين الانقاض .

والى جانب الشح ، توجد نقيصة أخرى تشوب أخلاق المصريين والعرب على وجه العموم ، ألا وهى الحســـد .. وكثيرون منهم يعترفون بأن هذه النقيصة تكاد تكون قاصرة عليهم وحدهم .

ويبدو أن قول الصدق فى كل المناسبات ، فضيلة نادرة الوجود بين المصريين .. فهم يحلون الكذب اذا كان الفرض منه الصلح بين فريقين متخاصمين ، ويكذبون اذا كان فى الكذب ارضاء لزوجاتهم ، ويكذبون فى الحرب لان الحرب خدعة ، أما فيما عدا ذلك فالكذب محرم عليهم تحريما باتا . ومع أن غالبية المصريين يكذبون عمدا ، الا أن الواحد منهم اذا أخطأ غير عامد فى رواية حادث أو قصـــة فانه يقول مستدركا : لا استغفر الله . الامر كذا وكذا .. واذا لم يكن متأكدا من صحة روايته فانه يقول : الله أعلم .

وقد سبق أن قلنا ان المصريين يجعلون الله عرضة لايمانهم ، ونضيف اليوم أن كثيرين منهم يحلفون بالله كذبا بقولهم والله بكسر الهاء أو والله بسكونها على أن الشائع هو قولهم والله بالسكون ، لان كلمة والله بالكسر تجعل اليمين مؤكدا ، وفى تلك الحالة يكون الحلف به كذبا ذنبا عظيما له كفارته . على أنه قلما يجرؤ مسلم فيقســم كذبا بالله العظيم أو بالمصحف . وبعضهم يحلف بقوله : على الطلاق أو على الحرام ، أو على الطلاق بالتلاته ، فاذا كان كاذبا حرمت عليه زوجه وأصبحت طالقا . ويستغل الكذابون هذا القسم المقدس ، فيحلفون به كذبا لانهم يعلمون أن الناس يصدقونهم اذا هم حلفوا به . وقد وصف احد الشعراء واحدا من هؤلاء فقال :

أبو المعـــلا أكذب الناس على الاطلاق

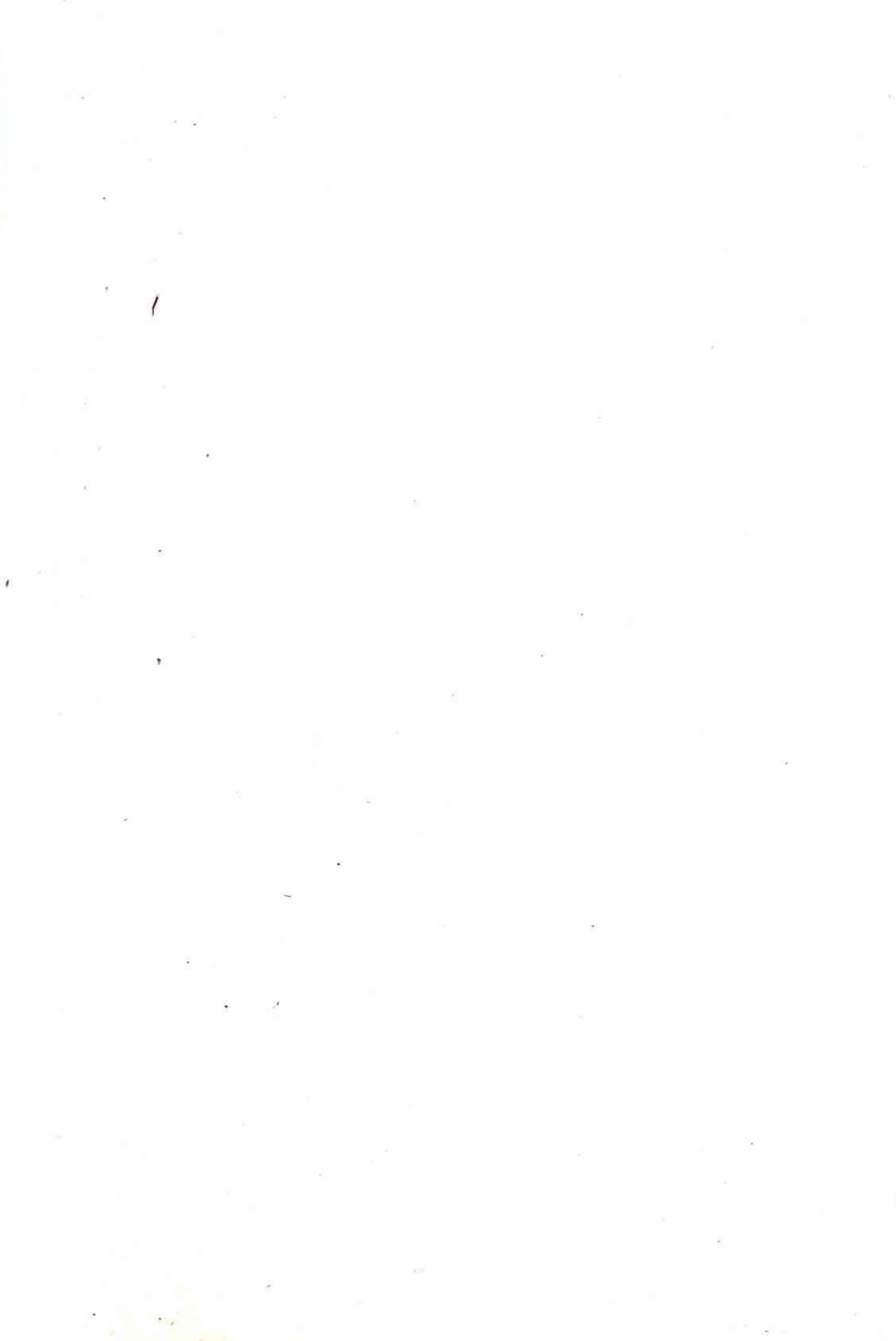
اذا هو أقســـــم بيمين الطـــــلاق

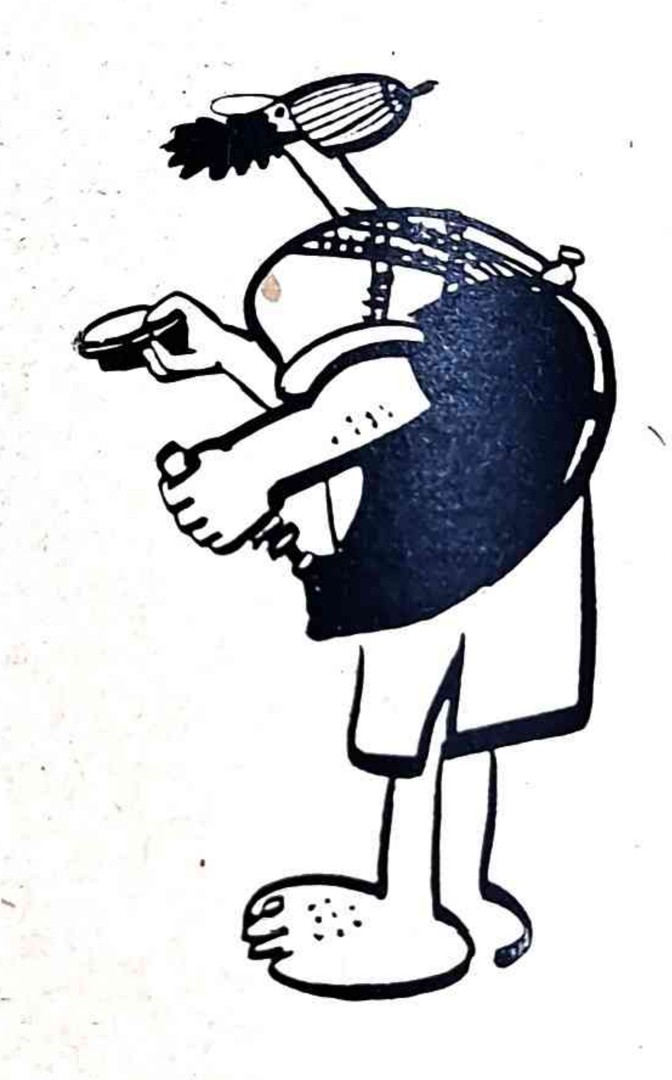
ان غالبية المصريين ، وبخاصة الطبقة الدنيا منهم ، يتشاجرون لأتفه الاسباب ، وحين يتشاجر العامة يسب الواحد منهم للآخر أباه .

وامه ، ويطلق عليه أقذع النعوت والصفات ، فيقول : يا ابن الكلب - يا خنزير .. الخ .. واذا لعن أحد المتشاجرين أبا خصمه ، فان ذلك الخصم يرد عليه بلعن أبيه وأمه وأهل بيته جميعا ، ويهدد كل منهما الآخر بالويل والثبور .. ولكن قلما يشتبك الطرفان فى عراك . وفى حالات قليلة ، شاهدت المتشاجرين من الرعاع يعض كل منهمـــا الآخر ويأخذ بخناقه . ولـكنى أيضا كثيرا مارأيت بين أفراد الطبقة الوسطى والدنيا ، أمثلة من التسامح الكريم ، فكنت أرى الرجل يهان اهانة بالغة ويتلقى الضربات من خصمه ، ومع ذلك يقـــــول له : الله يبارك لك . ربنا يجازيك بالخير . اضربنى كمان .. وغالبا ما ينتهى الشجار بأن يقول أحد المتشاجرين أو كلاهما : الحق على .. ثم يقرآن الفاتحة معا ، ويتعانقان ويقبل كل منهما الآخر .

ويميل المصريون بصفة خاصة الى التهكم والسخرية ، ويبـــدو ذكاؤهم وتوقد أذهانهم فى تهكمهم ومداعباتهم .. ولغتهم العربية لغة غنية ، تمكنهم من استعمال التورية ، والكلمات التى تحمل اكثر من معنى ، فى أحاديثهم ، ويجدون فى ذلك لذة كبيرة .. وكثيرا ما يتخذ العامة من الاغانى وسيلة لهجو الحكام ، والسخرية من القوانين التى تسنها الحكومة ، ويقاسي بسببها هؤلاء العامة . وفى أثناء زيارتى الاولى لمصر ، سمعت اغنية كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها ، وقد كتبت بمناسبة قرار الحكومة الخاص بزيادة ضريبة الدخـل المعروفة « بالفرده » .. وكان مطلع الأغنية :

يالى مفيش حيلتك غير لبده   روح بعهـــا وادفع الفرده





الصناعة فى مصر

- ((معمل الفراخ)) فى بحرى ..
و ((معمل الفروج)) فى الصعيد
- نصف اللص ينادى : ((بسمار
يا حلاوة)) !!
- عندما يتقابل البائع والشارى
فى منتصف الطريق ..

انه لمن بواعث الأسى أن نرى ذلك التبـاين بين حالة الفقر التى ترزح تحتها مصر فى الوقت الحـاضر ، وبين الرخاء الذى كان يعم أرجاءها فى العصور القديمة ، حين كانت مصـــنوعاتها ــ بتعددها وتنوعها ودقة صنعها ــ تبهر الشعوب المحيطة بهـا وتستحوذ على اعجابها ٠٠ والآثار التى تكتشف ، ترينا أن المصريين بلغوا فى فنون الحياة المتحضرة شأوا بعيدا ، فى عهد موسى ، بل فى العهود التى سبقته ٠٠ فلم يكن الفراعنة والـكهنة ورؤسـاء الجيش هم وحدهم الذين كانوا يتمتعون بحياة يحوطها الترف البالغ فى تلك العصـور النائية ، ولـكن كان يحيا حياة الترف أيضا الأثرياء من الزراع ، وكذلك بعض أفراد الشعب ٠٠ كانوا يرتدون الملابس المصنوعة من أقمشة رائعة النسيج ، ويتكئون على أرائك نتخذ منها اليوم نماذج ننقل عنها أثاث حجرات الاستقبال ٠٠ ومازالت الطبيعة تغدق خيراتها بسخاء على شعب وادى النيـــل ، كما كانت تغدقها فى المـاضى ، ولـكن ٠٠ هذا الشعب قد حرم منذ قرون عديدة من التمتع بحكومة مستقرة ٠٠ وخلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، كان كل حاكم من الحكام الذين تتابعوا عليه ، يعلم أن سلطانه لن يدوم ، فكان كل همه أن يضـــاعف من ثروته ٠٠ وكانت نتيجة ذلك أن قضى الموت شيئا فشيئا على عدد كبـير من أفراد الشعب ٠٠ والذين لم يموتوا أصبحوا يعانون أبشع حالات الفقر والعوز ٠٠ وعدد الرجال من سكان مصر ، لا يكاد يكفى للقيـام بأعمال الزراعة فى الأراضى التى يغمرها الفيضان ، أو التى يسهل ريها بوسائل صناعية ٠٠ ولذلك فان عدد الرجال الذين يقومون بالصناعة صغير جدا نسبيا ٠٠ وما يصنعونه لا يدل على مهارة كبيرة ، اذ أن المنافسة بينهم محدودة ؛ ولا يشجعهم فى الوقت الحاضر غير نفر قليل من الأثرياء ٠٠ على أن ذلك الانحطاط الذى أصاب الصناعات اليدوية ، يرجع الى حد بعيد الى سبب آخر ، وهو أن السلطان سليم التركى ــ كما روى الجبرتى ــ أخذ معه الى بلاده ، بعد استيلائه على مصر ، عددا كبيرا من أمهر الصناع ، فى الفنون التى لا توجد فى تركيـــا ، حتى أن أكثر من خمسين صناعة يدوية قضى عليها فى مصر ، اذ لم تجد لها صانعا ٠

والرسم والنحت من الفنون التى حرمها الاسلام ، اذا كان الرسم

أو النحت لمخلوقات حية ٠٠ على أنه يوجد فى مصر بعض المسلمين الذين يقومون بمحاولات فى الرسم ، فيرسمون الأشخاص والسباع والجمال وغيرها من الحيوانات ، وكذلك الزهور والمراكب ٠٠ الخ ، ويسمون هذه الرسوم زخرفة تزين بهـا واجهات الدكاكين وأبواب بيوت الحجاج ٠٠ ومع ذلك فهى صور يرسم الطفل فى بلادنا فى سن الخامسة أو السادسة خيرا منها ٠٠ ولـكن الدين الاسـلامى يدعو بصفة خاصة الى ترقية الصناعات ، اذ هو يأمر كل رجل أن يكون ملما بحرفة أو صناعة ، حتى يعول نفسه وأسرته عند الحاجة ، ويقضى ما عليه من واجبات نحو دينه ٠

أما الفن الذى برع فيه المصريون فهو فن العمارة ٠٠ وتشـاهد فى العاصمة وما يحيط بها أروع آيات الفن المعمارى العربى ٠٠ وليست المساجد وغيرها من المنشآت العامة ، هى وحدها التى تتميز بالروعة والجمال ، بل ان البيوت التى يملكها الأفراد تثير فينا هى الأخرى الاعجاب ، وخاصة البناء الداخلى منها والنقوش التى تزينها ، على أن هذا الفن هو الآخر قد أخذ يتدهور فى السنين الأخيرة ، كما تدهورت غيره من الفنون فى هذا البلد ، وبدأ الناس يفضلون من فن العمارة طرازا ليس فيه شىء من الجمال ، بعضه شرقى وبعضه أوروبى ٠

أما الخراطون ، الذين يصنعون خشب النوافذ المتشابك ، فقد كان عددهم كبيرا ، وكانت صناعتهم أدق مما هى عليه فى الوقت الحاضر ٠٠ وقد قل الاقبال عليهم ، لأن نوافذ المنازل الحديثة كثيرا ما تصنع من الزجاج ٠٠ أما فن صناعة الزجاج ، الذى اشـتهرت به مصر من قديم الزمان ، فلا يجيده المصريون المعاصرون ، وقد فقدوا مقدرتهم على صناعة زجاج النوافذ الملون ٠٠ وصناعة الفخار بوجه عام صناعة بدائية ، فهى فى معظمها عبارة عن قلل وأباريق لتبريد المـاء ٠ أما مهارتهم فى صناعة الجلود ، فقد اشتهروا بها شهرة هم جديرون بها ٠

ويستخدم المصريون « جريد » أشـجار النخيل و « سعفها » فى صناعات متعددة ، فيصنعون من الجريد المقاعد وأقفاص الدجاج وغيره ، والصناديق والأسرة ، كما يصنعون من سعفها « المقاطف »

والسلال والحصير والمكنسات وغيرها ، ومن أليافها يصنعون أكثر أنواع الحبال التى تستعمل فى مصر ‥ وقد فقدت مصر الشهرة التى كانت تتمتع بها فى العصـــور القديمة فى صناعة الأقمشة ، اذ أن الأقمشة الكتانية والقطنية والصوفية والحريرية التى تنسج اليوم فى مصر ، هى فى العادة من نوع خشن ردىء ‥

وقد اشتهر المصريون ، منذ عهد بعيد ، بالتفريخ عن طريق الحرارة الصناعية ‥ ويبدأون هذه العملية ـ رغم أن المؤلفين القدماء وصفوها وصفا غامضا ـ كانت شائعة فى مصر فى الأزمنة الســـــحيقة ، ويسمى البناء الذى تجرى فيه هذه العملية فى الوجه البحرى « معمل الفراخ » وفى الوجه القبلى « معمل الفروج » ‥ وعدد هذه المعامل فى الوجه البحرى يزيد على المـائة ، وفى الوجه القبلى يزيد على نصف هذا العدد . ودرجة الحرارة اللازمة لعملية التفريخ تتراوح بين ١٠٠ و ١٠٣ فرنهيت ، والذى يقوم بهذه العملية يعرف من تجاربه الطويلة ـ اذ هو يمارسها منذ فجر شبابه ـ مقدار الحرارة اللازمة لكى تتم عملية التفريخ بنجاح ، دون أن يكون لديه مقياس للحـــرارة كالذى نســـــتعمله نحن ‥ وقد أكلت من الطيـــور التى تنتجها هذه المعامل ، فلم أجدها تقل فى شىء عن تلك التى تنتج بطريق الحضانة الطبيعى .

أما التجارة ، فقد أخذت فى التدهور منذ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، الذى يصل أوروبا بالهند ، والذى ترتب عليه أن احتكر محمد على وخلفه التجارة ، وفرض الضرائب كرها على الشعب ‥ ولـكن برغم ذلك لا يزال للتجارة شأن فى مصر ‥

ولـكى أعطى فكرة عن قيمة النقود فى مصر فى السنوات الأخيرة ، أورد هنا قائمة بأسعار المـأكولات وغيرها ، كتبتها أثناء زيارتى الثانية لمصر ، وهى فى معظمهـــا أقل فى مدن الأقاليم وفى القرى منهـــا فى العاصمة ‥ وأسعار اللحم والطيور والحمام تبلغ نصف الأسعار التى جاءت فى هذه القائمة ، كما أن أسعار القمح والخبز تبلغ الثلث أو النصف . والعملة المستعملة هى القرش و « الفضة » ‥ وهـذه أصغر قطعة فى العملة المصرية ، من حيث القيمة ، وهى تســاوى

واحد على أربعين من القرش ، وهناك قطعة خمسة فضة ، أو عشرة فضة ، أو عشرين فضة ، وهذه الأخيرة تسمى أيضا « نص قرش » ٠٠ وهذه هى القائمة :

		فضة	قرش		فضة	قرش
القمح ـ الأردب	من	ـ	٥٠	الى	ـ	٦٣
الأرز ـ الأردب					ـ	٢٤٠
لحم الضأن ـ الرطل					ـ	١
لحم بقرى ـ الرطل					٣٥	ـ
الدجاج ـ الواحدة	من	١٠	١	الى	٢٠	١
الحمـــام ـ الزوج	من	١٠	١	الى	٢٠	١
البيض ـ ثلاث بيضات					٥	ـ
زبدة طازة ـ الرطل					ـ	٢
سمن ـ الرطل	من	ـ	٢	الى	١٠	٢
البن ـ الرطل	من	ـ	٦	الى	ـ	٧
تبغ جبلى ـ الأقة	من	ـ	١٥	الى	ـ	١٨
تبغ سورى ـ الأقة	من	ـ	٥	الى	ـ	١٠
سكر روس مصرى ـ الرطل					ـ	٢
سكر روس أفرنجي ـ الرطل					١٠	٢
عنب صيفى ـ الرطل					١٠	
عنب آخر الموسم ـ الرطل	من	٢٠	ـ	الى	٣٠	ـ
كعك ناعم ـ القنطار					ـ	١٦٠
قربة المـــاء	من	١٠	ـ	الى	٢٠	ـ
خشب وقود ـ حمولة الحمار					ـ	١١
فحم حطب ـ الأقة	من	٢٠	ـ	الى	٣٠	ـ
الصابون ـ الرطل					٣٠	١
شموع مصنوعة من الشحم ـ الأقة					٢٠	٨
شموع مصنوعة من أجود أنواع الشمع ـ الأقة					ـ	٢٥

ويوجد على جانبى الشوارع الرئيسية ، وبعض الشوارع الفرعية فى مدينة القاهرة ، صفان من الدكاكين ٠٠ وفى العادة تشغل جزءا

من الشارع ، أو الشارع كله ، دكاكين تختص بنوع معين من التجارة ، ويسمى كل شارع « سوقا » لهذه التجارة بعينها ، أو يسمى باسم المسجد الذى يقع فيه ٠٠ فالشارع الرئيسى فى القاهرة ، يسمى جزء منه حيث يباع النحاس « سوق النحاسين » أو النحاسين فحسب (اذ يستغنى فى العادة عن كلمة سوق) وجزء آخر منه يسمى « الجوهرجية » حيث تباع الجواهر ، ثم سوق الخردجية حيث تباع الخردوات ، ثم الغورية نسبة الى جامع الغورى الذى يقع بالشارع ٠٠ ثم هناك سوق الأتراك ، ويسمى خان الخليلى ٠٠ وبعض هذه الأسواق لها سقف من الحصير ، أو من ألواح الخشب تقام على عمد ، تمتد بعرض الشارع وتعلو قليلا على الدكاكين أو المنازل ٠٠

والدكان عبارة عن طاقة أو تجويف مربع الشكل ، ارتفاعه حوالى ستة أو سبعة أقدام ، وعرضه من ثلاثة الى أربعة أقدام ٠٠ وقد يكون عبارة عن طاقة من داخلها طاقة أخرى ، يتخذ منها التاجر مخزنا لبضائعه ٠ وأمام الدكان مصطبة ، يستوى سطحها مع أرضية الدكان ، وارتفاعها فى العادة حوالى قدمين ونصف أو ثلاثة ، وكذلك عرضها ٠٠ ويجلس صاحب الدكان فوق المصطبة ، فاذا جاءه اثنان أو أكثر من الزبائن ، يتزحزح عن مجلسه قليلا نحو الداخل حتى يفسح لهم مكانا ٠٠ ويصعد الزبائن الى المصطبة ، بعد أن يخلعوا نعالهم ، قبل أن تطأ أقدامهم الحصير أو السجاد الذى فرشت به المصطبة ٠٠ فاذا كان الزائر زبونا دائما أو زبونا ممتازا ، فان صاحب الدكان يقدم اليه غليونا ليدخن ، فاذا كان معه غليونه يملأه له ويشعله ، ثم ينادى على صبى القهوجى فى المقهى المجاور ، أو يرسل من يأتى به ، ثم يطلب منه أن يحضر قهوة للزبون ٠٠ وصاحب الدكان يصلى عادة فوق المصطبة ، على مرأى من الناس ، واذا أراد أن يغادر الدكان لبضع دقائق ، أو لفترة قد تصل الى نصف الساعة ، فانه يتركها فى رعاية أصحاب الدكاكين المجاورة ، أو التى تقع قبالته ، أو يسدل عليها ستارا ، اذ ليس من الضرورى أن يغلقها الا فى الليل حين يعود الى بيته ، أو حين يذهب الى المسجد لصلاة الجمعة ٠

والبيع والشراء هنا عملية متعبة مملة ، لمن لم يتعود طريقة المصريين

فى المساومة ... وتبدأ بأن يسأل المشترى التاجر عن ثمن سلعة يريدها ، فيطلب التاجر ثمنا أكبر من ذلك الذى يتوقع من المشترى أن يدفعه ، فيقول الزبون ان هذا الثمن باهظ ، ويعرض على التاجر نصف أو ثلثى المبلغ ، فيرفض التاجر ولكنه يخفض السعر الذى بدأ به ، ويزيد الزبون من جانبه على السعر الذى عرضه من قبل وهكذا .. تظل المساومة بين الطرفين حتى يتقابلا فى منتصف الطريق ، وتتم عملية البيع والشراء .. ويعيب السائحون الأوروبيون على التجار المصريين هذه المساومة ، ولكنى أعتقد أن التاجر مظلوم ، فقد تأكدت بنفسى من أن كثيرا من التجار يبيعون بربح قدره واحد فى المائة ، وقد يكون أقل من ذلك .. ثم ان الشخص نفسه الذى يذهب ليشترى شيئا صغيرا تافها من الدكان ، يجد هذا الشىء الذى يريده ، ومع ذلك فهو لا يشتريه فى التو واللحظة .. وانما يعد عدته ، ويأخذ أهبته ، ويتهيأ لنقاش طويل .. فيصعد الى المصطبة ، ويجلس « على راحته » ويملأ غليونه ثم يشعله ، ثم .. تبدأ المعركة الكلامية ... فتظل دائرة نحو نصف الساعة أو يزيد ، وقد يقطع التاجر أو الزبون هذه المعركة ، بأن يتحدث فى موضوع لا علاقة له بما يتساومان عليه ، حتى ليخيل اليك أن المعركة قد خمدت ، وأن أحد الفريقين قد قرر ألا يزيد ، وقرر الآخر ألا ينقص .. ولكنهما يستأنفان المساومة من جديد ... حتى اذا انتهيا الى اتفاق ، يتهيأ الزبون للانصراف مع خادمه ، ويعطى التاجر الخادم بعضا من النقود .

وتقام المزادات فى أسواق القاهرة فى أيام معلومات ، مرة أو مرتين فى الأسبوع ، وينادى على المبيعات دلالون يستأجرهم الأفراد الذين يريدون بيع أشياء لهم فى السوق عن طريق المزايدة ، أو يستأجرهم أصحاب الدكاكين ... ويحمل الدلال المبيعات ملوحا بها ، معلنا الثمن الذى وصل اليه المزاد ، وهو يصيح قائلا : حراج ..

والناس من طبقة العامة ، اذا أرادوا شراء أبسط الأشياء يساومون عليها بطريقة عنيفة ، فيحتدون وترتفع منهم الأصوات ، ويشيرون بأيديهم اشارات غاضبة ، حتى ليحسب الشخص الذى لا يفهم لغتهم أنهم فى ثورة من الغضب يتشاجرون ... واذا سأل أحد بائعا من

الفلاحين عن ثمن شيء مما يبيع ، يقول له : خدها هديه ٠٠ وهي عبارة شائعة على لسان الباعة ، ويعلم المشترى أنها لا تعنى شيئا فيكرر سؤال البائع عن الثمن ، وحينذاك يطلب هذا منه مبلغا باهظا ٠٠

وقد يكون من بواعث الملل ، أن أعدد كل الحرف فى مدينة القاهرة ، ولكنى سأذكر أكثرها أهمية ٠٠ فبائع القماش يسمى تاجرا ، وبائع الملابس الجاهزة والأسلحة وغيرها يسمى أيضا تاجرا ٠٠ ثم هناك الجوهرجى ، والصايغ ، والخردجى ، والنحاس ، والخياط ، والصباغ ، والرفا ، والحباك ، الذى يصنع الشرائط والدنتله الحريرية التى تزين بها الملابس ٠٠ والعقاد الذى يصنع الخيوط وغيرها ، والشبكشى الذى يصنع النارجيلة والجوزه ٠٠ الخ ٠٠ ثم العطار ، والدخاخنى ، والفكهانى ، والنقلى ، والشربتلى ، والزيات الذى يبيع الى جانب الزيت الزبد والجبن والعسل ٠٠ الخ ٠٠ والخضرى ، والجزار ، والفران ، والطباخ ٠٠ ويوجد عدد كبير من دكاكين الطباخين تبيع الكباب وغيره من الأطعمة ، ولكن قلما يذهب الناس الى هذه الدكاكين ، وانما هم يرسلون فى طلب الطعام منها اذا تعذر عليهم اعداد طعامهم فى بيوتهم ٠٠ وكثيرا ما يبعث التجار وأصحاب الحرف الأخرى فى طلب افطارهم وغدائهم من دكان الطباخ ٠٠ وهناك دكاكين أخرى كثيرة تبيع الفطائر والفول المدمس ، وكثير من الأهالى من الطبقة الفقيرة يأكلون فى دكان الفطاطرى والفوال ٠٠

ويحمل الباعة المتجولون الخبز والخضروات وغيرها من المأكولات ، من مكان لآخر ، وينادون عليها بطريقة عجيبة ، يجدر بى أن أذكرها هنا ٠٠ فبائع الترمس ينادى قائلا : مدد يا امبابى مدد ! ويفهم هذا النداء على أنه استغاثة وطلب العون والمدد من الشيخ الامبابى ، وهو ولى مشهور مدفون بقرية امبابة على الضفة الغربية للنيل ، المواجهة لمدينة القاهرة ، حيث يزرع بقربها أجود أنواع الترمس ٠٠ كما قد يفهم من النداء أن جودة الترمس الذى يبيعه انما ترجع الى بركة سيدى الامبابى . وينادى بائع ترمس آخر قائلا : ترمس امبابه يغلب اللوز ٠ ويقول بائع الليمون : الله يهونها يالمون ٠ وينادى بائع اللب قائلا : يامسلى الغلبان يالب ٠٠ أو يقول (وهو الأكثر شيوعا) :

اللب المحمص !.. وهناك نوع من الحلاوة ينادى عليها البائع نداء عجيبا ، فهو يقول : بمسمار ياحلاوة ! ·· ويقال ان هذا البائع نصف لص ، اذ أن الأطفال والخدم كثيرا مايسرقون من بيوتهم قطع الحديد والعدد والآلات وما اليها ، فيعطونها له فى مقابل قطعة من الحلاوة ·· وينادى بائع انبرتقال قائلا : عسل يا برتقان عسل ! ·· وهذا النداء وما شابهه ، تسمعه من بائعى الفاكهة والخضروات ، بحيث أنه يتعذر عليك فى بعض الأحيان أن تعرف ماذا يبيعون · فالبائع الذى ينادى قائلا : جميز ياعنب ·· لا تعرف أى الفواكه يبيع ، اللهم الا اذا طبقت القاعدة العامة ، وهى أن الفاكهة التى يبيعها هى أقل الفواكه التى ينادى عليها جودة أو نوعا ·· فالرجل هنا يبيع جميزا ، وليس الجميز كالعنب ·· وتباع أزهار شجرة الحناء فى الشوارع ، وينادى البائع قائلا : روايح الجنة ياتمر حنه ·· ومن أعجب النداءات نداء بائع الورد اذ يقول : الورد كان شوك من عرق النبى فتح ·· وهناك نوع من القماش يصنع بوساطة آلة يديرها ثور ، فينادى البائع قائلا : شغل التور يا بنات ··

وماء الآبار فى القاهرة ملح أجاج ، ولذلك يوجد بها عدد كبير من السقايين ، الذين يكسبون عيشهم عن طريق تزويد الأهالى بماء النيل · وفى موسم الفيضان ، أو على الأصح فى فترة الشهور الأربعة التى تعقب فتح الخليج الذى يخترق العاصمة ، فيأتى السقايين بالماء من هذا الخليج · أما فى الأوقات الأخرى فانهم يأتون بالماء من النيل ، ويوضع الماء فى قرب تحملها الجمال والحمير ، واذا كانت المسافة بين مصدر الماء والبيوت قصيرة ، والقربة صغيرة ، فان السقا يحملها الى البيوت بنفسه ، ويسير قائلا : يعوض الله ! وحيثما يسمع هذا النداء يعرف الناس أن السقا يمر فى الطريق ·· والأجر الذى يأخذه السقا فى مقابل حمله قربة ماء ، مسافة قدرها ميل ونصف ميل أو ميلين ، لا يكاد يتجاوز « البنس » الواحد ·

ومن هؤلاء السقايين ، فئة يسقون المارة الماء فى شوارع القاهرة ، ويسمى الواحد منهم « سقا شربة » ·· والقربة التى يحمل

فيها الماء لها صنبور طويل من النحاس الأصفر ، ويصب الماء لمن يريد أن يشرب فى قدح من النحاس أو قلة ··· وهناك فئة أخرى من السقايين كثيرة العدد ، يسمون الحملية ، والواحد حملى ·· ومعظم هؤلاء من الدراويش الذين يتبعون الطريقة الرفاعية أو البيومية ، وهم يعفون من ضريبة الدخل التى تسمى الفرده ·· ويحمل الحملى على ظهره الابريق الذى يبرد الماء للشاربين ، وفى بعض الأحيان يحمل أيضا قلة معطرة بماء الزهر ، الذى يستخرج من أزهار « النارنج » ويسقى منها خير زبائنه ، وكثيرا ما يضع فى فتحة الابريق غصنا من « النارنج » ·· كما يحمل فى العادة جرابا يتدلى الى جانبه ·· وهو يتقاضى من الأغنياء ومتوسطى الحال ، مبلغا يتراوح بين قطعة فضة وخمسة فضة فى مقابل جرعة ماء ·· أما الفقراء فيسقيهم بلا مقابل ، وقد يأخذ منهم كسرة خبز أو أى شىء يؤكل ، فيضعه فى الجراب . ويرى كثير من الحملية والسقايين فى الموالد وغيرها من الاحتفالات الدينية ، التى تقام فى القاهرة وما يجاورها ·· وكثيرا ما يدفع لهم زوار قبر الولى ، الذى يقام له المولد ، بعض المال لكى يسقوا كل من يريد أن يشرب دون مقابل . وهذا النوع من أعمال الخير يسمى « تسبيل » . ويسمح لهؤلاء الحملية والسقايين أن يملأوا أباريقهم أو قربهم من سبيل عام ، لأنهم لا يتقاضون ممن يسقون من الناس أجرا ·· وهم حين يسقون المارة ، يتغنون بنداء يدعون فيه الظمأى من الناس ، أن يشاركوا المحسن الذى استأجرهم فيما يقوم به من خير لوجه الله ، ويدعون لذلك المحسن بأن يكون نصيبه الجنة والمغفرة جزاء ما يفعله من خير ، فيقولون : سبيل الله يا عطشان ·· الجنة والمغفرة لك يا صاحب السبيل ··

وهناك مثل الحملى بائع العرقسوس ، ويسمى العرقسوسى ، وهو يبيع منقوع العرقسوس ، ويحمل جرة من الفخار حمراء اللون فوق جنبه الأيسر ، معلقة بشريط من الجلد وسلسلة ، ويسندها بيده اليسرى ، وقد حشيت فتحتها ببعض الليف من ألياف النخيل ، ويحمل أيضا قدحين أو أكثر من النحاس أو الخزف يدق الواحد بالآخر ·· وكذلك يفعل الشربتلى الذى يبيع الزبيب (منقوع العنب) فيمسك

بيده اليسرى الوعاء الزجاجى الذى تتركب منــه الشيشه ، مملوءا بالزبيب ، وفى يده اليمنى صفيحة كبيرة ، أو ابريق من النحــاس الأحمر ، مملوءا أيضــا بالزبيب ، وعدة قلل من الزجاج . وبعض الشربتلية يحملون فوق رؤوسهم صينية من النحاس المقصدر ، عليها عدد من القلل الزجاجية ، واناء من النحاس الأحمر ، أو سلطانية من الصينى بها « تين مبلول » أو « بلح مبلول » .. وبهذه الطريقــة نفسها يبــاع السحلب والسوبيا ، وهى توضع فى أوان كتلك التى يباع فيها الزبيب ، ويحمل البائع الأكواب التى يشرب منها الناس موضوعة فيما يشبه حوضا من التصفيح ، يمسك بحزام حول وسطه .

وقد سبق أن ذكرنا أن كثيرا من الفقراء فى مدينــة القاهرة ، يكسبون عيشهم عن طريق الطواف بالبيوت لتنظيف الغليون والشيشه والجوزه والنارجيله وغيرها ، ويسمى الواحد منهم « مسلكاتى » .. وهو يحمل معه عددا من الأسلاك الطويلة التى يستعملها فى مهنته ، موضوعة داخل ثلاثة أو أربع عصى أو أنابيب مجوفة ، مربوطة بعضها ببعض ، ومعلقة فوق كتفه .. وهو يتقاضى فى نظير تنظيف الشيشه الواحدة أو الجوزه .. الخ .. ما لا يزيد عن « نص فضة » .

والتسول أيضا حرفة يعيش منها عدد كبير من النساء والرجال من الطبقة الفقيرة ، فى القاهرة وغيرها من المدن . وأكثر هؤلاء نصابون ممقوتون ، ومنهم من يثير منظرهم الألم فى نفس كل شخص رقيق القلب تقع عيناه عليهم ، وهم مع ذلك يكدسون الأموال والمتاع .. وقد عرف الناس هذه الحقيقة من حادثة وقعت هنا منذ بضعة أشهر .. فقد اعتاد فلاح ضرير أن يطوف متسولا فى شوارع القاهرة ، تقوده ابنته ، يكاد كل منهما أن يكون عاريا من الثياب .. وكان الفــلاح يأخذ معه الى بيته كل ليلة متسولا تركيا ضريرا ، لــكى يتناول معه طعام العشاء .. وفى مساء ذات يوم جاء المتسول التركى ، ولم يكن الرجل بالبيت ، ولــكن كانت ابنته هناك ، فأعدت له طعام العشاء ، وجلس يأكل وحده .. وحدث وهو يمد يده للطعام أن وقعت على جرة مليئة بالنقود .. ولم يتردد الرجل .. فحملها ورحل بها .. وكانت الجرة تحوى مقدارا من المــال يبلغ مائة وعشرة أكياس ، أى ما يزيد

على خمسمائة وخمسين جنيها انجليزيا ، اذ الـكيس خمس جنيهات ، كلها « خيريات » من الذهب ، كل خيرية قيمتهـا تسعة قروش ٠٠ فذهب المتسول الذى سلب ماله الى القلعة يشكو ، فردت اليه أمواله الا أربعين خيرية كان اللص قد أنفقهـا ٠٠ ولـكن حرم على الرجل التسول بعد ذلك ٠

وكثيرا ما يشاهد الأطفال فى مدينـة القاهرة عرايا تماما ، وقد رأيت مرات عديدة فتيات من سن الثانية عشرة الى سن العشرين فما فوقها ، لا يستر أجسامهن سوى خرق بالية ، يتسولن فى شوارع هذه المدينة ، لا يؤثر فى أجسامهن زمهرير البرد فى الشتاء ولا قيظ الشمس المحرقة فى الصيف ، اذ اعتادتهما أجسامهن منذ الطفولة ٠٠ وليس المتسولون فى مصر على درجة من البؤس كتلك التى يدل عليها مظهرهم ، ويراها عليهم الأجانب ، فعندهم المساجد يبيتون فيها اذا شاءوا ، وهم واثقون من الحصول على الطعام والنقود بالقدر الذى يقيم أودهم ، لما يمتاز به مواطنوهم من حب الخير والاحسان ، لأن من عادة التجار أن يتناولوا طعامهم فى دكاكينهم ، فيعطون السـائل مما يطعمون منه ٠٠ وكثير من المتسولين ينفقون معظم ما يكتسبونه وجه النهار على متعـة تدخين الحشيش اذا جن الليـل ، فيشعرون ـ فى تخيلاتهم ـ أنهم أسعد خلق الله أجمعين ٠٠

والنداء الذى ينادى به المتسولون ، هو فى العادة توسلات الى الله ، وأكثرهم يقولون : يامحنن يارب ! ٠٠ لله يامحسنين ٠٠ أنا طالب من عند ربى رغيف عيش ٠٠ ياما انت كريم يارب ! ٠٠ أنا ضيف الله والنبى ٠٠ واذا كان الوقت ليلا يقول : عشـاى عليك يارب ! ٠٠ وفى ليلة الجمعة يقول : ليلة الجمعة الفضيلة ٠٠ وفى يوم الجمعة يقول : يوم الجمعة الفضيلة ٠٠ وهناك متسول كان يمر ببيتى كل يوم ، وكان يقول : خلى تكالك على الله ٠٠ لا اله الا الله ٠٠ وأسمع الآن امرأة تقول : عشاى عليك يارب ٠٠ حسنة من ايد مؤمن كريم موحد بالله يا أسيادى ٠٠ ولا يستطيع المرء أن يعطى لـكل من هؤلاء المتسولين صدقة ، لـكثرة عددهم ، فيقول لهم : الله يساعدك ٠٠ الله يرزق ٠٠

الله يعطيك ·· الله يغنيك ·· ولا يرجع عنك المتسول الا اذا قلت هذا القول أو مثله ··

ومن المناظر المـألوفة فى شـوارع القاهرة المطروقة ، أن ترى المتسول ــ سواء كان رجلا أو امرأة ــ ممسكا بيده رغيفا من الخبز يسأل الناس أن يعطوه ثمنه ·· ويسير وراءه بائع الخبز ! ·· وبعض المتسولين ، وبخاصة الدراويش ، يطوفون فى الشـوارع ينشدون القصائد فى مدح النبى يدقون الصنجان ، أو يضربون على الطبول ·· وفى الريف ، يذهب الدراويش من قرية الى أخرى يسألون النـاس صدقة ·· وقد رأيتهم يطوفون على ظهور الخيل ·· وقد رأيت منذ عهد قريب أحد هؤلاء يمتطى جوادا ، ويسير معه رجلان يحمـل كل منهما علما ، ورجل ثالث يضرب على الطبلة ·· وهم يسألون الناس أن يعطوهم خبزا ··

وأهم حرفة يشتغل بها سواد المصريين المعاصرين ، هى الزراعة ، ومعظم الأراضى الصالحة للزراعة يخصبها تفيضان كل عام ، أما الأراضى القريبة من النيل أو الترع الكبيرة فتروى بواسطة الشـادوف والساقية ، وهذه الأخيرة تكاد تكون الآلة الوحيدة التى تروى بهـا الحدائق فى مصر ·· ثم هناك التابوت ، وتروى به الأراضى الواقعة فى الشمال ، والتى يحتاج فيها الى رفع المـاء لبضعة أقدام فقط ، والنورج والمحراث ·· وكلها آلات بدائية بسيطة ··

وأخيرا ·· تكملة لتلك القائمة التى طالعتك فى بداية هذا الفصل ، أورد هنا بيانا بالنفقات السنوية ، التى تحتاجها أسرة من الطبقـة المتوسطة ·· مكونة من رب العائلة وثلاثة أشخاص :

	قرش
قمح ــ ثمانية أرادب	٤٠٠
طحين القمح	٥٠
الخبـز	٤٠
لحم من رطل الى رطلين ونصف فى اليوم (أى قرش ونصف)	٥٥٠
خضروات بنصف قرش فى اليوم	١٨٥
أرز	١٠٠

سمن – قنطاران	٣٢٥
بن	١٨٥
تبغ (جبلى)	٢٠٠
سكر – نصف قنطار	١٠٠
مـاء	١٠٠
خشب وقود سبع حمايل (حمولة الحمار)	٧٥
فحم حطب	١٠٠
بترول (لمصباحين أو ثلاثة) قنطار	١٢٥
شـــموع	١٠٠
صـــابون	٩٠
الجمـلـة	٢٫٧٢٥

أى أن النفقات الأسبوعية تبلغ اثنين وخمسين قرشا وأربعة مليمات والنفقات اليومية سبعة قروش ونصف ..



المواسم والأعياد

- الجن الذى يتخذ شكل السقا ويوزع الذهب !
- سجادة آدميـة من الدراويش يوم « الدوسة » !
- البحر أوفى ٠٠ أوفا الليه !

من خلال الاحتفالات التى تقام فى القاهرة ، تتضح لنا أبرز عادات المصريين وأكثرها غرابة ٠٠ ومعظم هذه الاحتفالات تقام فى مواسم معينة من السنة القمرية ٠٠

وتعد الأيام العشر الأولى من شهر محرم ، وبخاصة اليوم العاشر منها ، أياما مباركة يمجدها المصريون ، وتباع فيها الميعة المباركة التى يستعملونها فى السنة الجديدة لدفع أذى العين ، كلما دعا داع اليها ٠٠ ٠٠ ومن عادة المصريين أنهم يدفعون صدقة فى شهر محرم ، وفى الأيام العشر الأولى واليوم العاشر منه بوجه خاص ، وفى تلك الأيام العشرة تخرج كثيرات من النساء فى مدينة القاهرة ، حتى أولئك اللاتى ينتمين الى أسرات محترمة ، كل واحدة تحمل طفلها على كتفها ، أو تحمله لها أخرى ، وتستوقف كل رجل حسن الهندام ، وتسأله أو تدع الطفل يسأله صدقة ، فتقول أو يقول : ياسيدى ٠٠ زكا العشر ٠٠ فيدفع الرجل لها خمسة فضة ٠٠ والنقود التى تجمع بهذه الطريقة ، يشترين بها حلوى وما اليها ، ولكنها فى العادة تحاك فى طاقية الطفل ، كتعويذة تقيه شر الحسد حتى يأتى العام التالى ٠٠

وتؤمن النساء فى مصر ، وفى مدينة القاهرة بصفة خاصة ، بخرافات عجيبة تتعلق بالأيام العشرة الأولى من شهر محرم ، فهن يعتقدن أن الجن يزورون فيها بعض الناس ، ويظهر أحدهم على هيئة سقا ويتخذ شكل البغل ٠٠ والجنى الذى يتخذ هيئة السقا يسمى «سقا العشر» .. وذلك الذى يتخذ شكل البغل يسمى «بغل العشر» ٠٠ وحين يجىء الجنى فى هيئة السقا ، يطرق باب حجرة النوم ، فيقول النائم : من هناك ؟ فيجيب السقا قائلا : أنا السقا ٠٠ أفرغ فين ؟ ٠٠ فيدرك النائم أنه من الجن ، اذ لا يأتى السقا بماء فى الليل ٠٠ ولذلك فهو يقول : فرغ فى الزير ٠٠ وحين يخرج الرجل الى الزير بعد ذلك يجدها مليئة بالذهب .. أما الجنى الذى يتخذ شكل البغل، فيصفونه وصفا عجيبا أخاذا ٠٠ فهو يحمل خرجين مليئين بالذهب ، وعلى ظهره رأس رجل ميت ، وحول عنقه خيط به أجراس صغيرة يهزها لدى باب حجرة نوم من يذهب اليه ليجعله ثريا ٠٠ فيخرج اليه ذلك

المحظوظ ، فيزيح رأس الرجل الميت ويفرغ الخرجين مما بهما من أشياء ثمينة ، ثم يملأهما بالقش أو النخالة أو غيرهما ، ويعيدهما ورأس الميت الى موضعهما من البغل ، ثم يقول له : اذهب يامبارك ٠٠ وهذه هى الطريقة التى يدفع بها الخيرون من الجن زكاتهم ٠٠ وكم من امرأة جاهلة تبتهل الى الله فى الأيام العشر الأولى من شهر محرم ، وهى تقول : يارب ابعت لى سقا العشر ٠٠ أو تقول : ابعت لى بغل العشر ٠٠ أما الرجال فيضحكون من تلك الخرافة ٠٠

ويقول بعض الناس من أهل القاهرة : ان جماعة من الجن يظهرون على هيئة البشر ، ويلبسون لباسهم ، قد اعتادت أن تقيم سوقا فى الأيام العشر الأولى من محرم ، فى شارع يسمى الصليبة ، فى الجزء الجنوبى من العاصمة أمام ناووس قديم ، كان يسمى الحوض المرصود ٠٠ وكان هذا السوق يقام فى منتصف الليل ٠٠ وكان الناووس فى فجوة ، تقع تحت عدد من السلالم ، تقود الى باب مسجد مجاور للقصر القديم الذى يعرف بقلعة الكبش ٠٠ وقد نقله الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر ، وهو الآن فى المتحف البريطانى ٠٠ ويقال انه منذ نقل الناووس لم يعد الجن يقيمون سوقهم ٠٠ وقد قيل لى ان قليلا من الناس هم الذين كانوا على علم بتلك العادة ٠٠ وكل من مر ، بطريق الصدفة ، فى الشارع الذى يقيمون فيه السوق فاشترى منهم شيئا ، سواء كان بلحا أو فاكهة أخرى ، أو كعكا أو خبزا ، تحول ما اشتره فى الحال الى ذهب ٠٠

والعاشر من محرم يسمى « يوم عاشوره » ٠٠ ويقدسه المسلمون لعدة أسباب ، ذلك لأنه يقال انه اليوم الذى التقى فيه آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة ٠٠ وانه اليوم الذى خرج فيه نوح من الفلك ٠٠ ويقال أيضا ان أحداثا عظيمة قد وقعت فى ذلك اليوم ، كما أن العرب قبل زمن النبى كانوا يصومونه ٠٠

ولكن الذى يضفى على ذلك اليوم تلك القداسة الكبيرة ، هو فى رأى معظم المسلمين المحدثين ــ وبخاصة أهل فارس ــ أنه اليوم الذى قتل فيه الحسين حفيد الرسول مستشهدا فى موقعة سهل

كربلاء ·· وكثيرون من المسلمين يصومون هذا اليوم ، وبعضهم يصوم أيضا اليوم الذى يسبقه ··

وفى أواخر شهر صفر ، تصل الى القاهرة قافلة الحجاج المصريين عائدة من مكة ، ولذلك فان الاسم الدارج لهذا الشهر هو « نزلة الحج » ·· وقبل عودة القافلة بأربعة أو خمسة أيام ، يصل « شاويش الحج » ·· فهو يسبق القافلة ومعه اعرابيان ·· ويركب كل منهم هجينا سريعا ليعلنوا قدوم الحج ، واليوم الذى يتوقع فيه وصوله ، ولكى يسلموا الرسائل التى يحملونها من الحجاج الى أصدقائهم ·· ويصيح شاويش الحج ورفيقاه فيمن يعترضون طريقهم من المارة قائلين : الصلاة على النبى ·· أو يقولون : صلى على النبى ·· وكل من يسمع قولهم هذا يقول : اللهم صلى عليه ·· ويتقدم ثلاثتهم نحو القلعة ، ليبلغوا الباشا أو نائبه نبأ اقتراب قافلة الحج ·· ويقسم الشاويش ما يحمله من رسائل ــ فيما عدا ما يخص الكبراء والأثرياء منها ــ الى حزم ، يبيع كل حزمة بمقدار من الدولارات لعدد من الناس ، يوزعونها على أصحابها ويأخذون منهم الهدايا ، وقد لايأخذون شيئا فيخسرون الصفقة · أما الشاويش فيوزع على الكبراء والأثرياء رسائلهم ، فيعطونه المنح السخية من مال أو شيلان أو غيرها ··

وكثير من الحجاج يأتون معهم بالهدايا من الأرض المقدسة ·· ومن هذه : الماء من بئر زمزم ، وقطع من كسوة الكعبة ، وتراب من قبر الرسول على شكل قرص صلب ·· كما يأتون باللبان والليف ، وعود الند والسبح ، والمساوك والكحل والشيلان ، وغير ذلك مما يصنع فى الحجاز ، وأشياء مختلفة مما يصنع فى الهند ··

ومن العادات الشائعة ، أن يزخرف بيت الحاج ويزين قبل عودته بيوم أو يومين أو ثلاثة ·· فيدهن الباب ، وتلون الحجارة من حوله ، أو يزخرف مدخل البيت بخطوط أفقية عريضة ، من اللونين الأحمر والأبيض ·· وترسم أشجار وجمال بطريقة بدائية ·· وفى مساء يوم عودته ، يدعو الحاج أصحابه الى وليمة تسمى وليمة النزلة ·· ويتوجه اليه فى داره أناس كثيرون يهنئونه ويرحبون به ، ويقول

كل منهم : ادع لى بالمغفرة ·· ويمكث الحاج فى بيته لا يبرحه أسبوعا بعد عودته ·· وفى اليوم السابع يولم لأصدقائه وليمة أخرى تسمى وليمة السبوع ، وفى المساء يقيم ختمة أو ذكرا ··

وفى صباح اليوم التالى من عودة قافلة الحجاج الى العاصمة ، تحتفل البلاد بعودة المحمل ، ويسير موكب المحمل من الحصوة الى القلعة مخترقا شوارع العاصمة ·· ويحكى أن السلطان الظاهر بيبرس ملك مصر ، هو أول من أرسل محملا مع قافلة الحجاج الى مكة ، وذلك فى سنة ٦٧٠ هجرية ·· ولكن يقال أن تلك العادة ترجع فى أصلها الى بضع سنوات سبقت اعتلاءه العرش .. فقد كانت « شجرالدر » أو كما يسمونها « شجرة الدر » جارية تركية ، اتخذها السلطان الصالح نجم الدين زوجة له ، وأصبحت أثيرة لديه ·· وبعد موت ابنه أعلنت نفسها ملكة على مصر ، وذهبت تؤدى فريضة الحج فى هودج عظيم يحمله جمل ·· وظل هودجها بعد ذلك يصحب قافلة الحجاج فارغا لبضع سنين تلت ، حتى يكون للموكب صبغة رسمية ·· ثم تعاقب الأمراء على حكم مصر ، وكان كل منهم يرسل مع قافلة الحجاج فى كل عام هودجا أطلق عليه اسم المحمل ، كشعار للملكية ··

وحين يبدأ شهر ربيع الأول ، تأخذ البلاد فى الاستعداد للاحتفال بمولد النبى ·· ويقام الاحتفال عادة فى الجزء الجنوبى الغربى من الفضاء الواسع المعروف ببركة الأزبكية ·· وهذا الفضاء تغمره مياه النيل فى موسم الفيضان ، فيتحول الى بركة ·· وحينذاك يقام الاحتفال بمولد النبى على حافة البركة ·· ولكن البركة جافة هذا العام ، ولذلك يقام الاحتفال فيها (١) .. وينصب الدراويش « صواوينهم » التى يقيمون فيها الأذكار كل ليلة · وانى أصف هنا المولد كما رأيته عام ١٢٥٠ هجرية ـ ١٨٣٤ ميلادية ..

فى أثناء النهار ، يتجمع الناس فى مكان الاحتفال ، يستمتعون

---

(١) هذه البركة قد ردمت بعد ان كتبت هذا الجزء من الكتاب ، وتحولت الا حديقة ·· ويقام الاحتفال بالمولد الآن ، فى الارض التى تمتد من الجانب الغربى من البقعة التى كانت تشغلها البركة ·

بالاستماع للشعراء الذين يروون سيرة أبى زيد الهلالى ، ويتفرجون على الحواة والبهلوانات والمهرجين ٠٠ ولا تشترك الغوازى برقصهن فى المولد ، كما كان الحال من قبل ، فقد أرغمن على التوبة والاقلاع عن ذلك .. وتشاهد فى الشوارع المجاورة بعض الأراجيح بأنواعها المختلفة ، وعدد لا حصر له من الدكك التى تباع عليها الحلوى والأطعمة المختلفة ٠٠ وكان الراقصون على الحبال من الغجر يعرضون ألعابهم فى المولد ، ولكنهم لا يشاهدون هذا العام ٠ وفى الليل ، تتلألأ أضواء المصابيح فى هذه الشوارع ٠٠ وتفتح الدكاكين التى تزخر بالأطعمة والحلوى أبوابها طوال الليل ٠٠ وكذلك المقاهى التى يتسلى الناس فيها بالاستماع للشعراء والمحدثين ٠٠ وبعد منتصف الليل تمر مواكب الدراويش ، وهم لا يحملون الأعلام التى يحملونها أثناء النهار ، وانما يحملون سوارى طويلة ، تنتهى فى أعلاها بعدد من المصابيح ٠٠ وهذه هى « المناور » ٠٠ ويسمى موكب الدراويش « الاشارة » سواء كانوا يحملون الأعلام نهارا أو المناور ليلا ٠٠

وفى اليوم السابق لليلة المولد ، ذهبت الى الأزبكية قبل الظهر بنحو ساعة ، فلم أجد الا قليلا من الناس ، ولم يكن هناك من وسائل التسلية سوى اثنين أو ثلاثة من الحواة والمهرجين والشعراء ، قد تجمع حول كل منهم عدد من المتفرجين والمستمعين ٠٠ ثم أخذ الزحام يشتد شيئا فشيئا ٠٠ ذلك لأن الناس سيشهدون اليوم مشهدا عجيبا أخاذا ٠٠ مشهدا يجتذب اليه فى مثل هذا اليوم من كل عام ، جماهير غفيرة من كل حدب وصوب ٠٠ ذلك المشهد هو مايعرف « بالدوسة » ٠٠

ففى الليلة السابقة لليلة المولد ، خلا السيد محمد المنزلاوى الى نفسه يردد أدعية وابتهالات معينة وآيات من القرآن ٠٠ والسيد محمد المنزلاوى هو شيخ الدراويش السعدية ، وخطيب مسجد الحسين ٠٠ وبعد أن انتهى من قراءاته ، خرج من الخلوة وذهب الى مسجد الحسين ليلقى الخطبة ، ويؤم الناس فى الصلاة ، اذ اليوم يوم الجمعة ٠٠ حتى اذا قضيت الصلاة ، ذهب راكبا الى منزل الشيخ البكرى ، الذى يرأس جميع طوائف الدراويش فى مصر ٠٠ ويقع

منزل الشيخ البكرى فى الجزء الجنوبى من بركة الأزبكيـة ٠٠ وفى طريقه من المسجد الى منزل الشيخ البكرى ، كانت تنضم اليه طوائف عديدة من الدراويش السعدية ، من أحيـاء متفرقة من العاصمة ٠٠ وأهل كل حى منهم يحملون علمين ٠٠ والشيخ محمد المنزلاوى رجل مسن ، أشيب اللحية ، لطيف المحيا ، تلوح عليه مخايل الذكاء ٠٠ وكان يرتدى فى ذلك اليوم « بنش » أبيض اللون ، وفوق رأسـه « قاوون » أبيض ، تلتف حوله عمامة من موسلين زيتونى قاتم ، يكاد يبدو أسود اللون ٠٠ وفى الجزء الأمامى منها شريط من الشـاش الأبيض ، قد ربط ربطا مائلا .. ويركب جوادا متوسط الارتفـاع والوزن ٠٠ وأنا أذكر وزن الحصان لسبب سيتضح فيما بعد ٠٠

ودخل الشيخ بركة الأزبكية ، يسبقه موكب هائل من الدراويش الذين ينتمون الى طائفته ٠٠ ثم توقف الموكب على مسافة قصيرة من بيت الشيخ البكرى ٠٠ وهنا ، رأيت عددا كبيرا من الدراويش وغيرهم يبلغون الستين أو ضعف هذا العدد ، قد أخذوا يلقون أنفسـهم على الأرض ، الواحد الى جانب الآخر متلاصقين ٠٠ ظهورهم الى أعلا ، وأرجلهم ممددة ، وأذرعهم منثنية تحت جباههم ٠٠ وكلهم يرددون بلا انقطاع كلمة « الله » ٠٠ ثم أخذ نحو اثنى عشر درويشا أو أكثر ، وقد خلعوا نعـالهم ، يجـرون فوق ظهور زملائهم المنبطحين على وجوههم ، وبعضهم يضرب على الباز ، وهم يصيحون قائلين : الله ٠٠ ثم اقترب الشيخ ٠٠ وتردد الجواد بضع دقائق ٠٠ وأحجم عن أن يطأ أول رجل منبطح أمامه ٠٠ فأخذوا يدفعونه ويسـتحثونه من خلفه ، حتى أطاع فى النهاية ٠٠ وأخذ فى غير خوف ولا وجل يمشى فوق ظهورهم جميعا مشية الرهوان ، فى خطوة قوية ، يقوده رجلان كانا يجريان فوق المنبطحين من الرجال .. ويدوس أحدهما فوق الأقدام ، والآخر فوق الرؤوس ٠٠ وانطلق المتفرجون فى صيحة طويلة يقولون : الله ٠٠ لا لا لا لا لاه ٠٠ ولم يصب أحد من المنبطحين بأذى ، فكان كل منهم يهب واقفا بمجرد أن يمر فوقه الجواد ، ثم يسير وراء الشيخ ٠٠ وكان كل رجل من المنبطحين يتلقى من الجواد وطأتين ، واحدة من احدى رجليه الأماميتين ، والأخرى من احدى رجليه الخلفيتين ٠٠ ويقال ان الشيخ ، وهؤلاء الرجال « يستعملون أسماء » ٠٠ أى

يرددون أدعية وابتهالات فى اليوم السابق للدوسة ، حتى يستطيعوا أن يتحملوا وطأ الجواد دون أن يصابوا بأذى .. ولذلك يقال ان بعض الناس ، ممن لم يعدوا أنفسهم ذلك الاعداد ، يخاطرون بالاشتراك فى الدوسة . ومثل هؤلاء قضى عليهم وأصيبوا باصابات بالغة فى أكثر من حادثة .. ويقال ان هذا العمل انما هو معجزة ، قد وهبها الله لكل شيخ من مشايخ السعدية على التعاقب (١) .. ويؤكد بعض الناس أن الجواد تخلع عنه حدوته قبل قيامه بالدوسة ، ولكنى رأيت بنفسى أن ذلك زعم غير صحيح . وهم يزعمون أيضا ان الجواد يدرب على ذلك ، واذا صح زعمهم ، فذلك يفسر ناحية واحدة منه ليست هى التى تدعو الى الدهشة ، وتدل على الاعجاز ، وأعنى بها وطأ الجواد الأجسام البشرية ، مع ماهو معروف عن هذا الحيوان من كراهية ذلك العمل" ..

وبعد أن أتم الشيخ هذا العمل الخارق ، دون أن يصاب شخص واحد بأذى ، عبر بجواده الحديقة ودخل منزل الشيخ البكرى لا يصحبه سوى عدد صغير من الدراويش .. وتبعته الى الباب ، وسمح لى الخادم بالدخول ... وانضممت الى الجموع التى فى الداخل وترجل الشيخ ، ثم جلس فوق سجادة قد فرشت بحذاء الحائط الخلفى للتختبوش ، الذى يقع فى فناء الدار . جلس وقد انحنى ظهره ، وارتسم اليأس على محياه ، والدموع تترقرق فى مآقيه ، وهو لا يفتأ يتمتم بالتسبيح والدعاء . واتخذت موقفى بالقرب منه حتى كدت ألاصقه .. وجلس معه ثمانية رجال .. أما الدراويش الذين جاءوا معه ، والذين يبلغون العشرين عددا ، فقد وقفوا أمامه على شكل نصف دائرة فوق حصير قد فرش لهم .. ووقف حولهم خمسون أو ستون رجلا .. وتقدم منه ستة من الدراويش ، وقد ابتعدوا عن نصف الدائرة نحو ياردتين ، ثم بدأوا فى الذكر .. وأخذوا جميعا يصيحون فى وقت واحد قائلين : الله حى ! .. ويضرب كل منهم عند صيحته

---

(١) يقال ان ثانى مشايخ السعدية الذى خلف الشيخ مؤسس الطريقة . كان يسير بجواده فوق اكوام من القوارير الزجاجية ، فلا تنكسر منها واحدة .

تلك بسير قصير من الجلد على الباز ، الذى يمسكه بيده اليسرى من عقدة فى أسفله ·· وظلوا يفعلون ذلك بضع دقائق ·· ثم اندفع الى وسط الدراويش عبد أسود أصبح « ملبوسا » وأخذ يصيح : الله لا لا لا لا لا لاه ·· وأمسك به أحد الناس ، وما لبث أن أفاق ·· ثم بدأ الدراويش كلهم ، الذين يقفون فى نصف الدائرة ، فى ذكر جديد ·· فيصيح كل « ذكير » على التوالى قائلا : الله حى ويرد الباقون قائلين : ياحى ·· وعند كل صيحة ينحنون مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال ·· وأخذوا يفعلون ذلك بضع دقائق ·· ثم تغيرت الصيحة ، فأخذ كل منهم يقول على التوالى : دايم ·· فيرد الذكيرة يادايم ·· ثم توقف الذكر ، وأخذ أحد الناس يتلو بعض آيات من القرآن ·· ثم استؤنف الذكر من جديد ، وظل مايقرب من ربع الساعة · ثم أخذ معظم الحاضرين من الدراويش يقبلون يد الشيخ ·· وصعد الشيخ بعد ذلك الى الطابق العلوى ·

وكان من عادة السعدية أنهم فى مثل ذلك اليوم ، بعد انتهاء الدوسة ، يعرضون أعمالهم الخارقة التى اشتهروا بها ، وهى أكل الثعابين حية ، أمام جمع من الناس فى منزل الشيخ البكرى · ولكن شيخهم الحالى قد وضع حدا لتلك العادة ، فلم يعد يمارسها أحد فى مدينة القاهرة ، على اعتبار أنها مخالفة للدين وتبعث الاشمئزاز فى النفوس ···

وفى الليلة التالية ، وهى ليلة المولد ، ذهبت الى مكان الاحتفال ·· فشاهدت ذكرا آخر على الطريقة البيومية ·· وانتهى الاحتفال بمولد النبى حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر ···

وفى شهر ربيع الثانى يقام مولد الحسين ·· وهو أشهر الموالد بعد مولد النبى ··· ويظل الاحتفال به قائما خمس عشرة ليلة ·· والليلة الكبيرة هى ليلة الأربعاء ··· وفى كل ليلة من تلك الليالى ، يضاء المسجد بعدد هائل من المصابيح والشموع السميكة ، التى قد يصل طول بعضها الى خمسة أو ستة أقدام ·· ويتولى الاضاءة فى الليلة الأولى ناظر المسجد ، من الأموال المخصصة للمسجد ، وفى

الليلة الثانية يتولاها حاكم العاصمة ، وهو فى الوقت الحاضر حبيب أفندى ·· وفى الليالى التالية يتولاها مشـايخ الدراويش من طرق معينة ، وبعض كبار موظفى المسجد والأثرياء من أفراد الشعب ·· والدكاكين التى تبيع المـأكولات والشربات ، وكذلك المقاهى المجاورة للمسجد ، وحتى تلك التى تقع فى الأحياء الأخرى ، تفتح كلها أبوابها حتى الصباح ·· والشوارع التى حول المسجد تعج بأناس يتسكعون ، أو هم للمغنين والشعراء يستمعون ·· والمسجد غاص بالزائرين ، وفى ناحية من الرواق الـكبير ، نرى جماعة من الناس يجلسون على الأرض فى صفين ، كل صف يواجه الآخر ، وهم جميعا يتلون سـورا من القرآن ·· وهذا هو ما يعرف « بالمقرأ » ·· وقد يكون بالمقرأ عدة جماعات أخرى ، منها من يقرأ أدعية بعينها ، ومنها من يكون حلقـة « دلائل الخيرات » الابتهـالات والصلوات على النبى ·· وهنا وهناك جماعات أخرى ، منها ما يقرأ أدعية بعينها ، ومنها من يكون حلقـة للذكر ·· وبين هؤلاء وهؤلاء جميعا ، يسير الزوار أو يجلسون على الحصير ، وقد جاءوا الى ذلك المكان الطاهر يدفعهم تدينهم وتقواهم ·· أو يدفعهم حب الاستطلاع ، أو الرغبـة فى التسلية والترفيـه عن أنفسهم ·· ويتجمع الدراويش وغيرهم فى « القبة » يتلون الأدعية والابتهالات ·· ويدخل الزوار الى الضريح فيقرأون الفاتحة ·· ولـكن يتجمع الناس أكثر ما يتجمعون فى الرواق الـكبير ، حيث تقـام الأذكار وغيرها من مظاهر الاحتفالات ··

وفى كل ليلة من ليالى المولد ، يشـاهد موكب الدراويش الذى يسمى « الاشارة » ·· وهو يمر مخترقا شوارع العاصمة ، حتى يصل الى مسجد الحسين يسبقه الرجال بالطبل والزمر والصنجات ، ويشترك فى الاشارة حاملو المشاعل الذين قد يحملون أيضا فانوسا أو أكثر ·· وتقف الاشارة عند بيت كل درويش من دراويش الطريقـة صاحبة الاشارة ، فينضم الى زملائه فى الموكب ·· واذا مرت الاشارة بضريح أحد الأولياء ، يتوقف الطبل والزمر ويقرأ الدراويش الفاتحة وبعض الصلوات على النبى ، دون أن يتوقفوا عن المسير ·· حتى اذا بلغوا المسجد دخلوه ، وبعضهم يحمل الشموع ، ويزورون الضريح ·· ثم

ينصرفون فيما عدا شيخهم ، ومعه قليل منهم ، اذ يبقى هؤلاء فى القبة ويشتركون مع بقية الدراويش فى الدعاء والابتهال ..

ودخلت المسجد فوجدته أشد ازدحاما من الليالى السابقة .. وكان يتردد فى جنبات الرواق الكبير طنين عال مختلط ، ولم يكن يرى أو يسمع ما يدل على وجود احتفال دينى بالمسجد .. ثم تناهت الى سمعى من انطرف لآخر من الرواق أصوات الدفوف ، يضرب عليها الدراويش من طائفة العيسوية .. فشققت طريقى اليهم .. وكان الوقت بعد الغروب بنحو ثلاث ساعات ..

وقبل أن أصف الأعمال التى يؤتيها العيسوية ، يجدر بى أن أذكر أنهم طائفة من الدراويش ، كلهم أو جلهم من المغاربة .. ويسمون العيسوية نسبة الى أول شيخ لهم ، اذ كان يدعى سيدى محمد ابن عيسى ، وكان مغربيا ... والعيسوية يؤتون أعمالا خارقة ، وأحد هذه الأعمال يثير الدهشة ويبعث على العجب ...

فقد رأيت عشرين من هؤلاء الدراويش ، فى ملابس متباينة ، يجلسون على الأرض متلاصقين ، على شكل حلقة ، الى جوار الحائط الأمامى للمسجد ... وكان كل منهم – فيما عدا اثنين – يضرب على « طار » كبير ... وهو يختلف عن الطار العادى ، فى أنه خال من القطع المعدنية التى تحدث الجلجلة .. أما هذان الاثنان فكان أحدهما يضرب على طار صغير من النوع العادى ، والآخر يضربه على الباز .. وحين بدأ الطبل اندفع ستة من الدراويش كانوا يقفون أمام الحلقة ، فى رقصة عجيبة ، وهم يصيحون قائلين : الله ... أو يقولون : الله مولانا .. ولم يكن فى رقصهم اتساق ولا نظام ، فكانوا يقفزون الى أعلى ثم يهبطون ، ويلفون ويدورون ، ويلوحون بأيديهم باشارات عجيبة ، وفى بعض الأحيان يصرخون ويعولون .. ولو رآهم رجل أجنبى غريب ، لظن أنهم يتبارون فيما بينهم أيهم يكون خير المهرجين ، ومما يؤكد ظنونه تلك الملابس العجيبة التى يلبسونها ، فقد كان أحدهم يلبس قفطانا بلا أكمام ، أو منطقة ، ورأسه عار وشعره لم يحلق منذ أسبوع ... وكان آخر يلبس فوق رأسه طاقية بيضاء ،

ولكن جسمه من الرأس الى الوسط كان عاريا ، ولم يكن يرتدى سوى سروال فضفاض • وأخذ أولهما ، وهو رجل أسمر نحيل فى أواسط عمره ، يرقص هذا الرقص العجيب بضع دقائق ، وأخذت حركاته تزداد عنفا ، ثم اندفع الى داخل الحلقة التى يقف فيها الدراويش ممن يضربون على الدفوف •• وفى وسط الحلقة قد وضع « منقد » ملىء بالفحم المتقد •• واندفع الرجل فاختطف منه قطعة متوهجة وألقى بها فى فمه ، ثم أتبعها بثانية وثالثة ورابعة ، حتى امتلأ فمه ، ثم أخذ يمضغها فى أناة وعلى مهل •• وهو يفتح فاه مع كل مضغة ، حتى يرى الناس ما فيه ، وبعد نحو ثلاث دقائق ابتلع الفحم المتوهج دون أن يبدو عليه أثر من ألم •• بل انه بدا وهو يمضعه ، وبعد أن ابتلعه ، أكثر نشاطا وحيوية •• وأما ثانيهما ، الذى كان عارى الجسم الا من سراويل ، فقد كان جسمه قويا بديع التكوين ، وكان فى مقتبل العمر •• وأخذ يرقص كما رقص زميله ••• ثم أخذت حركاته تزداد عنفا ، حتى بلغ به الحماس مبلغا جعل أحد زملائه من الدراويش يمسك به ، ولكنه تخلص من قبضته ، واندفع نحو المنقد فانتزع أكبر قطعة من الفحم فيه وألقى بها فى فمه ••• وظل فاغرا فاه نحو دقيقتين ، وكانت قطعة الفحم وهو يشهق تبدو بيضاء من شدة سخونتها ، وحين يزفر يخرج من فيه شرر لا حصر له .. ثم أخذ يمضغها ، وما لبث أن ابتلعها ••• وعاد الى الرقص من جديد •• واستغرق هذا كله من الدرويشين نصف ساعة ••• ثم توقف الضرب على الدفوف لكى يستريحوا •••

وفى مولد الحسين أيضا ، يقدم العيسوية على أكل الزجاج والنار •• ومن أشهر آكلى الزجاج والنار من العيسوية الحاج محمد السلاوى ، وهو رجل ضخم البنيان كان يقوم باشعال المصابيح فى مسجد الحسين ، وقد مات منذ بضع سنين خلت ••• ويقال انه كان اذا اشتد به الحماس يقفز الى القضبان أو العوارض ، التى تمتد ما بين العقود فوق أعمدة المسجد •• وهى على بعد ستة عشر قدما أو أكثر من الأرض •• كان يقفز الى العوارض فيجرى فوقها الواحدة بعد الأخرى ••• ثم يبلل

اصبعه بريقه ويضرب به ذراعه ، فيجعل الدم يسيل منه ٠٠ ثم يبلله مرة أخرى ويضرب ذراعه ، فيوقف تدفق الدم منه ٠٠

والليلة التى يتوقع أن يبدأ صبيحتها شهر رمضان ، تسمى ليلة « الرؤية » وفى أثناء النهار ــ بعد الظهر أو قبل ذلك ــ يرسل عدد من الأشخاص الى مسافة تبلغ بضع أميال فى الصحراء ، حيث الهواء شديد الصفاء .. وذلك لكى يشاهدوا هلال الشهر الجديد .. اذ يبدأ الصوم عقب اليوم الذى يرى فيه الهلال ٠٠ فاذا حالت دون رؤيته سحب فى السماء ، فان الصوم يبدأ بعد مرور ثلاثين يوما من بدء الشهر السابق ٠٠ وتكفى شهادة مسلم واحد برؤية القمر لاعلان الصوم ٠٠ وفى المساء يبدأ موكب الرؤية ٠٠ ويسير فيه المحتسب ، ومشايخ الحرف المختلفة ٠٠ وهم مشايخ الطحانين والخبازين والجزارين والزياتين والفكهانية ٠٠ ومعهم عدد من أهل هذه الحرف ، وجماعة من الموسيقيين وبعض الفقراء ٠٠ ويسير فى طليعة الموكب كما يتخلله مجموعات من الجنود ٠٠ ويسير الموكب من القلعة الى ســـاحة بيت القاضى ، وهناك ينتظر عودة من ذهبوا لرؤية الهلال ، أو قدوم أحد من المسلمين يشهد برؤيته ٠٠ وتعج الشوارع التى يسير فيها الموكب بالناظرين ٠٠ والجنود الذين يشتركون فى الموكب هم من جنـــود النظام ٠٠ ويسير أمامهم ومن خلفهم حاملوا المشاعل ، لـكى ينيروا لهم الطريق فى عودتهم ٠٠ ومن وراء هؤلاء يسير المشايخ وأصحاب الحرف والفقراء ، وهم يصيحون قائلين : الصلاة ٠٠ الصلاة ٠٠ صلوا على النبى ٠٠ عليه السلام ٠٠ وبعد كل جماعتين أو ثلاثة ، تمر فترة تبلغ عدة دقائق ٠٠ حتى ينتهى الموكب بالمحتسب وأتباعه ٠٠

وحين يصل نبأ رؤية الهلال الى ساحة القاضى ، يقسم الجنود ومن معهم أنفسهم الى عدة مجموعات، تعود احداها الى القلعة .. أما الباقون فيطوفون بأحياء مختلفة من المدينة وهم يصيحون : ياأمة خير الأنام .. صيام ٠٠ صيام ٠٠ واذا لم تثبت رؤية الهلال فى تلك الليلة ، تكون الصيحة هى : غدا من شهر شعبان ٠٠ فطار ٠٠ فطار ٠٠ أما اذا كان الغد صياما ، فان الناس يقضون شطرا كبيرا من الليل يأكلون ويشربون ويدخنون ، وهم فرحون مستبشرون ٠٠ وتضاء المساجد

والمآذن ، وتظل تضاء كل ليلة من ليالى شهر رمضان ..

فى كل ليلة يطوف « المسحر » ببيوت المسلمين الذين يتوقع منهم المنح والعطاء ، فينشد من القول ما فيه مديح واطراء لهم .. ثم يطوف مرة أخرى فى ساعة متأخرة ، معلنا عن موعد السحور .. ولكل « خط » أو حى من أحياء القاهرة مسحر (١) خاص به .. ويبدأ المسحر طوافه بالبيوت بعد الغروب بساعتين أو أكثر قليلا ، أى بعد صلاة العشاء بوقت قصير .. ويمسك بيده اليسرى طبلة صغيرة تسمى الباز ، أو طبلة المسحر ، وفى يده اليمنى عصا صغيرة ، أو سير من الجلد يضرب به على الطبلة .. ويصحب المسحر غلام يحمل قنديلين فى اطار من الجريد . ويقف المسحر والغلام عند أبواب بيوت المسلمين .. ماعدا الفقراء منهم ، ويضرب على الطبلة ثم ينشد قائلا : يسعد مين يقول لا اله الا الله .. ثم يضرب على الطبلة بالنغمة نفسها ويقول : محمد الهادى رسول الله .. وبعد أن يضرب على الطبلة ، يواصل انشاده قائلا : أسعد الليالى نك يا فلان .. ويذكر اسم صاحب البيت .. وهو يعرف أسماء سكان كل بيت ، ولذلك فهو يحييهم الواحد بعد الآخر ، بهذه الطريقة ، ماعدا النساء فلا يذكر أسماءهن .. يحيى الأخ والابن والابنة الصغيرة التى لم تتزوج بعد .. وهذه الأخيرة يوجه اليها النداء قائلا : أسعد الليالى لست العرايس فلانه .. وبعد كل تحية يضرب على الطبلة .. وفى النهاية يختتم تحيته وانشاده بقوله : أبقاكم الله ياكرام ، كل عام ..

وفى أحوال أخرى ، وكذلك عند بيوت الأغنياء ، بعد أن يقول المسحر « يسعد مين يقول لا اله الا الله محمد الهادى رسول الله » .. يغنى شعرا غير موزون ، يبدؤه بأن يناشد الله أن يعفو عن خطاياه ، ويصلى على النبى ، ثم يأخذ فى سرد قصة المعراج وغيرها من القصص التى تدور حول المعجزات ، وبعد كل مقطع من مقاطع القصيدة

---

(١) أورد المؤلف كلمة « مسحر » وهى التى تحورت اليوم فاصبحت مسحراتى .. وسوف يلاحظ القارىء أن كثيرا من الكلمات اما تحورت عن الاصل أو تغير نطقها منذ سنة ١٨٢٥ حتى اليوم ..

يضرب على الطبلة •• وفى العيد يأخذ المسحر من كل بيت من بيوت الطبقة المتوسطة ثلاثة أو أربعة قروش •• وبعض النـاس يعطونه شيئا تافها فى كل ليلة ••

وفى رمضان ، يؤذن للفجر من المـآذن مبكرا عن العـادة ، حتى يستيقظ للسحور من لايزال نائما •• ثم يؤذن أذان آخر من « ذلك » المساجد الـكبيرة قبل الامساك بنحو عشرين دقيقة •• وحين يحـل وقت الامساك ، ينادى « الميقاتى » فى كل منها أو شخص غيره قائلا : ارفعوا •• والميقاتى هو الرجل الذى يعلن مواقيت الصلاة ••

ويأتى بعد رمضان « العيد الصغير » فيحتفل الناس به ، ويأكلون الفسيخ ، والـكعك ، والفطير ، والشريك • وبعض الأسر تعد أطباق « المزه » •• وهى عبارة عن لحم مسبك بالبصل والعسل الأسود والخل والدقيق الخشن •• كما يشترى رب البيت « النقل » لأسرته ••

ويبدأ النيل فى الارتفاع قرب فترة الانقلاب الصيفى ، أو بعدها مباشرة •• ومن السابع والعشرين من شهر بؤونة ، أى الثالث من شهر يوليو ، يأخذ المنـادون فى اعلان زيادته فى شوارع العاصـمة يوميا •• وهؤلاء المنادون كثيرون ، يختص كل منهم بحى من أحياء القاهرة ، ويسمى الواحد منهم « منادى النيل » •• وهو يبدأ طوافه فى شوارع حيه فى الصباح الباكر ، أو بعده بقليل ، يصحبه غلام ••

وفى اليوم الذى يسبق ذلك الذى يبدأ فيه اعلان زيادة مياه النيل، يطوف بالشوارع قائلا : ان الله قد تعطف على الأراضى ، وان غدا يبدأ الابلاغ ••

ويبدأ الابلاغ اليومى هكذا :

المنادى ــ محمد نبى الهدى
الغـلام ــ المحامل تسير اليه
المنادى ــ الهادى عليه السلام
الغـلام ــ يسعد من يصلى عليه

الى أن ينتهى بالابتهال الى الله أن يفيض النيل على البلاد ، ثم يقول : خمسة قراريط (أو ستة •• الخ) اليـوم ، والمولى كريم •• فيرد

الغلام قائلا : صلوا على محمد ٠٠ وهذه العبارة الأخيرة تقال حتى لا تصاب زيادة النيل بالعين والحسد ٠٠

وفى بعض الأحيان ، يعطى أهل البيت المنادى قطعة من الخبز كل يوم ، وهى عادة الطبقة المتوسطة ، ولكن معظم الناس لا يعطونه شيئا الا عند فتح الخليج ٠٠ ولا يعول كثيرا على بلاغ المنادى ، إذ أن الذين من واجبهم ابلاغه عن مقدار ارتفاع النيل كل يوم ، لا يبلغونه شيئا ، أو يبلغونه خطأ ٠٠ ومع ذلك ، فالناس يستمعون إلى مناداته باهتمام ٠ ويظل المنادى والغلام يطوفان طوافهما ذاك ، ويعلنان البلاغ كل يوم ، حتى قبل قطع السد الذى يغلق فم الخليج بيوم واحد ٠٠

وفى ذلك اليوم يطوف المنادى بحيه ، يصحبه عدد من الغلمان ، يحمل كل منهم علما صغيرا ملونا يسمى راية .. ويعلن وفاء النيل ٠٠ ومعنى وفاء النيل ، أنه قد بلغ من الارتفاع ما يكفى لأن تعلن الحكومة أنه قد بلغ ستة عشر ذراعا فى مقياس النيل ٠٠ ولكن الناس يخدعون دائما بهذا الاعلان ٠٠ ذلك لأن هناك قانونا قديما يقول أن ضريبة الأراضى لا يجوز أن تجبى الا اذا بلغ ارتفاع النيل ستة عشر ذراعا فى مقياس النيل ٠٠ ولذلك ترى الحكومة أن تسارع – كلما أمكن – باعلان الأهالى ببلوغ النيل ذلك الارتفاع ، حتى تستطيع أن تجبى الضرائب ٠٠ والوقت الذى يعلن فيه وفاء النيل ، هو الذى يصل ارتفاعه فيه الى عشرين أو واحد وعشرين قدما فى جوار العاصمة ٠٠ ويكون فى العادة بين السادس والسادس عشر من شهر أغسطس ، أو الأول والحادى عشر من شهر مسرى .. وفى ذلك اليوم ، أى ذلك الذى يسبق قطع الخليج بيوم ، يطوف المنادى ومن معه من الغلمان الذين يحملون الرايات فى شوارع الحى ينشدون هذا النداء :

المنادى : البحر أوفى
الغلمان : أوفا الليه (١)
المنادى : ودار النحاس (٢) مليانه

---

(١) أصل الكلمة أو فى الله ولكن الغلمان ينطقونها « أو فى الليه »

(٢) دار النحاس مبنى قديم كان يترجل السلاطين وحكام مصر عنده لكى يعاينوا حالة النيل قبل قطع الخليج ٠

وهكذا يمضى المنادى فى ندائه ، حتى يمنحه أهل البيت شيئا ٠٠ ويتراوح ما يعطونه له بين عشرة فضة وقرش ٠٠ على أن كثيرا من الناس يعطونه قرشين ، والوجهاء يعطونه « خيرية » أو تسعة قروش ٠٠

وتقام الاستعدادات فى ذلك اليوم لقطع الخليج ، ويفـد الناس لمشاهدة قطع الخليج من كل حدب وصوب ٠٠ ويقام السد قبل بدء زيادة النيل أو بعدها مباشرة ٠ ويوجد فى عرض الخليج ، على بعد نحو أربعمائة قدم من مدخله ، جسر قديم من الحجر مكون من قنطرة واحدة ٠٠ وأمام هذا الجسر ، على بعد ستين قدما ، يقع السد ٠٠ وهو مبنى من الطين ، وقاعدته عريضة تأخذ فى الضيق حين تقترب من نهايته العليا ٠٠ وهذه النهاية مسطحة ، ويبلغ عرضها نحو ثلاثة أذرع ٠٠ وتصل ، حين يبلغ النيل أقصى درجات انخفاضه ، الى ارتفاع يبلغ نحو اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين قدما فوق مستوى مياه النيل ٠٠ ويقع السد ، على مسافة تبلغ مقدار المســافة بينه وبين الجسر ، عمود مستدير من الطين يصغر كلما اتجه نحو القمة ، متخذا شكل مخروط مقطوع ٠٠ ويسمى هذا العمود « عروسة » ٠٠ وقد زرع فوق قمته المسطحة ، وفوق قمة السد ، بعض من الذرة والدخن ٠٠ ويجرف المد العروسة دائما ، قبل أن يصل ارتفاع ماء النيــل حده الأقصى ، وذلك قبل قطع السد بأكثر من أسبوع أو أسبوعين ٠٠

والاعتقاد السائد أن عادة اقامة عروسة فى النيل ، ترجع فى أصلها الى خرافة قديمة ذكرها المؤلفون العرب ، ومنهم المقريزى ، اذ يروى هذا المؤرخ أنه فى العام الذى تم فيه فتح العرب مصر ، قيل لعمرو ابن العاص ان من عادة المصريين أنه حين يأخذ النيل فى الزيادة ، يعمدون الى فتاة عذراء صغيرة فيزينونها بأفضل الحلى والثياب ، ثم يلقونها فى النيل ضحية له حتى يفيض ٠٠ ويقال ان عمرو أبطل هذه العادة ، لمـا تنطوى عليه من همجية ٠٠ وحينذاك مضت ثلاثة شهور والنيل لا يفيض قليلا ولا كثيرا ٠٠ وأصاب الناس الذعر ،

وظنوا أنه لابد وأن ينزل بهم مجاعة .. فكتب عمر الى الخليفة عمر ينبئه بما فعل ، وبالكارثة التى توشك أن تحل بمصر ٠٠ فرد عمر ردا قصيرا استصوب فيه ما فعله عمرو ، وأخبره أن برسالته بطاقة عليه أن يلقيها فى النيل ، وقد جاء فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل مصر ٠٠ أما بعد ، فان كنت تجرى بأمرك فلا تجر ٠٠ واذا كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك بأمره ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك .. ففعل عمرو كما أمر ، وألقى البطاقة فى النيل .. وقيل ان النيل ارتفع فى الليلة التالية الى ستة عشر ذراعا ٠٠ وهذه القصة بعيدة التصديق ، حتى ولو جردناها من المعجزة ٠٠ معجزة ارتفاع مياه النيل بعد القاء البطاقة فيه ٠٠

وفى عصر اليوم الذى يسبق يوم قطع الخليج ، تتجه عدة قوارب تؤجرها جماعات من الناس للنزهة والتسلية ، نحو مدخل الخليج ٠٠ ومن هذه القوارب سفينة كبيرة تسمى « العقبة » (١) قد اتخذت زخرفها وازينت من أجل هذه المناسبة ٠٠ ويعتقد عامة الناس أن السفينة العقبة ، تمثل سفينة عظيمة كان المصريون قبل فتح العرب مصر ، ينقلون فيها العذراء التى يقال انهم كانوا يلقونها فى النيل ٠٠

وتبدأ العقبة سيرها من بولاق ، بعد الظهر بنحو ثلاث ساعات ، ويصعد اليها الركاب ــ رجالا ونساء ــ فى نظير أجر يدفعونه ٠٠ وتتجه حثيثا نحو شاطىء جزيرة الروضة تجاه مدخل الخليج مباشرة ٠٠ وهناك ترسو ٠٠ وتظل فى مكانها طوال الليل ، ومعها معظم القوارب الأخرى ٠٠ على أن بعض القوارب تظل طوال المساء والليل رائحة غادية فى النيل ٠٠ ويسلى البحارة أنفسهم ، كما يسلون الركاب بالغناء الذى تصحبه « الدربكة » والمزمار .. وبعض الناس من ركاب تلك القوارب ، يستأجرون المغنين ليطربوهم بغنائهم ، ويزيدوا من فرحهم وبهجتهم ٠٠ وقبل أن يحل الظلام يبدأ اطلاق الصواريخ ٠٠ وتظل تطلق طوال الليل ، كل ربع ساعة ، وتطلق معها المدافع من العقبة واثنين أو ثلاثة من سفن المدفعية ٠٠ وعددها فى كل مرة

---

(١) كلمة عقب هى اسم الجمع الذى يطلق على أكبر السفن التى تسير فى النيل . أما كلمة عقبه وجمعها عقبات . فتطلق على السفينة الواحدة من هذه السفن ..

اثنتا عشرة طلقة ·· وقد بلغ عدد طلقات المدافع التى أطلقت فى أثناء الليل فى احتفال هذا العام ستمائة طلقة ·· ويبدو منظر النيل وشواطئه فى النيل رائعا أخاذا ·· هذه القوارب العديدة تغدو وتروح فى النيل بلا انقطاع .. وتلك الأضواء الباهرة تنبعث من المصابيح المعلقة فى حبال أشرعة العقبة ، وفى غيرها من القوارب ، كما تنبعث من الشاطىء ، حيث المشاعل مثبتة فى الأرض بعضها فوق السد وما يجاوره ، والكثير منها على شاطىء الجزيرة ·· انه منظر رائع يأخذ بالألباب ·· ومما يزيد من روعته تلك الصواريخ المنطلقة والمدافع المدوية .. وأشد الأماكن ازدحاما هو شاطىء الجزيرة .. وتفيض السعادة بالناس فلا يجدون الى النوم سبيلا ··

وقبل شروق الشمس يبدأ نفر كبير من العمال فى قطع السد ·· وهذا العمل يتناوبه التربية واليهود سنة بعد أخرى ·· ويقطعون السد من الخلف طبقة بعد طبقة ، وينقلون التراب فى مقاطف الى الشاطىء ·· ويظلون يفعلون ذلك حتى يبقى سمك السد عند قمته نحو قدم ·· ويتم ذلك العمل بعد الشروق بنحو ساعة ·· وقبل ذلك الوقت بقليل ، حين يشتد الزحام فى المنطقة التى تحيط بالسد على شاطىء الخليج ، يصل حاكم العاصمة ·· ويترجل عند السرادق الكبير الذى بجوار السد ·· ويحضر أيضا كبار الموظفين كما يحضر القاضى ·· ثم يكتب القاضى « حجة البحر » ·· وفيها يثبت أن النهر قد بلغ من الارتفاع حدا يكفى معه فتح الخليج ، كما يقرر فيها أن عملية فتح الخليج قد تمت ·· وترسل هذه الحجة الهامة على جناح السرعة الى القسطنطينية ·· وفى خلال كل ذلك ، تدوى طلقات المدافع وتنطلق الصواريخ ·· وحين يصل العمال فى قطعهم السد الى الحد الذى ذكرنا ، وحين يكتمل حضور كبار الموظفين ، يلقى حاكم العاصمة الى العمال بكيس يحوى قطعا من النقود الذهبية ·· ثم يدفع القارب الذى يركبه موظف من قبل الوالى ، نحو الحافة الضيقة ، فيقطع الحاجز الواهى ويخترقه بقاربه ، وينحدر به مع الشلال الذى يتدفق بعد انهيار الحاجز ·· وهذا الموظف رجل مسن يدعى حموده ، كان « سراج باشى » الوالى ، وكانت وظيفته السير أمام الوالى حين

يخرج راكبا مطوفا بشوارع العاصمة وما يحيط بهـا يتقدمه رتل طويل من الضباط ..

وحين يقترب قاربه من السد ، يلقى اليه حاكم العاصمة كيسا به ذهب هدية له .. ويجرف المـاء المتدفق بقايا السد الى قاع الخليج .. وتدخل الخليج قوارب أخرى عديدة ، وتسير فيه على طول العاصمة ، بل ان بعضها تتجاوزها ببضعة أميال ثم تعود ..

وقبـل ذلك ، كان شيخ البلد أو الباشا هو الذى يرأس هـذا الاحتفال مع كبار الموظفين ، وكان الاحتفال يحاط بمظاهر العظمـة والأبهة .. وكانت تلقى النقود فى الخليج فتتلقفها الجماهير ، وكان بعض الناس يلقون أنفسهم فى المـاء ، ومعهم شـبـاك لاصطيادها ، ولـكن كثيرا من الناس قضوا نحبهم وهم يجمعونها من تحت المـاء ، وفى هذا العام ـ عام ١٨٣٤ ـ غرق ثلاثة يوم فتح الخليج ، أحدهم فى الخليج نفسه ، والاثنان الآخران فى بركة الأزبكيـة .. ويدخل المـاء الى بركة الأزبكية عن طريق خليج جديد فى اليوم السابق لقطع الخليج .. ويتجمع الناس حول البركة فى ذلك اليوم والأيام التالية ، ليستمتعوا بمشاهدة المياه الزاخرة المتدفقة ، التى وان كانت عكرة الا أنها تروح عن النفس وتنعش البصر ، فى مدينة جافة كثيرة الغبار مثل القاهرة .. وفى هذا الفصل الحار من السـنة .. والى جانب البركة ، نصبت سرادقات عديدة تقدم فيهـا القهوة للمتنزهين .. وبها مقاعد ودكك كثيرة من الجريد يجلس الناس عليها .. كما يرى فيها اثنان أو ثلاثة من المحدثين .. وفى كل ساعة من ساعات النهار ، بل وفى منتصف الليل أحيانا ، يشـاهد الناس وهم يستحمون فى البركة ، ومعظمهم من الرجال والصبيان .. على أن الفتيات ، بل النساء أيضا ، ينزلن الى المـاء للاستحمام ..

وفى اليوم التالى لقطع السد ، يطوف المنادى مرددا نداءه الأول .. ولـكنه يستعمل عبارة مختلفة لابلاغ الناس مقدار زيادة النيـل ، فيقول مثلا : أربعة من ستة عشر ، ومعنى ذلك أن النهر قد زاد أربعة قراريط من ستة عشر ذراعا .. ويظل يكرر هذا البلاغ ، حتى يوم « النوروز » أو قبله بقليل ..



الخرافات

- التاجر الذى قتل الجنى بنواة بلحة !!
- قصة الحديث العجيب بين الشيخ المدابغى والقطة .
- ((بخرتك من عين المره ... أحمى من الشرشرة)) ..!

العرب بوجه عام يؤمنون بالخرافات .. ولكن المصريين هم أكثر شعوب العرب ايمانا بها .. ومن بين هذه الخرافات يحتل الجن المقـــام الأول ..

ويقال ان وجود الجن يرجع الى عهد ما قبل آدم ، وهم يكونون طبقة لا هى من الملائكة ولا هى من البشر ، وانما هى أقل شأنا من كليهما .. والجن مخلوقون من نار ، وقادرون على أن يتخذوا شكل بنى الانسان أوالحيوان، أو شكل «مسخ» قبيحالخلقة .. وهميأكلون ويشربون ويتناسلون مثل بنى الانسان ، ويذوقون الموت كما تذوقه كل نفس ، بيد أنهم يعمرون قرونا عديدة .. ومقر الجن الرئيسى هو سلسلة جبال قاف ، التى يقال انها تحيط بالارض جميعا .. والجن فى اعتقاد المصريين فريقان : المؤمنون والكافرون .. فأمـــا الكافرون فيسمون الشياطين ، ويتزعمهم ابليس ، وهو أيضا جن مخلوق من نار .. وأما المؤمنون ، وهم الملائكة ، فمخلوقون من نور ، ومعصومون من الذنوب والآثام .. والعـــرب يخافون كلا الفريقين ، ولكنهم ينظرون بعين الاجلال والاحترام الى الفـــريق المؤمن منهم ..

ومن عادة المصريين أنه اذا ألقى أحدهم على الأرض ماء أو غيره يقول : دستور .. وهى كلمة يقصد بها الشخص أن يستأذن الجنى ، الذى قد يكون موجودا فى ذلك المكان ، أو يستميحه العذر ، قبل أن يلقى ما بيده .. ذلك لأنهم يعتقدون أن الجن ينتشرون فوق سطح الأرض ، وبين طبقات السماوات ، ويقتربون من السماء الدنيـــا فيتخذون منها مقاعد للسمع .. وينقلون ما يسمعونه من أحاديث الملائكة عن مستقبل البشر ، الى أعوانهم من السحرة والمنجمين .. ويقال أيضا أنهم يسكنون فى الأنهار والخرائب ، والآبار والحمامات والأفران .. بل هم يسكنون أيضـــا فى المراحيض .. فاذا دخل شخص مرحاضا ، أو ألقى دلوا فى بئر ، أو أوقد نارا فانه يقول : دستور .. أو دستور يا مباركين .. وقد يضيف الى ذلك القـــول حين يدخل المرحاض ، دعاء الى الله أن يحفظه من شرهم ، ولكنه لا يذكر لفظ الجلالة ، لأنه ليس من اللائق ذكره فى مثل ذلك المكان ، ولذلك فهو يقول : أعوذ « بك » من الجن اناثهم وذكورهم .. وهذا

الاستئذان من الجن قبل القاء شيء ، يفسر لنا احدى قصص الف ليلة وليلة التى تروى أن تاجرا قتل جنيا ، بأن القى على الأرض نواة بلحة كان يأكلها ..

ويوصف الجنى فى هذه القصة ، وغيرها من قصص ألف ليلة وليلة ، بأنه يظهر على شكل زوبعة رملية .. ويعتقد العرب أن الزوبعة التى تثير أعمدة طويلة من الرمال والأتربة ، والتى كثيرا ما تجتاح حقول مصر وصحراواتها ، انما يحدثها فرار أحد الجان ، أو بمعنى آخر ، يكون أحد الجان راكبا تلك الزوبعة .. وحين يرى المصريون زوبعة كهذه ،يقولون لكى يتقوا شر الجن : حديد يا مشوم .. وذلك لأن المعروف أن الجن يخشون بأس الحديد ويخافونه .. كما أن بعضهم يقول : الله أكبر .. والأشرار من الجن يسمون عفاريت .. وتختلف العفاريت عن بقية الجن فى أنها شديدة البأس ، قوية الشكيمة ، كما أنها أيضا حقودة مؤذية .. وأشد العفاريت بأسا هو ما يسمونه المارد ..

والمعتقد أن الجن فى كثير من الأحيان ، أوهم على الدوام ، يتخذون شكل القطط والكلاب وغيرها من الحيوانات .. وفى خلال زيارتى الأولى لمصر ، قص على الحادثة التالية الشيخ خليل المدابغى ، وكان من مشاهير العلماء فى القاهرة ، وله مؤلفات عديدة فى مختلف العلوم، وقد عمر طويلا ..

قال الشيخ انه كان عنده قطة سوداء يؤثرها ويحبها .. وكانت تنام دائما عند نهاية طرف الكلة (الناموسية) .. وفى منتصف ذات ليلة ، سمع طرقا على باب داره ، ورأى قطته تذهب الى النافذة فتفتحها وتنادى قائلة : من هناك ؟ فأجاب الطارق : أنا الجنى « فلان » . وذكر اسما عجيبا .. افتحى الباب .. فقالت قطة الشيخ : ان قفل الباب مسمى عليه (١) .. فقال الجنى : اذا

---

(١) من عادة الفقهاء وغيرهم من الناس ، أن يقولوا بسم الله الرحمن الرحيم ، حين يغلقون الابواب ، وحين يغطون الخبز بغطائه وحين يضعون ثيابهم فى الليل الخ .. اذ هم يعتقدون انها تحفظ كل ما تقرأ عليه من أذى الجن .. وكل شيء تقرأ عليه البسملة ، ويقال له مسمى عليه .

اقذفى لى بقرصين من الخبز .. فأجابت القطة وهى ما تزال تطل من النافذة : ان سلة الخبز مسمى عليها .. فقال الجنى : اعطنى ولو جرعة من ماء .. فقالت القطة : ان ابريق الماء مسمى عليه .. فسألها الجنى عما يفعل ، وهو يكاد يموت من الجوع والعطش .. فأشارت عليه القطة أن يذهب الى المنزل المجاور .. وحين أصبح الصبح ، جاء الشيخ على خلاف عادته بنصف الفطيرة التى كان يفطر منها ، فقدمها للقطة ، بدلا من الكسرة التى اعتاد أن يطعمها بها .. فلما أكلت قال لها الشيخ : يا قطتى .. أنت تعلمين أنى رجل فقير ، فجيئينى بقليل من الذهب .. فما أن انتهى الشيخ من قوله حتى اختفت القطة ، ولم يرها بعد ذلك أبدا ..

والاعتقاد السائد عند المصريين ، أن العفاريت المؤذية تقف فوق أسطح المنازل أو نوافذها ، وتقذف بالطوب والحجارة الى الشوارع وأفنية المنازل .. ومنذ بضعة أيام خلت ، سمعت الناس يروون قصة عن عفاريت ترجم الناس بالحجارة ، فى الشارع الرئيسى بالقاهرة ، وقد استولى الرعب على سكان المنازل التى تقع فى ذلك الشارع ، وعاشوا فى هلع أسبوعا كاملا ، اذ استمرت الحجارة تتساقط من بعض المنازل كل يوم طوال الأسبوع ، ولكن لم يقتل أو يصب أحد .. فذهبت الى المكان الذى اتخذته العفاريت مسرحا لألاعيبهم ، لأراهم بنفسى ، وأستفسر من الأهالى عما حدث .. ولكن حين وصلت الى هناك ، قيل لى ان الرجم قد توقف ، ولم أجد أحدا يكذب واقعة رمى الطوب والحجارة ، أو يشك فى أنه من فعل الجان .. وكان الجميع يقولون : ربنا يكفينا شرهم ..

ويقال ان العفاريت تحبس فى شهر رمضان ، ولذلك تعمد بعض النسوة ليلة عيد الفطر ، الى ذر الملح فوق أرضية الحجرات ، وهن يقلن : بسم الله الرحمن الرحيم .. حتى يحول ذلك بين العفاريت وبين دخول البيت ، بعد أن انقضى شهر رمضان ..

ويجدر بى أن أذكر هنا ، أن من الخرافات العجيبة التى ترجع فى أصلها الى عهد قدماء المصريين ، تلك الخرافة التى تقول ان لكل حى من أحياء القاهرة ، حارس من الجن على شكل ثعبان ..

ويعتقد المصريون أن العفاريت تتخذ من مقابر قدماء المصريين

ومعابدهم المظلمة مأوى لها . وقد تعذر على اقناع احد خدمى أن يدخل معى الهرم الأكبر ، لأنه يخشى وجود العفاريت فيه .. وكثيرون من الناس يعزون بناء الأهرام وغيرها من الآثار العجيبة المذهلة الى « الجان بن الجان » واتباعه من الجن ، لانهم يعتقدون أن مثل هذه الآثار الخارقة لا يقدر على بنائها أحد من البشر ..

وتطلق كلمة عفريت فى الغالب على شرار الجن اكثر مما تطلق على غيرهم ، كما أنها تطلق أيضا على أشباح الموتى .. وتروى قصص كثيرة لا يصدقها العقل عن هذه الأشباح ، وهى قصص تبعث الرعب فى الأوصال .. ومع ذلك فهناك من الناس من لا يخافون تلك العفاريت أو يخشون أذاها ... وقد كان يعمل عندى فى وقت من الأوقات طاه مرح كان معتادا تعاطى الحشيش ، وبعد فترة قصيرة من التحاقه بخدمتى سمعته ذات مساء يتمتم لنفسه ويتعجب ، كأنما حدث ما أثار دهشته ، ثم يقول فى أدب : ولكن لم تجلس هنا فى هذا التيار ؟ أرجوك أن تتكرم بالصعود معى الى المطبخ لتسلينى بحديثك بعض الوقت .. فلما لم يتلق ردا ، أخذ يردد القول نفسه ، ويغير فيه ويبدل المرة بعد المرة ، حتى ناديت عليه ، وسألته مع من كان يتحدث ، فقال : هذا عفريت جندى تركى ، يجلس على السلم يدخن غليونه ، ويأبى أن يتحرك من مكانه .. وقد جاء الى هنا من البئر التى فى فناء الدار . أرجوك أن تأتى لتراه .. فذهبت الى السلم ، ولكنى لم أر شيئا ، وقلت له انى لا أرى أحداً ، فقال : انك لا تراه لأن ضميرك نقى .. والقد قيل للطاهى بعد تلك الحادثة ، ان المنزل مسكون بالعفاريت منذ زمن طويل ، ولكنه يؤكد أنه لم يكن يعرف قبل تلك الليلة ، أن العفريت الذى رآه هو عفريت جندى تركى ، كان قد قتل فى ذلك المنزل .. وقد زعم الطاهى أنه رأى ذلك العفريت مرات عديدة بعد تلك الليلة ..

والمصريون ، مثلهم فى ذلك مثل كثير من الشعوب الشرقية ، يؤمنون بوجود الغول ، ويعتقدون أن الغيلان طبقة من شرار الجن ، تظهر على هيئة حيوانات مختلفة غريبة الخلقة ، وتسكن فى مدافن الموتى وغيرها من البقاع المنعزلة ، وتتخذ من جثث الموتى طعاما لها .. وهى تفتك بكل انسان يقذف به سوء طالعه بين براثينها ، ثم

تلتهمه التهاما .. ومن هنا أطلقت كلمة « غول » على كل من يأكل لحوم البشر ..

ومن أبرز الخرافات الشائعة ، هى ايمان المصريين بالأحجبة .. ومعظم هذه عبارة عن تعاويذ وآيات معينة من القرآن ، وأسماء الله وأسماء الملائكة والجن ، وأسماء الأنبياء والأولياء المشهورين ، يتخلل هذا كله أرقام وأشكال هندسية .. ويقال انها كلها مجتمعة ، لها أثر لا يعلم سره أحد .

ويتخذ المصريون من المصحف حجابا يقدسونه فوق كل أنواع الأحجبة .. وكان من عادة الأتراك من الطبقتين الوسطى والعليا ، وكثيرين غيرهم من المسلمين ، أن يعلقوا مصحفا صغيرا فوق كتفهم الأيسر بخيط من الحرير ، بحيث يتدلى المصـــــحف فوق الجنب الأيمن . وكان المصحف يوضع فى غلاف من الجلد المطرز أو القطيفة ، ولكن هذه العادة أصبحت الآن أقل شيوعا .. ومع ذلك فما زال كثير من النساء يلبسن المصحف وأحجبة أخرى ، توضع عادة فى علبة من الذهب أو الفضة أو من الفضة المذهبة .. ويؤمن النـــاس بقوة تأثير هذه الأحجبة ، وقدرتها على حفظهم من الأمراض والسحر والعين وغيرها من الشرور ..

ويلى المصحف فى أهميته ، حجاب هو عبارة عن ورقة مطوية ، قد كتبت فيها بعض سور من القرآن ، مثل سورة الأنعام والكهف ويس والرحمن والملك والنبأ ، أو ســــور أخـرى غيرها يكون عددها فى العادة سبعة .. وهناك حجاب آخر يلبسه الشـــخص داخل غطاء الرأس ليحفظه من الشيطان ، وغيرها من شرار الجن ، كما يحفظه من كل ما يخيفه .. وهذا الحجاب عبارة عن ورقة ، كتبت عليها هذه الآيات القرآنية ، التى تسمى آيات الحفظ : ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم — فالله خير حافظا وهـو أرحم الراحمين — يحفظونه من أمر الله — وحفظناها من كل شـــيطان رجيم — وحفظا من كل شيطان مارد — وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم — والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد ، فى لـوح محفـوظ .

واذا كتبت أسماء الله الحسنى التسع والتسعون ، التى تشمل

كل الصفات التى تتصف بها سبحانه ، عدة مرات على ورقة يحملها الشخص ، فان حاملها يصيب من الخير مقدار ما تحمل هذه الصفات من فضائل .. كما أن أسماء النبى ، اذا كتبت على شيء ، ووضعت فى بيت ، وقرئت مرات عديدة من أولها الى آخرها ، ترد عنه كل سوء ، وتحفظ أهله من الطاعون وغيره من الأمراض ، كما تحفظهم من العلل والأسقام ، وتقيهم شر الحسد والسحر ، والدمار والحرق ، والقلق والهم ، والغم والحزن .. وحين تقرأ أسماء النبى ، يقول القارىء بعد كل اسم : صلى الله عليه وسلم .. وقبيل رحيلى الى انجلترا ، جاءنى معلمى الشيخ ، الذى كنت أتلقى عليه العلم ، وكتب على قطعة من الورق : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، ثم قطع الورقة نصفين ، وأعطانى النصف الذى كتب عليه : محمد رسول الله ، ووضع النصف الآخر فى شق فى سقف صوان صغير ، فى حجرة الاستقبال . وقد فعل الشيخ ذلك حتى أعود الى مصر مرة ثانية ، لأن العقيدة السائدة ، أن الشهادة لا يمكن أن تظل ناقصة .. واذا ظللت أحمل معى نصفها ، فلابد أن أعود الى مصر حيث يوجد النصف الآخر ..

ويؤمن المصريون أيضا بالحجاب ، الذى يحوى أسماء أهل الكهف، واسم كلبهم .. وانك لترى هذه الأسماء منقوشة على قاع أوانى الشرب ، أو على الصوانى النحاسية التى يتبادلو نعليها الطعام .. وللوقاية من كل سوء ، أو الشفاء من المرض ، أو لاسترجاع الحبيب ، أو للحصول على الرزق ، يعمل حجاب من ورق كتبت عليه آيات معينة من القرآن ، ويلبسه الرجل أو المرأة .. وكل هذه الأحجبة على اختلاف أنواعها ، توضع فى علب من الذهب أو الفضة ، أو القصدير أو الجلد ، أو الحرير أو ما شابه ذلك ، ويلبسها معظم المصريين من رجال ونساء وأطفال ..

ومن المناظر المألوفة فى مصر ، أنك ترى الأطفال يلبسون حجابا داخل علبة مثلثة الشكل ، يعلق فوق الطاقية ، لكى يقيهم شر العين .. والخوف من العين يفسر لنا كثيرا من عادات المصريين وسلوكهم .. وحتى الخيول يعلقون على رؤوسها الأحجبة والتعاويذ .. وهم يتخذون الحيطة من العين ، ويحاولون دائما دفع أذاها وشرها ،

فاذا أظهر شخص استحسانا لشيء بلهجة يشتم منها الحسد ، فان صاحب الشيء ، وقد أفزعه الخوف من العين ، يقول له : صلى على النبى .. فاذا أطاعه الحاسد فقال : اللهم صلى عليه ، فقد زال الشر .. ويعتبر من قلة الذوق أن يظهر شخص اعجابه بشخص آخر ، أو بشيء يملكه غيره ، بأن يقول : يا سلام .. أو يا سلام سلم .. أو يقول : يا جماله .. أو جميل جدا .. وانما الواجب فى مثل تلك الحالات ، أن يقول الشخص : ما شاء الله ، لأن هذه العبارة تتضمن الاعجاب بالشيء ، والخضوع لمشيئة الله ..

والمرأة المصرية تخاف على طفلها من العين خوفا شديدا .. وقد عرضنا فى فصل آخر من هذا الكتاب صورة من صور ذلك الخوف .. ومن العادات الشائعة ، أنه اذا أخذ شخص بين ذراعية طفل آخر ، يقول : بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم صلى على سيدنا محمد .. ثم يضيف الى ذلك قوله : ما شاء الله .. وكذلك من عادتهم انه اذا أعجب أحد بطفل يقول : أعوذ برب الفلق ، مشيرا بذلك الى سورة الفلق ، التى تنتهى بالآية التى يستعاذ فيها من شر حاسد اذا حسد ..

واذا رأى والدا طفل شخصا يحدق فى طفلهما بعين الحسد، فانهما ــ لكى يدفعا عن طفلهما شر عينه ــ يقصان قطعة من ذيل ثوبه ، ويحرقانها مع قليل من الملح ، وقد يضيف اليها بعضهم حبوب الكزبرة والشبة وما اليهما ، ثم يبخر الطفل بالدخان المتصاعد من احتراقها ، ويذر عليه الرماد المتخلف .. ويقال ان هذه العملية يجب أن تتم قبل الغروب بقليل ، حين يحمر قرص الشمس ..

وتستخدم الشبة فى دفع أذى العين بطريقة أخرى ، وهى أن توضع قطعة منها فى حجم الجوز على فحم متقد ، وتترك لتغلى وتخرج ما فيها من فقاع ، ويبدأ فى هذه العملية قبل غروب الشمس بوقت قصير ، ويقرأ الشخص الذى يقوم بها أثناء احتراق الشبه فاتحة الكتاب ثلاث مرات ، والسور الثلاث الأخيرة من القرآن .. ويقال انه حين تنزع الشبه من النار ، يلاحظ أنها تتخذ فى شكلها هيئة الحسود ، الذى تجرى هذه العملية لدفع أذاه .. ثم تدق قطعة الشبه ، وتوضع فى طعام يقدم الى كلب أسود ليأكله .. وقد

رأيت بنفسى هذه العملية ، يقوم بها رجل أعتقد أن زوجته حسدته، وقد أرانى الرجل قطعة الشبه ، وقد تشكلت فعلا بشكل امرأة تجلس بطريقة غريبة ، وقال انها هى الطريقة التى تجلس بها زوجته .. على أن الشكل الذى تتخذه قطعة الشبه ، يتوقف الى حد كبير على الطريقة التى وضعت بها قطع الفحم .. ولابد أنها تتخذ شكلا يجد فيه خيال الشخص صورة شبيهة بالحاسد الذى حسده .. وهناك طريقة أخرى لدفع أذى العين ، وهى أن تثقب قطعة من الورق بالابرة ، وتقول وأنت تثقبها : هذه عين الحسود فلان .. ثم تحرق الورقة .. ولكن الشبه هى التى يقال ان أثرها عظيم فى القضاء على عين الحسود .. وفى بعض الأحيان ، تعلق فى أعلى طاقية الطفل قطعة من الشبه صغيرة مستوية ، مزينة بالشراريب . أو تعلق شراريب من الأصداف والخرز .. وتعتبر أصداف الكورى من أحسن التمائم للوقاية من العين ، ولذلك فهى تعلق مع سائر الأشياء التى تزين بها الجمال والخيل وغيرها من الحيوانات ، كما تعلق فى طاقية الأطفال . والغرض منها أن تجذب نظر الحاسد اليها ، فتصرفه عن النظر الى حاملها ، سواء كان انسانا أم حيوانا ، وبذلك تقيه شر العين ..

ويعمد المصريون ، والنساء منهم بصفة خاصة ، لكى يتقوا شر العين والحسد ، الى الاستفادة مما يسمونه « ميعه مباركه » .. وهى خليط من مواد سيأتى وصفها فيما بعد .. وتباع الميعه المباركة فى الأيام العشر الأول من شهر محرم .. وفى تلك الأيام ، ترى أناسا يحملون هذا الخليط ، ويجوبون به شوارع القاهرة ، يبيعونه للناس ، وينادون عليه قائلين : ميعه مباركة .. السنة الجديدة وعاشورة المباركة .. ويحمل البائع فوق رأسه صينية مستديرة ، مغطاة بقطع من ورق مختلف ألوانه ، من أحمر وأصفر وغير ذلك .. وفوق تلك القطع من الورق ، وضع المخلوط الثمين .. وفى وسط الصينية كومة كبيرة من تفل مادة للصباغة ، حمراء قاتمة ، قد اختلط به قليل من الميعة ، وحبوب الكزبرة « وحبة سودة » أو حبة البركة .. وحول هذه الكومة الكبيرة ، أكوام صغيرة ، احداهما ملح مصبوغ بالتيلة أزرق اللون ، وأخرى ملح

مصبوغ باللون الأحمر ، وثالثة من ملح مصبوغ باللون الأصفر .. والرابعة من الشيح ، والخامسة من مسحوق اللبان .. وهذه جميعا هى مركبات الميعة المباركة ..

وينادى على بائع العاشورة ليدخل المنزل .. فينزل الصينية من فوق رأسه ، ويضعها أمامه ، ثم يعطيه أهل البيت وعاء أو قطعة من الورق ، لكى يضع فيها ما سوف يشترونه من الخليط .. فيأخذ من كل كومة على التوالى بعضا من الخليط ، حتى ينتهى منها جميعا ، ثم يعيد الكرة فيأخذ قليلا من كل كومة .. وهكذا .. المرة بعد المرة .. وهو اذ يفعل ذلك كله ، يترنم برقية طويلة يبدأها قائلا باسم الله وبالله ، ولا غالب يغلب الله ، ولا يغلب الله غالب ، رب المشارق والمغارب .. كلنا عبيده ، يلزمنا توحيده ، توحيده جلاله .. وبعد أن يقول بضع عبارات يعدد فيها فضائل الملح ، يستأنف الرقية قائلا : بخرتك من عين البنت ، أحمى من الخشت ، من عين المره ، أحمى من الشرشرة ، من عين الولد ، أحمى من الزرد .. وهكذا .. ويمضى الرجل فى ترنيمه ، فيصف كيف تمكن الملك سليمان من القضاء على العين ، وتخليص الناس من شرها ، ثم يعدد محتويات المنزل جميعها ، فيبخرها من العين .. وكثير من العبارات التى يقولها فى رقيته تبعث على الضحك ، اذ أن بعض الكلمات تستعمل لمجرد السجع ، دون أن يكون لها معنى ..

ويدفع الناس ثمنا لحفنة من الميعة المباركة ، مبلغ خمسة فضة ، ويحتفظون بها فى مكان أمين طوال العام الجديد ، حتى اذا تعرض أحد أفراد الأسرة لعين حسود ، يرقى بقليل من هذه الميعة المباركة ، فتوضع فى المنقد مع فحم متقد ، ثم يبخر الشخص بالدخان المتصاعد من احتراقها ..

ومن عادة المصريين من الطبقتين العالية والمتوسطة فى مدينة القاهرة ، أن يعلقوا فى حفلات الزواج الثريات على طول الشارع أمام بيت العريس .. وكثيرا ما يتجمع الناس حول أكبر هذه الثريات وأجملها ، ليتفرجوا عليها .. وحينذاك يعمد أصحاب الفرح الى صرف انتباه هذه الجموع عن الثريا ، وذلك بالقاء جرة كبيرة من عل ، فيحدث ارتطامها بالأرض صوتا يحول أنظار الناس

عن الثريا ، فلا تصيبها العين وتسقطها .. وكثيرا ما تقع حوادث تزيد ايمان المصريين بوجود العين ، كما تزيد خوفهم منها .. فقد روى لى أحد أصدقائى، أنه رأى منذ فترة وجيزة، جملا يحمل جرتين كبيرتين من الزيت .. ومرت امرأة فوقفت أمام الجمل وصاحت قائلة : ياسلام مسلم ! كل دى زلعة ! ولم يقل لها صاحب الجمل : صلى على النبى .. وما أن سار الجمل بضع خطوات ، حتى وقع على الأرض فانكسرت رجله ، وانكسرت الجرتان ..

وبينما كنت أكتب هذا الفصل عن الخرافات المصرية ، جاءنى أحد أصدقائى يسر الى بما أضحكنى .. وأنا أورد هنا ما رواه لى ، اذ أنه يعطى صورة تبين مدى اعتقاد المصريين فى الحسد والعين .. قال صديقى يبثنى شكواه : لقد تنازل « الباشا » منذ أيام قليلة عن احتكاره ذبح البهائم وبيع لحومها ، وأصبح الجزارون يذبحونها لحسابهم .. وقد هالنى أن أرى الخراف البديعة ، معلقة فى الحوانيت تنتهبها الأنظار ، ولا يحول بينها وبين عيون الناس حائل ، وكلما مر بها متسول أو محروم تطلع اليها بعين الحسد .. وكأنى بى اذا أكلت منها انما آكل سما زعافا ..

وقد شكا لى الطاهى من ذلك أيضا ، وكان لا يشترى اللحم من الحوانيت القريبة من المنزل ، وانما كان يتجشم مشقة السير الى حانوت يقع بعيدا عن البيت ، لأن الجزار صاحب ذلك الحانوت ، يدارى اللحوم التى يبيعها ، فلا يعرضها لأنظار المارة ..

ولكى يتقى أصحاب الحوانيت شر العين ، تراهم فى القاهرة وغيرها من المدن ، يعلقون على حوانيتهم ورقة مكتوبا عليها اسم الله ، أو النبى ، أو الاسمان معا ، أو لا اله الا الله محمد رسول الله ، أو بسم الله الرحمن الرحيم ، أو أحد الأحاديث النبوية ، أو الآيات القرآنية ، مثل : انا فتحنا لك فتحا مبينا — نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين .. وقد يكتب على الورقة تضرع وابتهال الى الله ، مثل : يافتاح يا عليم ، يا رزاق يا كريم .. وكثيرا ما يقول التاجر هذه العبارة حين يفتح دكانه فى الصباح ، كما يقولها الباعة المتجولون ، الذين يبيعون الخبز والخضر وغيرها ، حين يبدأون تجوالهم فى الصباح .. ومن عادة البائعين من طبقة العامة ، أن يقبل

الواحد منهم أول قطعة من النقود يستفتح بها ، ثم يضعها على جبينه ، قبل أن يضعها فى جيبه ..

وليست الدكاكين وحدها هى التى يكتب عليها هذا التوسل ، فكثيرا ما ترى كلمة « يا ألله » منقوشة على أحد أبواب المنازل ، وترى هذه العبارة : الخلاق هو الباقى ، أو هو الخلاق الباقى ، مكتوبة بحروف كبيرة على أبواب المنازل كتعويذة ، لكى ترد الشر عنها ، ولتذكر صاحب البيت كلما دخله ، أنه عبد فان ، وأن الله وحده هو الباقى .. وكثيرا ما تكتب هذه الكلمات على أبواب المنازل التى توفى أصحابها ، وجل أو كل سكانها ..

وأحسن طريقة يدفع بها المصريون شر الأمراض ، هى أن تكتب بعض آيات من القرآن تسمى آيات الشفاء ، على الجوانب الداخلية لقدح أو طاس من الخزف ، ثم يصب فيها قليل من الماء ، ويقلب حتى تمحى كل الآيات المكتوبة ، ثم يشرب المريض الماء الذى أذيبت فيه كلمات القرآن .. وهذه الآيات هى : ويشف صدور قوم مؤمنين ـ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ـ فيه شفاء للناس ـ ونتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ـ واذا مرضت فهو يشفين ـ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ..

وللشفاء من الأمراض أو السموم ، يستعمل فى بعض الأحيان قدح من المعدن ، محفور على جوانبه الداخلية آيات معينة من القرآن ، وطلاسم من الحروف والأرقام ، ويوضع فيه بعض الماء يشربه المريض فيشفى .. وعندى قدح من هذا النوع أهدى الى حديثا .. وقد نقشت على سطحه الخارجى ، كتابة تبين فوائده ، وتقول انه يفسد مفعول السموم جميعها ، ويدفع شر العين وأذاها ، ويشفى جميع العلل والأسقام ، ما عدا علة الموت ..

والخرافات المتعددة التى يؤمن بها المصريون ، والأحجبة والتمائم والرقى التى يلجأون اليها ، لدفع الشر أو لجلب الخير ، تحتاج اذا حاولنا أن نلم بها كلها ، الى مجلد ضخم يجمعها .. وكل طريقة تتبع لتحقيق ذلك الغرض ، وليست مبنية على الدين أو السحر أو علم التنجيم تسمى « علم الركه » ، أو علم المغزل ، وبعبارة أخرى علم

النساء ، اذ أنها منافية للعقل ، والنساء هم أكثر الناس ايمانا بهـا .. ويعتقد البعض أن « علم الركه » أصلها « علم الرقية » ، ثم تحولت كلمة رقية على لسان العامة الى ركه .. ويقول آخرون ان كلمة ركة تستعمل بدلا من رقية ، على سبيل التورية ..

ومن العادات الشائعة فى مدينة القاهرة ، أن يعلق الناس نبات الصبر على أبواب بيوتهم ، وبخاصة اذا كان البيت حديث البناء ، أو كان باب البيت جديدا ، لأنهم يعتقدون أن ذلك النبات تعويذة تضمن لأهل الدار عمرا مديدا ، وحياة سعيدة ، كما تضمن للبيت نفسه أن يعمر طويلا .. ويعيش نبات الصبر ، وهو معلق دون تربة أو ماء ، سنوات عديدة ، وقد يزهر أيضا .. ولذلك فقد سمى بالصبر ، ولكن الاسم الصحيح له هو صباره .. أما كلمة « صبر » فهى اختصار لكمة صابر ، التى تطلق عادة على عصير ذلك النبات ..

ومن عادة المصريين أن يكسروا قلة وراء ظهر الشخص الذى يخشون أذاه ، أو الذى يريدونه أن يذهب عنهم بلا رجعة ..

والرمد من الأمراض المتفشية فى مصر ، ولذلك يلجأ الناس فى علاجه الى وسائل مضحكة ، أساسها كلها الخرافات .. فمثـلا يعالج بعض المصريين الرمد ، بأن يأخذوا قطعة من الطين الجاف ، من شاطىء النيل عند بولاق — وهى الميناء الرئيسى للقاهرة — أو بالقرب منها ، ثم يعبرون النيل ، ويضعونها على الضفة الأخرى عند امبابة .. وهذه الطريقة تكفى فى نظرهم للشفاء من الرمد . ويعمد آخرون الى تعليق قطعة نقود تسمى بندقى ، على غطاء الرأس فوق الجبهة ، أو فوق العين المصابة بالرمد .. ويشترط فى هذه العملة أن تكون رأس الصورة على أحد وجهيها ، مقابلة لرأس الصورة على الوجه الآخر .. ويسمون القطعة التى ينطبق عليها هـذا الوصف « بندقى مشاهرة » .

على أنه اذا دخل على مريض بالحمى ، أو مصاب بالرمد ، شخص يحمل فى جيبه « بندقى » أو ريالا ، فان دخوله على المريض يضاعف من مرضه .. وكذلك اذا دخل على المصاب بالرمد شخص جنب ، فان اصابته تزداد سوءا ، وتظهر على احدى عينيه أو على كلتيهما نقطـة ..

وقد حبس أحد معارفى الذى أصيب بالرمد نفسه فى حجرته ، ما يقرب من ثلاثة أشهر ، لا يسمح لأحد أن يدخل عليه الحجرة .. وكان الخادم يضع له الطعام عند بابها .. وقد فعل صاحبى ذلك ، خشية أن يدخل عليه من كان جنبا ، أو يحمل معه « بندقى » أو ريالا .. ومع ذلك فانه خرج من محبسه ، وعلى احـــدى عينيه نقطـــة ..

ولازالة العقم ، تعمد النساء فى مصر الى طريقـــة عجيبة تثير التقزز والاشمئزاز .. فهناك غربى قلعة القاهرة ، توجد أرض فضاء مكشوفة تسمى الرميلة .. وفى هذه الأرض الفضاء ، ينفذ حكم الاعدام فى المجرمين الذين يرتكبون جرائمهم فى القاهرة ، وذلك بأن تقطع رؤوسهم ــ والى الجنوب من هذا المكان ، يوجد مبنى يسمى « مغسل السلطان » به منضدة من الحجر ، توضع عليها جثة كل مجرم بعد أن تقطع رأسه ، حيث تغسل قبل دفنها .. كما يوجد حوض يسقط فيه ماء الغسل .. ولا يفرغ الماء من الحوض أبدا ، بل يظل هناك مختلطا بالدم ، عفنا كريه الرائحة .. وكم من امرأة تجىء الى ذلك المكان لتعالج عينيها من الرمد ، أو لتزيل عنها العقم ، أو لتسهل ولادتها اذا كانت عسرة .. ودون أن تفوه بكلمة ــ لأن الصمت عامل أساسى فى العلاج ــ تمر المرأة من تحت المنضدة السابق ذكرها ، بادئة بالقدم اليسرى ، ثم تخطو من فوقها ، وتكرر ذلك سبع مرات ، ثم تغسل وجهها بالماء المدنس الذى فى الحوض ، وتدفع فى مقابل ذلك كله خمسة أو عشرة فضة ، لرجل عجوز يقـــوم على حراسة ذلك المكان هو وامرأته .. ثم تنصرف العقيـــم عائدة الى بيتها ، دون أن تفوه بكلمة .. والرجل المصاب بالرمد ، يتبع هـــذه الطريقة نفسها ليشفى من المرض .. ويقال ان الذى بنى المغســـل هو الظاهر بيبرس ، قبل أن يصبح سلطانا ، حين لاحظ أن جثث المحكوم عليهم بالاعدام فى مدينة القاهرة ، تظل تتقاذفها الأقدام ، وتدفن دون غسل ، ولذلك بنى المغسل ..

ولازالة العقم أيضا ، تخطو بعض النسوة سبع مرات فوق الجثة بعد قطع رأسها ، ويشترط أن يفعلن ذلك فى صمت ، دون أن يكلمن أحـــدا ..

ويتبع المصريون طريقة مضحكة فى علاج الدمل ، الذى يظهر فى حافة جفن العين ، والذى يسمونه « شحاته » .. والشخص المصاب بها ، يذهب الى سبع من النساء ، كل منهن تدعى فاطمة ، ويقمن فى سبعة بيوت مختلفة ، ويسأل كلا منهن أن تعطيه كسرة من الخبز .. وفى هذه الكسرات السبع يكمن الشفاء .. وقد يلجأ المصاب الى طريقة أخرى ، فيخرج من بيته قبل شروق الشمس ، ودون أن يكلم أحدا ، يطوف حول عدد من المقابر من اليمين الى اليسار ، خلافا للعادة المتبعة فى زيارة المقابر ، من الطواف حولها من اليسار الى اليمين .. وهناك طريقة ثالثة ، وهى أن يربط المصاب قطعة من القطن حول طرف عصا ، ثم يغمسها فى أحد الأحواض المعدة لشرب الكلاب فى مدينة القاهرة ، ويمسح بها عينيه المصابة .. والحكمة فى استعمال العصا ، هى أن يتحاشى المصاب وضع يده فى الماء النجس ..

واذا تأخر أحد الأطفال فى المشى ، تعمد أمه الى ربط قدميه بقطعة من الخوص ، تعقدها ثلاث عقد ، ثم تضع الطفل عند باب أحد المساجد ، أثناء صلاة الجمعة ، فاذا قضيت الصلاة ، هرعت الأم الى أول رجل يغادر المسجد ، ثم الرجل الثانى ، ثم الثالث ، تسأل كلا منهم أن يحل عقدة من العقد الثلاث .. ثم تعود المرأة بطفلها الى البيت ، وهى واثقة أن طفلها سيمشى كسائر الأطفال عما قريب ..

وهناك مواد يستعملها المصريون ، يقال أنها ترياق للسموم وشفاء لأمراض معلومات .. وقد يكون لهذه المواد بعض الأثر ، ولكن الخرافة تعزى اليها المعجزات .. ومن هذه المواد حجر البنزهير ، ويستعمل ترياقا للسموم ، وذلك بأن يحك فى قدح بقليل من الماء ، ثم يملأ القدح بالماء ويشربه المريض .. وهناك طريقة أخرى لعلاج حالات التسمم ، وهى التى يستعمل فيها قدح مصنوع من قرن الخرتيت ، وتحك فيه قطعة من قرن الخرتيت أيضا ، ثم يوضع فيه ماء يشربه المريض .. ولعلاج مرض اليرقان ، يشرب كثير من المرضى فى مدينة القاهرة من ماء بئر يسمى « بير اليرقان » ، تملكه امرأة عجوز ، وتجنى من ورائه منافع جمة .. ذلك لأن للبئر فوهتين ،

تحت احداهما وعاء جاف ، يلقى فيه المرضى ما تطلبه العجوز من سكر وبن وغير ذلك مما هى فى حاجة اليه ، فى مقابل حصولهم على الماء الشافى من البئر ..

ويعمد المصريون الى ما يسمونه « بالاستخارة » ، اذا هم شرعوا فى عمل هم فى شك منه ، هل يقدمون عليه أم يعدلون عنـــه .. والاستخارة قد تكون بالقرآن أو بالسبحة .. وطريقة الاستخارة بالقرآن ، هى أن يقرأ الشخص فاتحة الكتاب ثلاث مرات ، ثم سورة الاخلاص ، ثم هذه الآية من سورة الأنعام : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس ، الا فى كتاب مبين .. ثم يفتح المصحف كيفما اتفق ، فيجد فى السطر السابع من الصفحة اليمنى ، الرد على اســـــتخارته ، فيما اذا كان من الخير أن يقدم على عمل الشىء ، أو يحجم عنه .. وفى كثير من الأحيان ، لا تعطى الكلمات الجواب بطريقة مباشرة ، ولكن اذا كانت الآية تبشر بالخير ، يستنتج الشخص أنه من الخير المضى فيما هو مقدم عليه ، واذا كانت الآية تحمل تهديدا أو وعيدا ، فمعنى ذلك أنه من الخير العدول عنه .. وبعض الناس يتبع طريقة أخرى ، اذ بدلا من أن يقرأ السطر السابع من الصفحة اليمنى ، يعد الكلمات التى تبدأ بحرف الخاء فى هذه الصفحة ، والكلمات التى تبدأ بحرف الشين .. فاذا زاد عدد حروف الخاء عن حروف الشين ، كان فى الاقـــدام خير للشخص ، وان زاد عدد حروف الشين ، كان الخير فى الاحجام .. لأن حرف الخاء يرمز الى الخير ، وترمز الشين الى الشر ..

أما الاستخارة بالسبحة ، فيقرأ الشخص فيها الفـــاتحة ثلاث مرات ، ثم يمسك بقسم من أقسام السبحة ، ويبدأ فى عد حبات هذا القسم قائلا عند عد الحبة الأولى : سبحان الله .. وعند الثانية يقول : والحمد لله .. وعند الثالثة : ولا اله الا الله .. ثم يعيد قوله بالترتيب نفسه ، حتى يصل الى الحبة التى ينتهى عنـــدها ذلك القسم من السبحة .. فاذا كانت الجملة التى وقف عنـــدها هى سبحان الله ، كانت الاستخارة توحى بالخير .. واذا كانت الحمد لله فليس فيها خير ولا شر .. واذا كانت لا اله الا الله ، فالاستخارة

توحى بالعدول عن الأمر لأنه ليس فيه خير .. وهذه الاستخارة يلجأ اليها كثير من الناس ..

ويعمد بعض الناس الى الاستخارة عن طريق الأحلام ، فيسأل الشخص ربه قبل أن ينام أن يريه فى منامه بياضا أو خضرة أو ماء ، اذا كان فيما هو مقدم عليه خير له ، أو اذا كان هناك خير سوف يصيبه فى القريب العاجل ، وأن يريه سوادا أو حمرة أو نارا اذا كان فيما هو مقدم عليه شر له ، أو اذا كان هناك شر سينزل به فى المستقبل القريب .. ثم يقرأ الشخص الفاتحة عشر مرات ، يقول بعدها : اللهم صلى على سيدنا محمد .. ويظل يرددها حتى يستولى عليه النوم ..

والمصريون يؤمنون بالأحلام ايمانا عظيما ، وهى كثيرا ما توجه خطاهم ، ويقدمون بوحيها على أجل الأعمال ، وأعظمها خطرا .. وعندهم فى تفسير الأحلام مؤلفان شهيران لابن شاهين وابن سيرين .. وقد كان الثانى تلميذا للأول .. وهم جميعا يؤمنون بما جاء فى هذين المؤلفين من تفسير ، ويلجأون اليهما لتأويل أحلامهم .. واذا قال شخص لآخر : انى رأيت فى منامى رؤيا .. فان الآخر يقول له : خير .. أو خير ان شا الله .. واذا رأى شخص حلما مزعجا يقول : اللهم صلى على سيدنا محمد ، ثم يتفل على يساره من فوق الكتف ثلاث مرات ، حتى لا يتحقق الحلم الذى أفزعه ..

وفى مصر كما فى سائر بلاد العالم ، يتفاءل الناس ببعض أيام الأسبوع ، كما يتشاءمون من بعضها الآخر .. والمصريون يعتبرون يوم الأحد يوم نحس ، لأنه يسبق ليلة الاثنين ، التى يتشاءم منها علماء المسلمين وكثير من العامة ، لأنها الليلة التى قضى فيها النبى .. على أن بعض الناس يستبشرون بها ، فيعقدون قرانهم ليلة الاثنين .. ولكن المعتقد أن ليلة الجمعة أفضل منها لعقد الزواج .. أما يوم الاثنين ، فيتفاءل به بعض الناس ، ويتشاءم منه البعض الآخر .. ويعد يوم الثلاثاء يوم نحس ، ويسمى يوم الدم ، اذ يقال ان كثيرا من الشهداء البارزين لاقوا حتفهم فى ذلك اليوم .. ولذلك يفضل الناس الحجامة فيه .. ويوم الأربعاء لا أهمية له . فلا يتفاءل به ولا يتشاءم منه .. أما يوم الخميس فيسمى المبارك ،

ويعده الناس يوم سعد وبركة ، لأنه يسبق ليلة الجمعة ، وهى ليلة مباركة يستحب فيها عقد الزواج ، كما يسبق يوم الجمعة ، الـذى هو خير أيام الأسبوع على الاطلاق ، اذ هو اليوم المقــدس عند المسلمين ، ويسمى « الفضيلة » .. أما يوم السبت فهو أشد الأيام شؤما ، ويعد مجلبة للنحس أن يبدأ مسافر رحلته يوم السبت ، بل ان كثيرا من الناس لا يحلقون ولا يقصون أظافرهم فى ذلك اليوم .. وقد أراد أحد أصدقائى أن يقيم دعوى ضد شخصين .. ولكن لمـا كان اليوم يوم سبت ، فانه تردد خشية أن يصيبه النحس ، ثم قرر فى النهاية أنه أصــلح الأيام لاقامة الدعـوى ، لأنه ما دام النحس سيصيب حتما أحد الطرفين المتخاصمين ، فمما لا شــك فيه أنه سيصيب خصميه ، لأنهما أكثر عددا ، فالنسبة بينهم اثنــان الى واحـــد ..

وبعض أيام السنة تعد أياما مباركة مثل أيام العيدين ، ويعـد بعضها الآخر أيام نحس مثل يوم الأربعاء الأخير من شهر صفر ، فلا يخرج فيه الناس من بيوتهم ، لأنهم يعتقدون أن كثيرا من الكوارث تحل بالبشرية فى ذلك اليوم .. وبعض الناس يتفاءلون أو يتشاءمون بأول ما تقع عليه أعينهم فى الصباح ، حين يغادرون بيوتهم ، ويعـد مجلبة للنحس ، أن يرى الرجل أول ما يرى فى الصباح شــخصا أعور ، وبخاصة اذا كان « أعور شمال » .

الفنون الشعبية

كثير من الدراويش من طائفتى الرفاعية والسـعدية ، يكسبون عيشهم عن طريق طوافهم بالبيوت ، لاخراج ما قد يكون فيهـا من حيات وثعابين ‥ ويحترف هذه المهنـة أيضا عدد قليل من غير الدراويش ، ولـكن هؤلاء لم يبلغوا فيهـا من الشهرة ما بلغـه الدراويش ‥ ويطوف الدراويش فى طول البلاد وعرضها ، بحثـا عن الثعابين ، فيجدون منها العدد الوفير ‥ ولـكنهم يتقاضون أجرا لا يكاد يقيم أودهم · ويزعم الواحد منهم أنه يستطيع أن يعرف اذا كان فى البيت ثعبان دون أن يراه - وان كان من المحتمل أنه يعرفه من رائحة تميزه - ويستطيع أن يجذبه اليه ، فيخرجه من مخبئه كما يجذب صائد الطير الطائر بصوته ، فيوقعه فى الفخ · والثعبان يتخذ من الأماكن المظلمة مأوى له ، ولذلك كان من السـهل على الساحر ، حين يدخل وحده حجرة مظلمة من حجرات البيت ، أن يخرج من صدره ثعبانا قد خبأه ، ثم يخرج به الى أهل البيت الذين ينتظرون خارج الباب ، ويزعم لهم أنه أخرجه من الحجرة ‥ على أنه كثيرا ما يطلب الناس منه أن يخرج الثعبـان فى ضوء النهـار ، ويتجمعون حوله لـكى يشهدوا مهارته وبراعته ‥ وقد يفتشه من لا يؤمنون ببراعته ، وقد يجردونه من ثيابه قبل أن يشرع فى عمله ‥ ويحيط الرجل حركاته بالغموض ، فهو يقرع الجدران بعصـا قصيرة من الجريد ، ثم يصفر ، ويقرقع بلسانه ، ويبصق على الأرض ، ثم يقول : أستحلفك بالله - اذا كنت فوق أو تحت - أن تخرج ‥ أستحلفك بالاسم الأعظم - اذا كنت مطيعا - أن تخرج ‥ واذا كنت عاصيا فمت ، مت ، مت ‥ ثم يخرج الثعبان بعصـاه من شق فى الحائط ، أو يسقط الثعبان من سقف الحجرة ·

وقد سمعت كثيرا أن الساحر قبل أن يدخل البيت الذى يستدعى

لاخراج الثعبان منه ، يتفق مع أحد خدم ذلك البيت لـكى يخبىء له ثعبانا أو ثعبانين ٠٠ ولـكنى أعرف حالات كثيرة لا يمكن أن يكون قد حدث فيها مثل ذلك الاتفاق ٠ وأنا أميل الى الاعتقاد بأن الدراويش الذين يقومون بهذا العمل ، عندهم قدرة حقيقية على اكتشاف وجود الثعابين ـ دون أن يروها ـ وعلى جذبهـا من الأماكن التى تختبىء فيها ٠٠ على أن أكثرهم براعة ، وأشدهم مهـارة ، لا يستطيع أن يحمل معه ثعابين من النوع السـام الا اذا نزع أنيابها ٠٠ وهذه حقيقة مؤكدة ٠٠ وكثيرون منهم يحملون العقارب داخل الطاقيـة ، فى ملاصقة رؤسهم المحلوقة ٠٠ ولـكنهم يجردونها من قدرتها على الايذاء ، وقد يكون ذلك بازالة حدة زبانهـا ٠٠ وقد اشتهر هؤلاء الدراويش بأكل الثعابين السامة فى المناسبات الدينية ٠٠

ويوجد فى مدينة القاهرة عدد عديد من الحواة ٠٠ وهم يقومون بألعابهم فى الأماكن العامة ، فيجمعون حولهم حلقة من المتفرجين ، ويتلقون منهم تبرعات ضئيلة ، أثناء عرضهم تلك الألعاب أو بعد انتهاء عرضها ٠٠ وأكثر ما يرى الحواة فى الاحتفالات العامة ، كمـا يشاهدون فى أوقات أخرى ٠٠ وهم يستدرون تصـــفيق الجمهور واستحسانه ، بفكاهات وحركات واشارات معيبة ، كما يسترضونه بوسائل أخرى ٠٠ ويقوم الحاوى بعرض ألعاب كثيرة متعددة ، سأذكر هنا أكثرها شيوعا ٠٠ ها هو الحاوى ومعه غلامان يساعدانه ٠٠ انه يخرج من كيس كبير من الجلد ، أربعة ثعابين أو خمسة كبيرة الحجم ، ويضع أحدها على الأرض ، ويجعله منتصب الرأس وجزء من الجسم ٠٠ ويلف ثعبانا آخر حول رأس أحد الغلامين ، كأنه عمامة ، واثنين حول عنقه ثم ينزعهما ويفتح فم الغلام ، ويبدو كأنه يدخل متراس القفل فى خده ثم يقفله ، ويدفع فى حلقه مسمارا من الحديد ٠٠ والواقـع أن المسمار يدخل فى يد من الخشب ٠٠ وهذه خدعة أخرى : يجلس الحاوى الغلام على الأرض ، ويضع حد السكين فوق أنفه ، ويظل يدق عليه حتى يخيل اليك أن نصفه قد دخل فى عظام أنفه ٠٠ وهو يعرض خدعا أخرى معيبة لا أستطيع أن أصفها هنا ، وبعضها يثير الاشمئزاز ٠٠ أما الخدع التى يقوم بها وحده فهى مسلية مضحكة ، فهو يخرج

من فمه عددا هائلا من الأقمشة الحريرية المتعددة الألوان ، ويلفها حول ذراعه .. ويدخل فى فمه قطنا فيخرجه نارا .. ويخرج من فمه عددا كبيرا من قطع مستديرة من الصفيح تشبه الريال .. وهو اذ يقوم بألعابه ، ينفخ من آن لآخر فى محارة كبيرة تسمى « زمارة الحاوى » تصدر صوتا يشبه صوت البوق .

ومعظم الألعاب التى تقوم على خفة اليد ، تشبه تلك التى تعرض فى بلادنا وفى البلاد الأخرى .. فهو يأخذ من أحد المتفرجين خاتما من الفضة ، ويضعه فى صندوق صغير ، ثم ينفخ فى المحارة ويقول : ياعفريت .. بدله .. وحينذاك يفتح الصندوق فاذا به خاتم آخر ، ثم يغلق الصندوق ثانية ويفتحه فاذا به الخاتم الأول .. ثم يغلق الصندوق للمرة الثالثة ويفتحه ، فاذا به كتلة منصهرة من الفضة يقول عنها انها الخاتم المنصهر ، ويقدمها لصاحب الخاتم الذى يصر على أن يسترد خاتمه كما كان .. فيطلب الحاوى منه خمسة فضة أو عشرة فضة ليصبه ثانية ، فاذا أعطاه ما يريد يفتح الصندوق ثانية ويخرج منه خاتم الرجل ..

والعرافة ، أو قراءة البخت ، تمارسها فى مصر قبائل الغجر .. وهم يزعمون أنهم ينحدرون من سلالة البرامكة ، مثلهم فى ذلك مثل الغوازى .. وترى الغجريات يطفن فى شوارع القاهرة سافرات ، ويحملن فى جلد غزال الأشياء التى يستعملنها فى قراءة البخت .. وتنادى الغجرية قائلة : أشوف البخت .. الحاضر أبين ، والغايب أبين .. وبعضهن يصحن قائلات : ندق ونطاهر .. ومعظم الغجر فى مصر حدادون ونحاسون وسمكرية .. كما أن بعضهم يعملون بهلوانات .. والألعاب التى يؤدونها تكاد تكون قاصرة على الرقص على الحبل . وفى بعض الأحيان يربط الحبل فى مئذنة جامع ، على ارتفاع كبير من الأرض ، ويمتد نحو بضع مئات من الأقدام ، ويرتكز فى عدة أجزاء على أعمدة مثبتة فى الأرض . ويمسك الراقص فى يده عصا طويلة ، يحفظ بها توازنه ، وفى بعض الأحيان يمشى أو يرقص على الحبل وهو يلبس قبقابا ، أو يربط قطعة من الصابون فى كل قدم ويمشى عليهما .. أو يتعلق بكاحليه طفلان كل طفل فى ناحية ،

أو يربط فى نهايتى العصا غلامان ، ويجلس هو فوق صينية مستديرة موضوعة فوق الحبل ٠٠ وتعمل النسوة والفتيات والغلمان بهلوانات أيضا ٠٠

وهناك أيضا القرداتى ، الذى يبعث التسلية والمرح فى قلوب طبقة العامة ، بما يقدمه من ألعاب يشترك فيها قرد وحمار وكلب وجدى ٠ ويلبس قرده ملابس عجيبة ، كأن يلبسه ملابس العروس ، أو ملابس امرأة محجبة ، ثم يركبه الحمار ويلف به فى حلقة المتفرجين ٠٠ ويسير هو أمام الحمار يضرب على الرق ٠٠ ويبدأ القرد فى الرقص ٠٠ ثم يطلب القرداتى من الحمار أن يختار أجمل فتاة فى الحلقة ، فيذهب اليها الحمار ويدنى أنفه من وجهها ، فتغرق فى الضحك ، ويشترك معها جميع المتفرجين ٠٠

ويتسلى الناس فى مصر أيضا بمشاهدة تمثيليات فكاهية تافهة ، تقوم بها طبقة من الممثلين يسمون « المحيظين » ٠٠ وهم يعرضون مسرحياتهم فى بيوت الأغنياء ، فى الأيام التى تسبق حفلات الزواج والختان ، كما يعرضونها فى الأماكن العامة فى القاهرة ، فتتجمع حولهم حلقة من المتفرجين ٠٠ وتقوم تلك المسرحيات على الفكاهات المبتذلة ، والحركات المعيبة ، التى تضحك الجماهير من العامة وتستحوذ على اعجابهم ٠٠ ويقوم بالتمثيل الرجال والولدان ٠٠ أما أدوار النساء فيقوم بها رجل أو غلام يرتدى ملابس النساء ٠٠ وسأعطى هنا مثلا لمسرحية مثلها المحبظون أمام الباشا ، منذ عهد قريب ، فى احتفال أقيم بمناسبة ختان أحد أبنائه ، وكما هى العادة يحتفل الأمراء بختان أبنائهم أيضا فى المناسبة نفسها ٠٠

وشخصيات المسرحية هم الناظر ، وشيخ البلد ، وخادمه ، والكاتب القبطى ، وفلاح مدين للحكومة بالضريبة ، وزوجة الفلاح ، وخمسة أشخاص آخرون يقوم اثنان منهم بدور الطبالين ، وواحد يمثل دور الزمار ، واثنان يقومان بدور راقصين ٠٠ وتبدأ الرواية بالطبل والرقص والمزمار الذى يقدمه هؤلاء الخمسة ، ثم يدخل الناظر وبقية أشخاص الرواية الى الحلقة ٠٠ ويقول الناظر : ماهو المستحق

على عوض بن رجب ؟ فيقول الموسيقيون والراقصون الذين يقومون الآن بدور فلاحين سذج : اسأل القبطى أن يبحث فى السجل .. ويحمل الكاتب القبطى « دواية » كبيرة فى منطقته .. ويلبس عمامة سوداء .. ويسأله شيخ البلد : ماهو المبلغ المكتوب الى جانب اسم عوض بن رجب ؟ فيجيب الكاتب قائلا : ألف قرش .. فيقول شيخ البلد : وكم دفع منها ؟ .. فيقول الكاتب : خمسة قروش .. ويقول شيخ البلد مخاطبا الفلاح : يارجل .. لماذا لا تدفع النقود ؟ .. ويرد الفلاح قائلا : ليس عندى نقود .. فيصيح شيخ البلد قائلا : ليس عندك نقود ؟ اطرحوه أرضا .. ثم يأتون بكرباج ويأخذون فى ضربه ، وهو يصيح بالناظر مستنجدا ويقول : وحياة شرف ذيل حصانك يابيه .. وحياة شرف عصبة مراتك يابيه .. وبعد أن يقول هذه التوسلات المضحكة عشرين مرة ، يقف الضرب .. ويؤخذ الفلاح فيلقى به فى السجن . ثم تأتى اليه زوجته وتقول : كيف حالك ؟ .. فيجيب قائلا : اعملى فى معروفا يا امرأتى .. خذى بعضا من الكشك والبيض والشعرية واذهبى بها الى الكاتب القبطى وتوسلى اليه أن يطلق سراحى .. وتضع المرأة الكشك والبيض والشعرية كلا فى سلة وتذهب بها الى بيت القبطى ، وتسأل الناس هناك قائلة : أين المعلم حنا الكاتب ؟ .. فيقولون : هاهو جالس هناك .. فتقول له المرأة : يامعلم حنا اعمل معروف اقبل منى هذه واطلق سراح زوجى .. فيسألها قائلا : من هو زوجك ؟ .. فتقول : الفلاح الذى يدين بألف قرش .. فيقول لها : احضرى عشرين أو ثلاثين قرشا ، واعطها رشوة لشيخ البلد .. وتذهب المرأة ثم تعود والنقود فى يدها ، وتعطيها لشيخ البلد ، فيقول شيخ البلد : ماهذه ؟ .. فتقول المرأة : هذه رشوة فخذها واطلق سراح زوجى .. فيقول لها شيخ البلد : حسنا .. اذهبى الى الناظر .. فتدخل المرأة وتغيب لحظة ، تخطط عينيها فيها بالكحل ، وتخضب يديها ورجليها بالحناء ، ثم تعود الى الناظر وتقول : مساء الخير ياسيدى .. فيقول الناظر : ماذا تريدين ؟ .. فتقول المرأة : أنا زوجة عوض الذى يدين بمبلغ ألف قرش .. فيسألها الناظر قائلا : ولكن ماذا تريدين ؟ .. فتقول : ان زوجى سجين ، وأتوسل اليك أن تطلق

سراحه .. وهى اذ تحدثه تبتسم له ، وتظهر له بالايماءة والاشارة أنها ستدفع الثمن .. وبعد ذلك يطلق الناظر سراح الزوج ..

وقد مثلت هذه المسرحية أمام الباشا ، لكى تفتح عينيه على المخازى التى كان يرتكبها الموظفون الذين يقومون بجمع الضرائب ..

وهناك غير كل ما ذكرنا « القراجوز » .. وقد أدخله الأتراك الى مصر ، ولذلك تتكلم الدمى باللغة التركية .. ويسمى القراجوز بالعربية « خيال الظل » .. والتمثيليات التى يقدمها معيبة للغاية ، ويتسلى بمشاهدتها الأتراك فى بعض الأحيان ، ولكن الذين لايعرفون التركية لا يستمتعون بالتفرج عليها ..

على أنه توجد فى مصر وسيلة أخرى من وسائل التسلية ، أرقى من تلك التى سبق ذكرها .. وهى الاستماع الى الرواة الذين يترددون على مقاهى القاهرة ، وغيرها من المدن ، وبخاصة فى الليالى التى تقام فيها الاحتفالات الدينية .. ويجلس الراوى على كرسى صغير بغير مسند فوق المصطبة .. ويجلس بعض المستمعين على المصطبة الى جانبه ، ويجلس بعضهم الآخر فوق مصاطب البيوت المواجهة للمقهى فى الشارع الضيق .. ويجلس آخرون على مقاعد من الجريد ، وكل منهم يحمل غليونه ، فيدخن أو يحتسى القهوة ، وكلهم فى نشوة بالغة لا تحدثها القصة وحدها ، وانما الطريقة التمثيلية التى يلقيها بها الراوى .. ويتلقى الراوى أجرا ضئيلا من صاحب المقهى .. ولا يدفع الزبائن له شيئا ، وان كان بعضهم يدفع خمسة أو عشرة فضة ..

وأكبر الرواة عددا هم طبقة الشعراء ، ويسمون أيضا « أبو زيدية » لأنهم يروون سيرة أبى زيد الهلالى .. ويبلغ عدد هؤلاء الشعراء فى مدينة القاهرة خمسين شاعرا .. ويحفظ الشاعر القصة التى يرويها عن ظهر قلب ، ويرويها دون أن ينظر فى كتاب .. والمقاطع الشعرية منها يرددها غناء ، وبعد كل مقطع يعزف بضع أنغام على رباب ذى وتر واحد ، يسمى رباب الشاعر أو رباب أبى زيدى .. ويصحب الشاعر فى العزف رجل آخر يعزف أيضا على رباب ..

ويوجد فى مصر ، عدا الشعراء ، طبقة « المحدثين » .. وهم أقل عددا ، اذ يبلغ عددهم فى مدينـــة القاهرة نحو ثلاثين .. وهؤلاء يختصون برواية سيرة الظاهر ، أو السيرة الظاهرية ، ولذلك يسمون فى بعض الأحيان الظاهرية .. وسيرة الظاهر هى قصة خيالية عن حياة السلطان الظـاهر بيبرس ، الذى اعتلى عرش مصر عام ٦٥٨ هجرية .. و « المحدثين » يروون السيرة بدون كتاب ..

أما الطبقة الثالثة من الرواة فهم « العناترة » أو « العنترية » .. وهم أقل عددا من طبقتى الشعراء والمحدثين ، فلا يكاد يزيد عددهم على ستة ، ويسمون العنترية لأنهم يختصون برواية سيرة عنتر ، وهم يروونها من الـكتاب .. والمقاطع الشـــعرية منها يقولونها غناء ، ولـكنه غناء لا يصحبه عزف على الرباب .. ويروى العنترية قصصا أخرى غير قصة عنتر ، فيروون سيرة المجـاهدين ، وسيرة دلهمة أو ذو الهمة ، أو قصة سيف ذى اليزن التى يسميها العامة سيف اليزن ، أو سيف اليزل ، كما يقصـــون قصصا من ألف ليلة وليلة ..

الموسيقى والأغانى

المصريون بوجه عام مولعون بالموسيقى أشد الولع ، الا أنهم يعتبرون دراسة هذا الفن الرائع ، كالرقص ، لا ينبغى أن يضيع فيه عاقل وقته ، ويرون أن الموسيقى تؤثر على عواطف الانسان تأثيرا بالغا ، وتدفعه الى الخفة والنزق ، والانحلال والرذيله - وليس لدى المصريين مؤلفات كثيرة فى الموسيقى ، والكتب التى عندهم لا يفهمها الموسيقيون المحدثون • والدليل على حب المصريين الطبيعى للموسيقى أن من عادتهم أن يسروا عن أنفسهم من عناء العمل بالغناء وهم يعملون •• فترى المراكبى وهو يجدف ، والفلاح وهو يرفع الماء ، والحمال وهو يحمل أثقاله ، والرجال والفتيان والفتيات ، وهم يجلبون للبناء الطوب والحجارة والمونة ، وينقلون الأنقاض ، ترى كل واحد من هؤلاء ، يعمل وهو يغنى •• ومع أن أسلوب الموسيقى المصرية من الصعوبة ، بحيث لا يستطيع الأجانب اقتباسه أو تقليده ، فان الأطفال المصريين يتعلمونها فى سهولة كبيرة ، وفى سن مبكرة •• وتدريس ترتيل القرآن فى الكتاتيب ، يساعد على ازدياد حبهم الطبيعى للموسيقى ••

وكلنا يعرف ، كيف كان العرب يهتمون بالعلوم ويشجعونها ، حين كانت شعوب أوربا تعيش فى ظلمات الجهل ، كما نعرف كيف استفاد العرب من مؤلفات الكتاب الاغريق القدماء • ويبدو أنهم قد كونوا هذا الأسلوب فى الموسيقى ، الذى ساد بينهم قرونا عديدة مما وجدوه فى المؤلفات الاغريقية والفارسية والهندية • وكلمة موسيقى ، وكذلك أسماء بعض الآلات الموسيقية العربية ، مشتقة من اللغة الاغريقية ، ولكن معظم المصطلحات الفنية التى يستعملها الموسيقيون العرب ، قد استعاروها من اللغتين الفارسية والهندية •• ويوجد تشابه عجيب بين كثير من الأنغام التى سمعتها فى مصر

وبين الالحان الشائعة فى اسبانيا . وليس فى هذا غرابة ، فالعرب فى اسبانيا كانوا يعنون عناية كبيرة بالموسيقى ، وتحتوى مكتبة الاسكريال ، على رسائل عديدة ألفها العرب فى هذا الفن .. وأشهد أننى أجد متعة بالغة فى الاستماع الى النوع الراقى من الموسيقى المصرية ، وكلما اعتادت أذنى سماعها ، ازداد استمتاعى بها ، ولكنى مع ذلك لم أجد كثيرا من الأوربيين يشاطروننى هذا الاعجاب .. والمصريون يطربون كل الطرب ، حين يستمعون الى المغنين ، فيصفقون لهم ، ويصيحون قائلين : الله .. ويمدون فيها طويلا .. أو يقولون : الله يفتح عليك .. يسلم صوتك .. وغير ذلك من التعبيرات ..

والموسيقيون المحترفون يدعون الآلاتية ، والمفرد آلاتى ، ومعناه الذى يعزف على الآلة ، ولكنهم فى الغالب موسيقيون ومغنون فى الوقت نفسه ، وهم فى العادة ذوو أخلاق منحلة ، ولا يقلون فى سوء سمعتهم عن الغوازى والراقصين من الرجال ..

ويؤجر المغنون لاحياء الحفلات الكبرى ، فيؤتى لهم بالكونياك وغيره من المشروبات الروحية . وقد يفرطون فى الشراب حتى لا يستطيع الواحد منهم أن يغنى حرفا ، أو يحرك وترا .. ويدفع للموسيقى الواحد فى الليلة ، ما يعادل نحو شلنين أو ثلاثة ، ولكنهم فى الغالب يتقاضون أجرا أكبر من ذلك ، ويساهم المدعوون فى دفع هذا الأجر .

وهناك أيضا مغنيات محترفات يسمون **العوالم** ، والواحدة عالمه . ويؤتى بالعوالم اذا كانت هناك حفلة فى حريم أحد الاغنياء ، ويوجد عادة مخدع صغير مرتفع يسمى طقيسه أو مغنى ، متصل بحجرة الاستقبال الرئيسية فى الحريم ، لا يفصله عنها الا حاجز من الخشب المتشابك ... فاذا كان فى البيت ضيوف من الرجال ، فانهم يجلسون فى الفناء ، أو فى حجرة فى الطابق الارضى ، ليستمعوا الى غناء العوالم ، اللاتى يجلسن فى هذه الحالة أمام نافذة فى الحريم ، ويغنين يحجبهن خشبها المتشابك .. وبعض العوالم يستطعن العزف

على الآلات الموسيقية • وقد سمعت أشهر العوالم فى القاهرة ، فطربت لغنائهن كما لم أطرب لغناء أعظم الآلاتية ، بل أزيد على ذلك فأقول ، انه لم تطربنى اية موسيقى أخرى سمعتها فى حياتى ، كما أطربنى غناؤهن •• وتتقاضى العوالم أجرا كبيرا ، وأعرف بعض الحالات ، التى جمع فيها من المدعوين فى احدى الحفلات ، ما يعادل خمسين جنيها انجليزيا أو يزيد ، لعالمة واحدة ، وكان ذلك فى بيت أحد التجار ، ولم يكن المدعوون الذين دفعوا هذه النقود من الموسرين •• وقد يبلغ تأثير العالمة التى تجيد الغناء ، على المستمعين ، أنهم حين يبلغ بهم الطرب غايته ، يغدقون عليها من المال ما هو فوق طاقتهم وبعض العوالم فى القاهرة على جانب من الثقافة ، بحيث أن الواحدة منهن جديرة بأن يطلق عليها اسم « عالمة » ، الذى يعنى أنها على جانب من العلم •• وهناك أيضا عوالم من طبقة أقل ممن ذكرنا ، وهؤلاء يرقصن أحيانا فى الحريم ، وهذا هو السبب فى أن السائحين كثيرا ما يخلطون بين العالمه والغازية ، فيطلقون كلمة عالمه خطأ على الراقصات المعروفات بالغوازى •

والآلات الموسيقية المصرية كثيرة متعددة ، وتلك التى تستعمل عادة فى الحفلات الموسيقية الخاصة هى الكمنجة (١) والقانون والعود والنادى • ويستعمل أيضا فى هذه الحفلات نوع من الدف يسمى الرق ، كما أن هناك نوع من الماندولين يسمى الطمبور ، ويستعمله اليونانيون وغيرهم من الأجانب • والفقراء من المغنين يستعملون **الرباب** وهو نوعان : رباب المغنى ورباب الشاعر •• ووجه الاختلاف بينهما ، أن رباب المغنى له وتران ، ورباب الشاعر له وتر واحد ، ويعزف عليه الشاعر الذى يروى قصة أبى زيد الهلالى ، ولذا فهو يسمى رباب الشاعر ، أو رباب أبو زيد • أما الآلات الموسيقية ، التى تستعمل فى مواكب الزفاف ، ومواكب الدراويش وغيرها ، فهى مزمار يسمى الزمر ، وأنواع كثيرة من الطبول ، أكثرها شيوعا

---

(١) قال صديق مصرى ، بعد ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، أن كلمة رباب أصح من كمنجة ، ولكنى لم أسمع أحدا من المصريين يطلق عليها اسما غير الكمنجة ، وهى تسمى بهذا الاسم أيضا فى سوريا

الطبل البلدى والطبل الشامى ، الذى يضرب عليه بقطعتين من العصى الرفيعة .

وتستعمل فى الاحتفالات الدينية مثل عودة الحجاج وغيرها ، طبلتان كبيرتان تسميان نقاقير ، والواحدة نقاره .. وهما مصنوعتان من النحاس الأحمر ، ومتشابهتان فى الشكل ، وتوضعان على جانبى الجمل ، فى مقدمة السرج الذى يجلس عليه الطبال.. والطبلة الكبيرة منهما هى التى توضع على الجانب الأيمن . وقد يستعمل الدراويش أيضا فى المواكب الدينية ، طبلة صغيرة تسمى **الباز** ، التى يستعملها أيضا المسحراتى ليوقظ بها النائمين ، ليتناولوا سحورهم فى شهر رمضان ، ويضرب عليها « بسير » من الجلد أو عصا ..

أما الصناجات ، فيستعملها الراقصون من الرجال ، وكذلك الراقصات (انغوازى) وتسمى « صاجات » وهناك آلتان توجدان عادة فى حريم الرجل المتوسط الثراء ، وتستعملهما نساء الحريم للترفية عن أنفسهن ، واحداهما عبارة عن دف يسمى **الطار** ، والاخرى طبلة تسمى **الدربكه** .. وأجود أنواعها هو المصنوع من الخشب المطعم بالصدف ، والنوع الشائع منها هو المصنوع من الفخار .. والمراكبيه يستعملون دربكه من الفخار ، ولكنها أكبر حجما من تلك التى تستعملها نساء الحريم ، ويستعملون معها **الزمارة** ، وهى مصنوعة من البوص ، أو يستعملون **الأرغول** ، وهو أيضا مصنوع من البوص . وقد يستعمل الأرغول بدلا من الناى فى حلقات الذكر ..

والآن ، سأختتم هذا الفصل ، بعرض بعض الأغانى الشائعة كمثل للموسيقى المصرية . ويلاحظ أنه فى معظم الأغانى العربية ، يخاطب المحب بضمير المذكر ، رغم أنه أنثى ، كما سنرى فى كثير من الأغانى التالية ، ولذا فقد عمدت أثناء ترجمتى الأغانى الى اللغة الانجليزية ، الى استعمال الضمير المؤنث حيثما كان الشخص

الاغنية الاولى

دوس يالى (١) دوس يالى (ثلاث مرات)
عشق محبوبى فتنى
(هذان السطران يرددهما الكورس بعد كل مقطع من المقاطع التالية)

ما كل من نامت عيونه
يحسب العاشق ينام
والله أنا مغرم صبابه
لم على العاشق ملام

* * *

يا شيخ العـرب يا سـيد
تجمعنى عالخل ليلـة
وان جانى حبيب قلبى
لاعمله الكشمير ضليلة

* * *

كامل الأوصاف فتنى
والعيون السود رمونى
من هواهم صرت أغنى
والهـوى زود جنـونى

* * *

جمعم جمع العـــوازل
عن حبيبى يمنعونى
والله أنا ما افوت هواهم
بالسـيوف لو قطعونى

* * *

قوم بنا يا خل نسـكر
تحت ضـل الياسـمينه
نقطف الخوخ من على امـه
والعوازل غافلين

* * *

(١) « يالى » صيحة تعبر عن الفرح ، مثل يا فرحتى

يا بنات جـــوا المدينه
عندكم اشيا ثمينه
تلبسو الشاطح (١) بلولى
والقلادة (٢) عالنهد زينة

* * *

يا بنات اسكندريه
مشيكم عالفرش غيه
تلبســو الكشمير بتللى
والشفايف سـكريه

* * *

يا ملاح خافو من الله
وارحمو العاشق لـلــه
حبـكم مـكتوب من الله
قدروا المـــولى عليه

الاغنية الثانية

يابو الجلفى يابو الجلفى (٣)
راح المحبوب ما عاد ولفى

* * *

راح المرسال ولم جاش
وعين الحب بتراشى
يابو الجالف (٤) يابو الجلفى
يا ريتنا ما انشبكناش
يابو الجلفى الـخ

* * *

(١) الشاطح وجمعه شواطح هو نوع من الحلى ، يشبه قلادة من اللؤلؤ ، أو أكليل تضعه المرأة على جانبى الربطة

(٢) القلادة عقد طويل يصل الى الحزام ، قد يكون من الماس ، أو غيره من الاحجار الكريمة ، كما قديكون قطع نقود ذهب بندقى ، أو نقود ذهبية تركية أو مصرية

(٣) الجلفى هو اليلك ذو الاكمام الطويلة ، تلبسه المرأة فوق الملابس الداخلية ويشبه القفطان ، الا أنه ضيق عند الذراعين ، وملاصق للجسم

(٤) الجلف هو شعر المرأة المقصوص ، على جانبى الرأس ، ويعرف بالمقصوص

وليه يا عين شبكتينا
وبالالحاظ جرحتينا
يابو الجانف يابو الجلفى
بالله رق واشفينا
يابو الجلفى الخ

* * *

أسقمتنى ياحبيبى
وما قصدى الاطبك
عساك يا بدر ترحمنى
فان قلبى يحبك
يابو الوردى يابة الوردى (١)
حبيب قلبى خليك عندى
د، الحب جالى يتمايل

الاغنية الثالثة

ما مر وسقانى حبيبى سكر
نصف الليالى عالمدامه نسكر
ندرن عليه وان أتى محبوبى
لا عمل عمايل معملهاش عنتر

* * *

يا بنت ملسك داب وبانت ايديكى
واخاف عليكى من سواد عنيكى
قصدى أنا أسكر وأبوس خديكى
واعمل عمايل معملهاش عنتر

* * *

فايته عليه ماليه الأرجيله (٢)
ومية الماورد فى الأرجيله
أنارى البنيه عاملاها حيله

---

(١) يا ذات الرداء الوردى

(٢) الاسم الشائع هو النارجيله وهى الغليون الفارسى ..

ميته تقولـلى تعـالى يا جـــدع نسـكر
طول الليـالى لم ينقطع نوحى
على غـــزال مفرد وخد روحى
ندرن عليـــه وان أتى محبوبى
لا عمـل عمايل معملهاش عنتــــر

* * *

يا دمـع عينى عالخديد مين حـلك
قالـلى بيزيدك شوق على بعاد خـــالك
ارحم متيـــم يا جميـل مشـغول بك
تعمى عيون اللى ما يحبك يا اسمر

* * *

أسمر وحاوى الوردتين البيض (١)
حبى تخلق فى ليـــالى العيـد
ندرن عليه وان أتانى ســـيدى
لاعمـل عمايل معملهاش عنتـــر

الاغنية الرابعة

عاشق رأى مبتلى قال له انت رايح فين
وقف قرا قصته بـكيم سوا الاثنين
راحم لقاضى الهـــوى الاتنين سوا يشـكم
بكيو التلاته وقالوا حبنا راح فين
الليل الليل يا حلو الأيادى حاوى الخوخ النادى
انتم منين واحنـــا منيـن لما شبـــكتونا
عاشق يقول للحمام هات لى جناحك يوم
قال الحمام أمرك باطل قلت غير اليوم
حتى أطير فى الجو وانظر وجه المحبوب
آخد وداد عا وارجع يا حمام فى يوم
الليـــــل الليــــل .. الـخ

(١) الحبيبة السمراء على خديها وردتان بيض



تصدر عن دار التحرير للطبع والنشر

الاشتراكات تطلب من

ادارة كتب للجميع

قيمة الاشتراك عن سنة أو نصف سنة

فى	سنة قرشا	نصف سنه قرشا
مصر	١٢٠	٦٥
السودان	١٢٠	٦٥
العراق	١٤٠	٧٥
سوريا	١٤٠	٧٥
لبنان	١٤٠	٧٥
المملكة الأردنية الهاشمية	١٤٠	٧٥
المملكة العربية السعودية	١٤٠	٧٥
الكويت	١٦٠	٨٥
عدن	١٦٠	٨٥
حضرموت	١٦٠	٨٥
اليمن	١٦٠	٨٥

رئيس التحرير
احمد حمروش

سكرتير التحرير
راجى عنايت

الفهرس

المحتوى	الصفحة
كلمة الكتاب	5
مقدمة	9
جولة في المجتمع المصري	11
سنوات الطفولة	29
حياة الرجل	39
حياة المرأة	53
حياة المعدمين	75
نظرة إلى الأخلاق	79
الصناعة في مصر	95
المواسم والأعياد	109
الخرافات	129
الفنون الشعبية	147
الموسيقى والأغاني	154
المحتويات	163

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

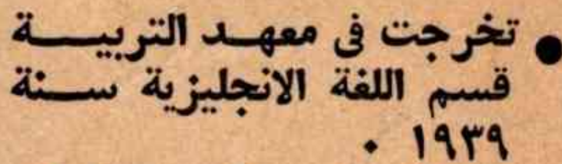
م. سرمد حاتم شكر السامرائي

المؤلف

- ادوارد ويليام لين ، مستشرق انجليزى ، ولد سـنة ١٨٠١ ومات سنة ١٨٧٦ .
- زار مصر ثلاث مرات : الأولى سنة ١٨٢٥ ، والثـانية من ١٨٣٣ الى ١٨٣٥ ، والثالثـة من ١٨٤٢ الى ١٨٤٩ .
- درس خلال زياراته الثـلاث ، عادات وأخـلاق المصريين ، ووضـع هذا الكتاب ، الذى وصف بأنه أعظم كتاب ألف عن شعب من الشعوب .
- ترجم الى الانجليـزية كتاب ألف ليلة وليلة .
- وضع معجما عربيا انجليزيا .

المترجمة





- تخرجت فى معهد التربيـة قسم اللغة الانجليزية سـنة ١٩٣٩ .
- حصلت على دبلوم الدراسات الانجليزية من جامعة كمبردج سنة ١٩٤٥ .
- أتمت هذا العام ترجمة ((دائرة معـارف الناشئين)) من مشروع الألف كتـاب (تحت الطبـع) .
- تعمل مفتشة للغة الانجليزية بوزارة التربية والتعليم .